

خالد محمد خالد
مِنَ الْعُلَمَاءِ

لَكِنِّي لَا تَحْزُنُونَا فِي الْبَحْرِ

« اعْرِفُوا الْحَقَّ ، ثُمَّ اتَّبِعُوهُ »
« وَسَيَجْعَلُكُمُ الْحَقُّ أَحْرَارًا . »

الناشر
مكتبة الانجبلو المصرية
١٦٥ شارع محمد نوري
القاهرة

مارس ١٩٥٥

اهداءات ١٩٩٩

مكتبة

ا.د. عبد الحميد بدوي

القاضي بمحكمة العدل الدولية

خالد محمد خالد
مِنَ الْعُلَمَاءِ

لَكِنِّ لَا تَحْرُتُوا فِي الْبَحْرِ

.. اعْرِفُوا الْحَقَّ ، ثُمَّ اتَّبِعُوهُ ..
.. وَسَيَجْعَلُكُمُ الْحَقُّ أَحْرَارًا ..

الناشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد زكي
القاهرة

مارس ١٩٥٥

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

مطبعة مخيم
٢٩ شارع الجيش ت ٤٧١٩٢

الإهداء

إلى الرجل الذي كان لي أستاذاً قبل أن يكون أباً...
من علمتني شمائله القويّة. أن الواجب أبقي من المنفعة
وما دام هذا. أول كتاب يصدر بعد رحيله..
فأذنوا لي، أن أقدمه لروحه وذكره..
في خُشوع وتقوى

فصول الكتاب

الفصل الأول — الديمقراطية ، ضرورة خلقية ص (١١)

« يتحدث عن الطغيان كزرعة للرذيلة ، ويكشف عن مسؤولية الحكم المطلق تجاه الرذائل التي يثمرها وجوده . وينادي بديمقراطية واسعة ، كبداية لكل تجديد خلقى »

الفصل الثانى — الواجب ، لا القوة . . ص (٨١)

« يكشف عن آفتنا الكبرى ، المتمثلة فى التوسل بالقوة والقسر لتقويم السلوك . ويعرض دور المنزل ، والمدرسة والقانون ، والسجن ، والرأى العام ، والصحافة فى تعويق المسلك الخلقى للمجتمع ، ويبشر بالواجب كقيمة »

الفصل الثالث — أخلاق المدنية أهدى . . ص (١٦٧)

« يفصل بين الأخلاق الدينية ، والدين . . ويناقش قدسية التقاليد ، والأيمان بالقدر . وقيم البرهان على استنفاد الأخلاق الدينية أغراضها . كاشفا عن خصائصها ، وداعيا إلى الأخذ بأخلاق المدنية فى عزم وثقة »

مقدمة

أريد أن أعرف :

وقف إنسان فوق قمة جبل « ولسن » بكاليفورنيا أمام أكبر منظر
في العالم ، ليرى عجائب السموات ، ويصير السدُم والشموس والكواكب
التي تملأ رحاب الفضاء . .

وبعد أن بصر بما لا عين رأت ، واستشرف من وراء زجاج المنظار
ملا يخطر بقلب بشر . ، قال لرفيقه والرهبة تملأ رُوعه :

— أعتقد أنه من العسير علينا أن نرى النهاية . . . ؟

فأجابه :

— نعم ، لأنه ليس هناك نهاية . . . ! !

ولقد رأيتني أقف ونفسي هذا الموقف عندما زاملت النفس البشرية
في رحلة سريعة . نفسى . . ، ونفسك . . ، وأنفس الآخرين . .

وانبعث في روعي هممة سؤال متردد يقول :

— أعتقد أنه من العسير علينا أن نبصر النهاية . .

وفي أعقابها رنت إجابة حاسمة :

— نعم ، لأنه ليس ثمة نهاية . . !

إن أنفشنا التي بين جنوبنا أكوان آخر . تعج بالخواف والأسرار . .

ولقد نتسمع أصداء أجرامها الهادرة ، ونلح بريق غازاتها المتوهجة . .

يبد أن ذلك لايعنى أننا عرفنا السكون العجيب وكشفناه . ؟ فلا يزال

مبلغ جهد العقل تجاهه أنه واقف على أبوابه يقرعها . . .

ولقد عرفت بعد ، كنة الومضة العلوية التي التفتت في القلوب الذكية
لأنبياء الصين وحكائها الأقدمين فقالوا بجلهم المضيئة الجامعة : — « من

عرف كل شيء . . ، غفر كل شيء » . . . ١١

أولئك قوم وضعوا بصائرهم على المظار ساعة من نهار . ؟ فوجدوا
الحقيقة التي أهلتهم لأن يتحدثوا عن الإنسان ، ويتحدثوا إلى الإنسان . .
وكذلك عرفت بعد ، لماذا تذهب صرخات الداعين إلى الفضيلة
في بلادنا مع الريح . .

ذلك أنهم يتادون الناس من مكان بعيد . . ويتراءى لهم أنهم
يخاطبون دمي خشبية لا أناساً يمرون مورا بانفعالات وجودهم
والحياة . .

أجل .. ماذا نعرف عن اللاز الذي نحمله ، ونسميه نفسا . . ؟ ؟
وماذا نعرف عن الوعاء الذي نعيش داخله ، ونسميه مجتمعا . . ؟ ؟
ماذا يعرف أهل الفضيلة عن الرذيلة . . ؟
وماذا يعرف أهل الرذيلة عن الفضيلة . . ؟
وكما قال شاعر الإنجليز « كبلنج » :

— ماذا يعرف عن أفلاطون ، من لا يعرف غير أفلاطون . . ؟ ؟ ١١

أريد أن أعرف . .

هذا هو الهتاف المجلجل الذي كان يقرع في نفس يسوع ، وهو
هائم على روابي الجليل . .

وفي نفس محمد ، وهو ثاو في غار حراء . .

وفى وعى بوذا ، وهو يتوائب وراء الحقيقة بين سهول الهند ونجودها ..

وإذا ذهبت تفتى الناس قبل أن تعرف ؛ فقد ظلمتهم ولو كنت مصيبا ..

وإذا أفنتهم بعد أن تعرف ؛ فقد أنصفتهم ولو كنت مخطئا ..

فهل عرف الآمرون بالفضيلة — فى بلادنا — شيئا عن قساوة الفضيلة .. ؟

وهل عرف الناهون عن الرذيلة — فى بلادنا — شيئا عن ضراوة الرذيلة .. ؟

وقبل هذا وذاك . ، هل عرفوا المفاهيم الصحيحة والصادقة للفضيلة وللرذيلة .. ؟ ؟

الحق أن مسافة الخلف بعيدة جداً بين الأمرين بالمعروف والمعازفين عن المعروف . . بين الناهين عن الشر ، والوافين فى الشر . .

وحتى يقوم بين الفريقين جسر من المعرفة الحقة والأدراك السليم سيظل المعروف فى ديارنا غريب الوجه واليد واللسان . . .

ذلك أن النتائج الموضوعية التى نحصل عليها من تجارب واقعنا وخبراته هى وحدها التى تهبنا الثقة بما نخطه من مناهج ، وما ننتهى إليه من أحكام . .

وقد قال حكيم صيني : « من غير الحكمة أن يكون الإنسان حكيماً لم تساهم التجربة فى تكوينه . ، وإذا ركن إنسان لحكم أنجبته المصادفة ؛ فمعناه أنه قد ضلّ سواء السبيل . . »

وإذن ، فلنستطيع من تطوير سلوكنا وتعليته يجب أن نملك قبل البدء في العمل معرفة وثيقة .

أما نظرتنا المائلة للأخلاق ، هذه التي ورثناها عن أجيال أدمنت الإيمان بالغيب ، ووضعت حياة الناس وسلوكهم داخل إطار لاهوتي جامد ، وامتهنت التجربة الانسانية ، والمعرفة العقلية ؛ فلم تصغ لأيهما في المشكلة - فهي نظرة غير سديدة بقدر ما هي غير مجدية . .

من أجل ذلك نخطأ كثيراً ولا نزال . ، ولم نعرف كيف نعمل . لأننا قبل هذا لم نعرف كيف نعرف . . .

ادكروا هذا جيداً . .

إن المعرفة الكاملة الساجدة ، هي سبيل العاملين لكي يظفروا بعمل كامل ناجح .

والبرهان المبين على أن معرفتنا بمشكلة الأخلاق في بلادنا ناقصة وداكنة - هو أن جهادنا المبذول في هذا السبيل ضائع وذاهب مع الريح . .

فبقدر ما نشاهد كدح الغيورين على الفضيلة والداعين لأن تقوم في ضامير الناس مقام القانون . ، بقدر ما نشهد أيضاً إخفاقهم للوصول ، وخيبة أملهم المتساقطة . . . ! !

أفليس ذلك جديراً بلفت أنظارنا ، وحث انتباهنا . . ؟
بلى . . ولقد كان هذا الأمر على رأس الحوافز التي ألهمت الكتاب تفكيره ، وهدت إلى الحقيقة خطأ . .

لقد وجدت أننا في هذه المشكلة كما في غيرها من المشاكل نعمل
بغير دليل . .

وإذن فنقطة البدء أن نجد دليلاً للعمل . .
والدليل ، ماذا يكون . . ؟

إنه المعرفة . . المعرفة التي تتكوّن من فحص الواقع الإنساني فحصاً
بصيراً نافذاً .

أما الاكتفاء بمشاعرنا الذاتية ، والاهتداء بانفعالاتنا العارضة ،
وتقليدنا للآراء لا ندري كيف تكونت . فأسباب لا تمنحنا الدليل
لعمل ناجح أو إصلاح ناجح . .

إنما يمنحنا ذلك ، التبع اليقظ لنتائج النشاط الحيّ للفرد
والمجتمع والتاريخ . .

فمن خلال التحامنا بالأشياء ، واتصالنا بالأحياء تنبثق إمكانية استشراف
الحقيقة وكشف المعرفة .

وإذا ما سألت : أينبغي على المصلحين أن يتمرسوا بالذائل كالسرقة ،
والغش وهتك العرض مثلاً ، لكي يستطيعوا أن يعرفوها ثم يرموها طريق
الخلاص منها . . ؟ ؟

أجيب قائلاً :

إن الأمر لا يتطلب ذلك إذا كنا سنختبر ذائل تقرر وصعها
الاجتماعي . عن طريق التجربة الطويلة للإنسان .

يبد أن الأمر يتطلب التجربة غير المباشرة ، أعني الاندماج في الواقع

وجعله موضع البحث والفحص والتفكير ، إذا أردنا أن نكشف عوامل انتعاش الرذائل ، وأسرار سيطرتها على النفس وتحكمها في السلوك .
 وحين يازمنا تعقب جرائمها القاتلة للقضاء عليها . هنا تهيب بنا الحكمة القائلة : « لكي تصيد أشبال النمر ، لابد من أن تنفذ إلى عرينه » .
 والوصول إلى العرين لا يكلفك أن تنقلب نمرأ .

فليس من الضروري إذن لكي تصل إلى تفسير صحيح ووثيق لبواعث الرذيلة أن تمارسها ، وإن كان لابد من السير في دروبها ، ودراسة أصحابها ، وكشف الغطاء عن السلوك الممنوع الذي يخفى وراء وداعة الحمل ، شراسة الوحش . .

ومن النقص الويل في بلاد تدير الأخلاق بالمواظبة ، ألا يوجد أقوام يفعلون هذا . . يدرسون سلوك الإنسان في الإنسان ، ويمشون في مناكب المجتمع ، ليعرفوا مآل الانطباعات الرديئة والانعكاسات الشريرة التي يتركها في أفراد . ، ويندججون في فطنة وذكاء بواقع الحياة ليوائموا بين الناس وبينها مواءمة تهدي إلى الفضيلة والمعرفة . . الأمر الذي حاول كتابنا هذا أن يفعله متجهاً سلفه « هذا . . أو الطوفان »

لقد نفذ إلى أعماق المشكلة الحية . . ولم يدرس الناس في الكتب . بل في أنفسهم ، وفي شهواتهم . ما يسرون منها وما يعلنون . والتقى بهم عند المنع الذي يصب فيهم ، ويصوغ نماذجهم ، واستكنة جاهدًا بواطن الذين استهوهم الشر فساروا في موكبه نشاوى ثملين . . . وقبل أن يسير في الطريق ، ويسبر غور الدرب المجهول كان مبلغ وعيه بالمأساة أنه يجهلها .؛ أما الآن فإنه يعرفها . . كان يسمع بها . ، أما الآن فقد رآها . .

كان يتلظ مع الأتقياء العاجزين بـ « لا حول ولا قوة إلا بالله »
أما الآن ، فهو يحمل مشعلا ينير الطريق . ويسلب محترفي الغيرة على
الفضيلة تظاهريهم الأجوف . ويدعو جميع المناضلين ضد الكذب
والهتان ، وضد الرذيلة والشر ليضربوا بسواعدهم البارة في أرض
للعرفه والخير والجمال . .

ولقد سألتى كثيرين من القراء فى رسائل ودودة تلقيتها منهم بعد
ظهور كتابنا السابق عما إذا كان سر اختياري لعنوانه « هذا . .
أو الطوفان » هو مجرد الرغبة فى الأثارة وشد زناد الانتباه . أم أنا
أعنى بالفعل مدلول هذا العنوان الخطير . . ؟

والحق أقول لأصدقائى هؤلاء : إن المفهوم القوى والمتزن والمحدد
لهذا العنوان هو الذى جعلنى أوتر اختياره . ولقد أفاء علينا اختبارنا
الوثيق للمشكلة التى نعالجها ، بصيرة بالمصير الذى يسوقنا إليه تجاهلنا
القيم الصحيحة للحياة ، وإدعائنا الضارى للغو الخرافة وضغط التقاليد . .
وهو مصير أخطر من الطوفان . . . !

إن الطوفان الهادر على ظهر الأرض ، والمتبدى أمام العيون ،
قد يجد مقاومة تقف سعيه أو تعتاق زحفه . . أما ذلك السيل الذى
يجرى فى جوف الأرض خلسة . . ذلك الذى لا تقع عليه العين ، ومن
ثم فلا تتق أخطاره ؛ فهو الذى يحمل نعى كل مكان يمر به .

ألا وإن رذائل هذا المجتمع لمن ذلك الطراز الويل . إنها من حيث
الكم ومن حيث النوع ، لا تسكاد تجذب الانتباه فضلا عن أن تهيب
بأرادة المقاومة ، إنها تسبح وتسرح فى استخفاء كالسيول الجوفية . تأكل

مناعة الأرض من قواعدها ، وتمتص ثباتها ورسوخها ، حتى إذا جاء
ميقاتها المعلوم ، ألفتها تبيد على حين غفلة . فتترنج وتهوي ، وتنادى
الذين فوقها فيلبون النداء نداء الأغوار التي خسفت ، ثم أغرقت
ثم بادت . .

إن هذا الكتاب يجيء في أوانه ليأخذ انتباه قومه إلى قضية جليلة
لم يتعودوا أن يتحدثوا عنها إلا تفككها ، أو تبذخا ، أو رثاء الناس . .
ولقد مرّ بكم منذ عام (هذا . . أو الطوفان) واليوم يأتيكم تنمة
البحث في هذا الكتاب .

ولست أنصح أحداً بأن يقرأ أحدها ويدع الآخر . ؛ فان فعل ،
فسيظل إدراكه لوجهة النظر المبسطة في كلا الكتابين إدراكا مبتورا .
وأيا ، لا أنصح أحداً بأن يتوآب بين الصفحات ، ويختطف
الكلمات اختطف العجلان . .

وكما قلت لكم في مقدمة الجزء الأول ، أقول لكم هنا أيضا . .
اقرأوه كله ، أو اتركوه كله . ومن لم يفعل ؛ فلست أحمل معه مسؤولية
الأحكام المبسرة التي تجهضها القراءة الناقصة .

لقد عني الكتاب السالف ، بأرجاع الانسان إلى مكانه . داعيا إلى
فحص سلوكه بوصفه إنسانا ، لا إلها . . وناصحا بأن نعتمد في تعلية نزعاته
وتقوم شخصيته على طبيعته الحرة ، لا المصفدة ، وكاشفا عن المضلات
الرهبة التي أحالت حياتنا إلى فتنة غامضة ، ومضطرب خافت الحيلة ،
مزعج الحوار . .

وهنا نستأنف رحلتنا ، ونترك على هذه الصفحات كلتنا الوثيق فيما

ينبغي أن نلتزمه من نهج إذا أردنا أن نمسك الآخرين من فضيلة نامية وسلوك قويم ونرجو أن تفرغ لساته الواقعية نوراً وهدى على المشكلة التي يعالجها ، والتي يناط بها مصير الناس حيث يوجدون .

وماذا هناك أيضا لأقوله لكم قبل أن أغادر هذه المقدمة . ؟
عبارة أخيرة . ؛ نخذوها مشكورين . .

إن هذا البحث لا يزعم أنه قطف نجوم السماء . . ولكنه يرجو بما أبلى من جهد ، وما استورى من بينة أن يكون مشعلا فوق الظلمات الخائقة . ظلمات المجتمع الذي يقتات بالكذب والنفاق والعجز ؛ فمن كان معه كلة تزيد المشعل ضوءاً فليقلها ولو كانت مضادة ومغايرة . . ، ومن كان معه مشعل آخر فليرفعه فوق الظلمة . .

فلمست أعرف سبيلا أهدى من هذه لنعرف كل الحقيقة وكل البهتان .

فبالر

الديمقراطية ، ضرورة خُلُفِيَّة

« الحكومة المستبدة ،
أخطر على روح الإنسان
« من الوحش المفترس . . . »
— كنفوشوس —

في هذا الفصل

- بلاد السمع والطاعة
- الطغيان ، مزرعة الرذيلة
- الإشاعة ، هي العادة السرية للمجتمع المضطهد . .
- الانحطاط الخُلُقي ، ابن شرعي للانحطاط العقلي . .
- مصرع الباعث الخُلُقي
- اضرب لهم مثلاً

بهمود السمع والطاعة

في هذه الرقعة من الأرض — مصر وما حولها — تستلقي شعوب.
مرت بها مواكب الغزاة والفاحين . ، ثم ولت عنها تاركة فيها بصمات.
أصابعها ، وآثار أقدامها . . أو قل : آثار سياطها . .
وكما أنك قادر إذا اهتديت إلى مفتاح الدار أن تفض مغاليقها ،
وتجوس خلالها ، وتكتشف محتوياتها ؛ فكذلك الشعب — أى شعب —
تستطيع إذا اهتديت إلى مفتاح شخصيته أن تفض مغاليق حياته ، وتبلو
أخباره ، وتستبطن أسرارهِ وبعبارة واحدة ، تستطيع أن تكتشف
هذا الشعب . . .

أمن اليسير على كاتب بالغاً ما بلغ من الفطنة ، وما جمع من البيانات
أن يحقق وحده الغاية ، ويجد المفتاح . . ؟ ؟
أحسب ذلك ممكناً لك ولغيرك ، إذا كنت من الذين أوتوا موهبة
الاخلاص العقلي . . الذين يمضون مع الحقيقة إلى حيث تقودهم دون تردد . ،
ثم يعلنونها للناس في غير تهيب . . وبعدئذ يتحتم عليك أن تتجه شطر
الشعب الذى تزمع استكناه حقيقته وتبلوه كجماعة . ثم تحسن اختيار
خليق من نماذجهِ بحيث تمثل هذا النماذج إلى حدٍّ ممكن . جميع خصائص
الشعب ، ورواسب شخصيته ، وتحاول جاهداً أن تلمس الصخرة
التي فى القاع . وتسبر الأغوار الموعلة فى البعد ، وتقرأ التاريخ لتبصر
السمات الحقة لخصائل الجماعة وسلوكها . .
ولو أننا فعلنا ذلك بالنسبة لبلادنا وأمتنا . .

لو أننا حاولنا رؤية القاع ، واكتشاف المفتاح الذى يفض لنا مغاليق شخصيتنا كجماعة وكأمة ، لوجدناه يتلخص فى كلمتين : «السمع والطاعة» .. فإذا ما سئلت ، مصرىيا كبت ، أم عراقيا ، أم يمنيا ، أم حجازيا ، من أى بلاد الله أنت — ؟ ؛ فلا تجهد قريحتك فى التذكر . وأجب من فورك :

— « محسوبكم » من بلاد السمع والطاعة . . .
فالسمع والطاعة هما القدر الذى يتعبدنا ويصوغ كل تصرفاتنا ، ويحدد نوع حياتنا وسلوكنا .

ولا يزال سلطان الكلمة المنحدرة من أعلى متفوقا على كل سلطان .
وفى غمرة إذعانتنا لها ، وانهارنا بها تتخلى فى غيبوبة ممتعة عن زمام أنفسنا وعن كل ما امتلكه الإنسان عبر تطوره المديد من عزم ، ورشد ، واختيار . . .

وقبل أن أسترسل معكم فى هذا الحديث دعوني أتل عليكم نبأ مصور « برومتيوس » ..

فقد ذكروا أن مصورا إغريقيا شهيرا اتخذ أحد عبدانه نموذجا حيا ليصور « برومتيوس » الآله اليوناني الذى عذّبه « زيس » كبير الآلهة . . وأراد الفنان العبقرى أن يرسم العذاب ، وكأنه يلتقط بعدسة لاقطة مشهده الحقيقى . بل أراد أن يجعل لوحه الرسومة وكأنها المشهد الواقعى ، والحادثة ذاتها صورتها المنقولة ، ورسمه المتخيل . . فأثرل بعبداه عذابا وبلا ، ومدد جسده العريان فوق حديد مستعر ، تماما كما تصور الأسطورة فعل كبير الآلهة بغيره « برومتيوس » ..

واستطار نبأ ذلك العمل الوحشى بين صفوف الشعب فاهتاج ،
ونادى بالقصاص . ووات جموعه الزاحفة شطر متحف الفنان القاسى . .
وهناك تحت نوافذه المرتجفة من هول صراخ الحائقين . زأر الجمهور
كالأعصار : الموت للجلاد . .

وفى ثبات العارفين بمشاعر الجماهير تقدم المصور من نافذته وأطل
على الناس وبين يديه اللوحة التى رسمها تنتفض حياة ، وفتنة ، وتعبيرا . .
أتدرون ماذا حدث . . ؟ ؟
تحولت الجماهير الغاضبة الباسرة السابحة إلى مهرجان تهزه الحماسة
والأعجاب والنشوة . .

وهكذا أنسبت القصص الذى جاءت تدعوه له ، والحق الذى كانت
تهتف به ، وانطلقت من بين شفاهاها الغيبة صيحات الأعجاب تسبح بمحمد
الفنان العبقري الموهوب . . . ! ! !

أستمعكم تتساءلون : ما علاقة هذه الأسطورة بموضوعنا . . ؟
وأنا مثلكم أتساءل . .

فلنرجى* الأجابة قليلا ، ولنعد لموضوعنا . .

كنا نقول ، إن السمع الطاعة هما السميت المميز لشخصيتنا ، وهما القدر
المهيمن على مصائرنا ، والمحدد لنوع سلوكنا ، فالنزاة الدين مروا بنا ،
وثوى حكمهم المطلق طويلا بيننا ، لم يتركوا لإرادتنا حق التمرس
والتدريب بل ربطوها بمشيتهم ، وطوَّعوها لكلمتهم ، وساموها كل
ما كان فى جمبهم من خسف وهوان .

وكأى من دخیل محتلّ ، وحاكم مذلّ جعل من ظهور قومنا مرعى

لسياطه المسعورة وكان ، كلما تنادوا ليدافعوا بغيه يتقدم إليهم وبين يديه
لوحة تفتحهم وتنسبهم . .

لوحة تتمثل في هرم باذخ يشيده ويبنيه ، أو طريق لاحب يمهده
ويرسيه ، أو مصارف يشقها ، أو ظفر رخيص في حرب عدوانية يشنها .
وأحيانا ، كانت اللوحة جنة يمد بها المؤمنين . فيها أنهار من لبن
وعسل وخمر . أعدت لكل أشعث أغبر مستسلم مظلوم . . . ١١

أعرقتم العلاقة - إذن - بين أسطورة المصور وبين مأساتنا . . ؟
ذات يوم أعلن حاكم مجنون أنه صار للناس إلها . ، فذهب آلاف
من أبنائنا الطيبين إلى قصره يعلنون أنهم سمعوا ، وأطاعوا . . .

ولقد اختفى من على الأرض الحكام الذين يدعون الألوهية ولكن
لا يزال هناك حكام يدعون العصمة . ويشعرون بها في ذات أنفسهم شعورا
ينسبهم كل ما للآخرين من حقوق ومن ثم فهم يطالبون الناس بأذعان
مطلق لأهوائهم وما يفعلون . . .

ولقد ران على الوعي النائي لمجاهيرنا هذا الطراز من الحكام ،
وران عليه ماهو أثقل وطأة وأشد بطشاً . . العالم والتقاليد . . وهكذا
خلقت الأحداث العارمة الدخيلة على حياته . . خلقت عدداً في شخصيته
تفرز الأذعان والاستسلام . تفرز السمع والطاعة . . . ١١

وإننا لنظلم أنفسنا ، ونقص التاريخ من أطرافه . إذا زعمنا أننا وحيدون
في هذا المجال .

فالمجتمع الانساني كله سار عبر هذه الطريق . وكان السمع والطاعة
شرعته ومنهاجه . . ولعل اختراع الانسان للديمقراطية لم يكن إلا ثمرة

حاجته الملحة للتخلص من هذه المهانة وذاك العجز ، وفي سبيل استنقاذ وجوده وتأمين مستقبله ابتدع النظام الذى يرد للجماعة اعتبارها ويرفع عنها آصار السمع والطاعة ، ويبعث فى ضمير المجتمع إحساسه بالكرامة ذلك الأحساس الذى تنبثق منه كل فضائل الانسان ومزاياه .

كل مجتمع إنسانى مر إذن بهذا الدور . دور السخرة المضروبة عليه من أناس أذكاء كانوا ينزلون أوامرهم ويثبون زواجرهم فى كوكبة من النذر والنهاويل ؛ فيتلقاها العبيد سجدا وهم صاغرون . ١٩٠

وبمقدار الآثار الباقية فى معاصم الأمم والجماعات من قيود ذلك الوضع الدابر يتحدد نصيب كل من الحضارة والارتقاء .

فعلى ظهر الأرض اليوم أمم انمحي من على معاصمها كل أثر للقيود الرجيم .

ألا فاعلم عندما تسمع كلمات التقدم ، والحياة ، والارتقاء أنها نعوت تلك الأمم وصفاتها .

وئمة أمم أخرى لا تزال تستيقظ من نومها كل يوم على صلصلة القيود تملأ أرجلها وأيديها . . تلك هى بلاد السمع والطاعة . وبالتالي فهى بلاد النمو البطيء ، والسلوك الردىء ، والرذيلة المترعرة ، مهما يرتفع فى سمائها من مكآدن ، ومهما تفرع فى أرجائها أجراس الكنائس ، ومهما يتبختر على أرضها من أناس يلوحون بيد الفناء ويقولون : يا عباد الله . . اتقوا الله . . ١١٠

ولقد يبدو لنا أن نسأل : لماذا يحول السمع والطاعة بين الناس والخلق القويم . . ؟

ولكن قبل هذا ، ماذا نعني بالسمع والطاعة ، وما الظروف التي
أُثِرمتنا هذا الأذعان . ؟

إننا نعني بالسمع والطاعة هنا ، غلبة غريزة القطيع على صوت
الأنفاس والعقل . .

نعني تلك الحالة الانسلاخية ، التي ينسلخ المجتمع فيها عن إرادته
ومشيئته . بل عن ذاته . .

ونعني بالتالي الانصياع المطلق لأمر لم يساهم في إبرامها ، وخطط لم
يشترك في وضعها . .

أما الظروف التي أركستنا في غيابهما فكثيرة ، ومن المحتوم أن
نكون على وعى بها ونحن نتدارس مشكلة السلوك والخلق . بيد أننا
نستطيع بصورة مبدئية أن نلخصها في كلمة واحدة « الطغيان » .
طغيان الحكومة . .

وطغيان التقاليد . .
وطغيان المجتمع على نفسه كأنعكاس محتوم لطغيان الحكيم ،
وطغيان العادة . .

ومن وراء هذه جميعا كانت التعاليم المتلفة بأزياء الدين تزكي
الطغيان وتعبده له القلوب والعقول . . ١

فيوم كان هذا المجتمع مسيحيا ، كانت تفرع في فجاجه هذه التعاليم :
« أيها العبيد ، فلتخضعوا لأسيادكم والخوف يملأ نفوسكم . .
ولا يكون هذا الخضوع للخيرين منهم نجس . ، بل وللشريرين
أيضا . » . . ١ ١

« أيها العبيد ، أطيعوا ساداتكم في خوف ورعدة » . . ١
 « على جميع من يخضعون لنير الرق أن يعتبروا أسيادهم جديرين
 بكل تبجيل . . » ١١
 وعندما نزل الإسلام بوادينا ، عاث في الأرض أناس يتحدثوا باسمه
 وقالوا للناس إن رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول :
 « استمع لأمرى وأطعه ، وإن جلد ظهرك وأخذ مالك » . . ١
 « كن عبد الله المغلوب ، ولا تكن عبد الله الغالب » . . ١١
 « الزموا طاعة أمرائكم وإن ظلموا . . فأول الله مبتليكم بهم » . . ١١
 ولما أنعم مجتمعنا من هذا العلف الصالح حق بشم . .
 وإذا صار الأذعان العميق جزءا من كيانه شبرع يفلسف حياته على
 هذا النمط النعس . .
 ولعلك الآن ، وأنت تطالع هذا الكتاب ، تسمع صوت الرجل
 العابر تحت نافذتك يقول لزميله :
 — وأنا مالى . . اللى يحوز أسمى . أقول له يا عمى . . ١١
 إن هذا النمل ونظائره الكثيرة تمثل الحقيقة الحية في وجودنا الميت . .
 تصور الحياة المؤتمكة التى رزأنا بها الأذعان النمل والطاعة العمياء .
 أترانا بعد فى حاجة لأدراك الخطر الذى يهدد أخلاق الناس عندما
 يسودهم الأذعان الغيبي ، والسمع الداهل . . ؟
 إن بلاد السمع والطاعة تعنى تلك الحظائر التى يعيش أهلها تحت
 مستوى حقوق الإنسان .
 وحقوق الإنسان لم تعد عبارة إنشائية ، ولا اصطلاحا رومانيكيا . .

بل حقيقة تدل على ذات الانسان ، وليس على مجرد حقوقه . بمعنى أن
الانسان يفقد ذاته إذا فقدها . . . وعندما يفقد الانسان حريته ، يفقد
سيادته على نفسه ، وحين يفقد هذه السيادة يحرم الوسيلة المجدية للاكمال
الخلقى ، ويمسى كل إبحاء له بالفضيلة والتسامح مجرد رطانة أعجمية لا يناله
منها سوى التلظ بها ، كما يفعل أى حيوان مجترّ بملء فيه من
علف للذئب . . . !

ولقد يكون للناس عجباً أن تربط الفضيلة بالحرية على هذا النحو
الذى يبصرون .

ألا فليعلموا أن السلوك الفاضل والسوى للإنسان وللجماعة لم يرتبط
ولن يرتبط بشيء أوثق من رباطه بالحرية .

ولئن كان الرائد السياسى يتخذ شعاره وشعار قومه « الحرية . .
أو الموت » . ؛

فإن الرائد الأخلاقى لا يكون إلا صادقاً حين يجعل شعاره « الحرية ،
أو العار . . »

من أجل هذا نبدأ حديثنا بنذير نزجيه لبلاد السمع والطاعة . هنا
وفيما حولنا من أمم وجماعات . لنعلم ، ويعلموا أن الفضيلة والطغيان
لا يجتمعان — طغيان الحكم ، وطغيان التقاليد ، وطغيان التعاليم . . .
وكل الجهود التى تبذل لأخذ الناس إلى مكارم الأخلاق فى ظل
التسلط الذى يسلبهم اختيارهم ، والطغيان الذى يعطل إرادتهم ، فليست
أكثر فوزاً ، ولا أدنى عبثاً من جهود الذى يحترق فى البحر ، ويزرع
فى المحيط . . . !

أجل ، وإن أول حقيقة راسخة تقدمها لنا تجارب الانسان عبر
القرون والأجيال هي ذى . .

الطغيان مزرعة الرؤيلة :

يلعب الطغيان دوراً بشعاً في إعدام الحاسة الخلقية لدى
الفرد والجماعة . .

ولقد ألفت الناس أن يحذروا الطغيان كمقوض للقيم الوطنية ،
يبدأنهم حين يبلغون من الوعي درجة كافية ، فأنتهم يحذرونه كمقوض
خلقى كذلك .

وللطغيان كما ذكرنا مصادر شتى ، فليس هو — فيما نعلمه — طغيان
الحاكم ففسب ، بل طغيان المجتمع ، وطغيان القانون ، وطغيان التقاليد .
وإن كانت طغيان الحكم واستبداده يمثل العنوان الضخم لكل
هذه الأثافي .

ماذا يفعل الحاكم الطاغية في أخلاق الدين يرزءون بحكمه . . ؟
وأى أثر عارم له في تشويه الفضيلة الإنسانية ، ووقف النمو الخلقى للناس . . ؟
إنه لأمر نافع أن نقرأ القصة التالية : —

ذات يوم مر حكيمن الصين « كنفوشيوس » ومعه بعض تلامذته
بامرأة هلوع . تنتحب فوق قبر أو دعت ثراه عزيزاً عليها . .

واقترب منها الشيخ الحكيم مواسيا ، وسألها : ما شأنك . . ؟

فأجابته : الوحش يا سيدى . . سلبنى زوجى وأبى . . ! !

مذ يومين خطف أبى والتهمة . ، واليوم أدركت زوجى وهو بين
 أنيابه هالكا مصروعا . . .
 ولقتها نظرة فاحصة من « كنفوشيوس » الذى عاد يسألها : —
 — وماذا يلجئك للحياة فى هذا الخلاء الوحش . ولماذا لا ترحلين
 عن ذلك الوحش الضارى . . ؟
 فأجابته قائلة :

— لأنه يا سيدى لا توجد هنا حكومة مستبدة . . . ! ! ! قتهل
 وجه كنفوشيوس . ، حق لكأن الشمس تشرق من خلاله . . . وابتسم
 ابتسامة تعبر عن فرحه بهذه الحكمة الجليلة . والتفت إلى تلامذته وقال :
 — أسمعتم يا أبناءى . ؟ إن الحكومة المستبدة أخطر على روح
 الإنسان من الوحش المفترس . . . ! !
 أجل ؛ يا كنفوشيوس . إن الأمر كذلك . وإن الطغيان ليسلب
 من الروح روحها ، وطهرها ، وبسالتها .

إنه يشوه الضمير ، ويعطل الإرادة ، ويبطل القدوة . .
 وإذا الناس فقدوا هذه الدواعى والوسائل ؛ فقد ازّاور عنهم الهدى
 وصار احتمال مقام الفضيلة فى نفوسهم ، كاحتمال مقام الشهد فى لعب
 الثعابين . . . !

والاجتمع الذى يسير خافض الجناح مسلوب المشيئة ميمما وجهه شطر
 دواعى فئائه واضمحلاله . لا يزيده الحديث عن الفضيلة إلا إفلاسا منها .
 ونحن كأفراد تتأثر بروح الجماعة التى نعيش فيها ، ونحيا داخل
 نطاقها . وكلما كانت الجماعة صاعدة متفوقة ، يكون أفرادها كذلك .

وإن نزعاتنا كأفراد لتذوب في سيل العرم المادى من نزعات المجتمع وغرائزه . وهذا يقتضى أن نوفر للجماعة في شخصيتها العامة وسائل الترقى الخلقى ، إذا أردنا لأفرادها مثل هذا الارتقاء . لأنها أى الجماعة المنبع الذى يصب فى الأشخاص والأفراد .

وللجماعة أخلاق وفضائل جماعية . إذا تكونت ورسخت تصبح بمثابة الرصيد الذى يأخذ منه الأفراد وينفقون . وهو رصيد لا يفنى فمثلا — عندما تهيب الظروف للمجتمع ما أن تهيمن على أعماله فضيلة الأتقان ، اتقان العمل ، أى عمل . .

فإن عدوى هذه الفضيلة تنتشر حتما من روح المجتمع إلى أفراده جميعا . حتى لشكاد حياة غير المتقن فى هذه الجماعة تكون فشلا ماحقا ، إن لم تكن أمراً مستحيلا . .

ومن العسير على إنسان أن يحرز إرادة التفوق والاكتمال الخلقى فى مجتمع لا يحترم هذه الإرادة فضلا من السعى لأحرازها . كما أنه من العسير عليك أن تكون قنوعا فى جماعة جشعة مسعورة . .

فلكى تزود الأفراد بأمكانيات الفضيلة ، علينا أن نصل الوشائج المقطوعة بين روح الجماعة ومقومات الفضيلة . ولقد قلنا : إن على رأس هذه المقومات ثلاثا ، الضمير . والأرادة . والقذوة .

ففى أى مناخ يتربع هذا الثلاث الرافع : . ؟

ما البيئة الصالحة لأنماء الضمير ، وإرباء الأرادة ، وتألق القذوة . ؟ الحق أن المرأة التى أثارت إعجاب « كنفشيوس » لتثير إعجابنا أيضا

ولقد عبرت في صدق وفطنة عن حاجتنا المحتومة لحرية لا يخنقها طغيان ،
وحياة لا تضدها السقوف عن الارتفاع . إذا أردنا أن نخلق مع مواهب
الله المعطاة لنا إلى سماء القدرة البشرية ، والسكالم الميسور . وإذا أردنا
أن نحوز الوسائل المفضية لهذه الغاية الفاضلة ، ألا وهي — الضمير الناجز
والأرادة المتفوقة ، والقودة الهادية .

وسنبصر الآن ، كيف يصعب استعلاء الضمير ، والأرادة ، والقودة في
أمة يحكمها طاغية . ولكن بعد أن نبصر أولا الارتباط الوثيق ، والتأرز
القائم بين هذه الثلاثة والسلوك السوي القويم .

عندما يريد الناس أن ينعثوا واحداً منهم ردىء السلوك . يقولون
بأسلوب عفوى بدهى : لا ضمير له . . أو يقولون : ضعيف الأرادة . .
أو يقولون : فلان ؟ . إنه تافه . .

وهم بهذا المنطق البدهى يلتقون مع الكشف العلمى لقاء سعيداً .
فالعلم ببحوثه وتجاربه . بل والدين بفراسته وإلهامه يدعمان مركز الضمير
والأرادة والقودة في مجال الأخلاق كطاقة حائلة جاذبة . . فلنتعرف إلى
هذه الطاقة إذن مبتدئين بالضمير ، ما هو . . !

إنه بعارة بعيدة عن التعقيد العلمى — الاحتجاج الذى يصلصل
داخل ذاتنا عندما يستهويننا الشر وتعودنا الرذيلة . ولذا فحاجة الشرير
إلى الضمير ترجع حاجة الخير . إذ الثانى قد راض نفسه فاستقامت
على الطريق ولم يعد في تصرفاته ما يستحق الاحتجاج والنذير ، وهما
وظيفة الضمير ومظهر نشاطه . .

وعلماء الأخلاق يفسرون الضمير هكذا . فواحد منهم وهو العالم

الجليل « هادفيلد » يقول : — « الضمير لسان الخير المقموع عندما يكون الشر هو المسيطر وهو السائد . . ونحن لا يمكن أن نتعرض لوخز الضمير إلا حين يسود الشر ويغلب . »

إذن فحاجة الفرد الذي يغلب شره خيره إلى الضمير قوية وعارمة ، وأيضا تشتد حاجة المجتمع الشرير إلى ضمير جماعي يعظه ويزجره ويذكره . والضمير ليس جزءاً من تركيبنا العضوى . ليس قطعة لحم ومضغة دم . بل هو وظيفة ، كالعواية سواء بسواء . وهو بهذه المثابة يحيا بالمران المستمر فاذا أدخله إلى السكون تحلل ومات .

أعلمون أن « نيرون » عندما ولى الملك بكى بكاء مرا إذا جاءوه بأمر إعدام أحد الذين يستحقون الإعدام كي يمهره بتوقيعه . . أجل ، بكى وصاح : ليتنى ما تعلمت الكتابة . . .

ولكن هذا الضمير الذى تترقرق فيه الحياة والورع لم يلبث حين شلّ عن العمل أن تيبس وتحجر ، وتحول إلى قطعة من رخام . ولم يعد له وجود عندما أحرق « نيرون » روما وسفك دم أمه وأرهق الأرض بظلمه وفساده . .

قلنا إن الضمير ليس عضواً فى أجسامنا ، ولكنه وظيفة . وقلنا إنه صوت الخير للقموع حين يسيطر الشر ويسود . . أى أنه قد واحتجاج ونذير .

وقلنا إنه من العسير على الأفراد أن يظفروا بفضائل ليس لها فى روح الجماعة وجود . فإذا كان الضمير موضع حفاوة المجتمع وإجلاله انتشر هذا الشعور الكريم بين أفرادهِ ، فيصغون لصوت الضمير العام

الذى يعمل في كيان الجماعة ويبنها رؤاه . ، وبالتالي تستيقظ ضمائر الأفراد وتهب للعمل الشريف في سبيل الحق والخير والجمال .

فكيف يتأني للضمير إذن وهو احتجاج ونقد أن ينمو ويعمل في مجتمع يحظر فيه الاحتجاج ويحرم النقد . . ١١ ؟

أجل ، إن الطغيان مزرعة الرذيلة . ، فهو يحجره على النقد ووصايته على الحرية يلاشى قوى الاحتجاج ويخرسها وهكذا يعطل وظيفة الضمير وما الضمير سوى جرس الأتذار الذى لا يكف عن القرع موقظا اتجاهاتنا الحيرة النبيلة .

ونعادر الضمير إلى الإرادة . فالضمير الذى يهيب بنا لتتقدم إذا كان الذى أمامنا خيرا ، ونهجم إذا يكون شرا ، تذهب لمحاولاته سدى إذا لم يجد إرادة تنتظره فتلقفه وتجعل من توجيهه ونذارته خطة ماضية ، وسلوكا نافذا .

والإرادة كالضمير ، ليست جزءا من جسدنا الحى ينمو بالغذاء ويعيش بالدم . . بل هى وظيفة تنمو بالمران وتعيش بالعمل .

يقول « هادفيلد » — « الإرادة وظيفة الدات ، والدات لا تحقق تماسكها ووجودها إلا ما دامت تعمل ، وهى تماسك ويلتحم بعضها ببعض حين يكون لها نشاط عام ، وغرض مشترك . مثل الكائنات الحية تماما . فإذا توقف إنسان عن استخدام إرادته ، تأخذ ذاته في الانحلال فورا ، وتساقط كسفا على الفور » . .

إذن فالإرادة وظيفة الدات . وهى تنمو وتبلغ رشدتها بالمران والتدريب . ولو تصورنا إنسانا يعيش في هزيمة دأمة أمام رغباته

الشريرة ، واندفاعاته الرديئة . دون أن يصمد في وجهها مرة وثلاثاً وعشر مرات حتى تتكون له إرادة شائعة . . . يكون في استطاعتنا بعدئذ أن نتصور المجتمع الانهزامي الذي يمثل أمام قوي الطغيان نفس الدور . والذي يمزق الخنوع والأذعان إرادته شرمزق .

إن مجتمعا كهذا تنص ذاكرته مع الأيام بذكريات إخفاقه وفشله فتتلاشى ذاته ، وتحلل إرادته . وبسرعة تنتقل العدوى منه إلى أفرادهم فيتحولون إلى حطام تعس . . حطام يطفو فوق العباب . . .

ولا يقف الخطر عند ثلم الإرادة وتعطيلها . فالطبيعة الانسانية لا تعرف البطالة ، وهى حين تجد الطريق موصدا أمام وظيفة خيرة من وظائفها ، لا تلتقي عصاها وتستريح . بل تتحول من فورها إلى النقيض فتقوض ، وتعيث ، وتنتقم . .

إن الشعوب المريدة هى التى تأخذ الفضيلة بكتا يديها . وهى تلك التى تحيا عزيزة لا ذليلة ، آمرة لا مأمورة ، مطاعة بقدر ما هى مطيعة . وإنا لنقارن خطأ كبيراً حين نغال النضال لأحرار الإرادة عملاً فردياً محضاً . بمعنى أن الفرد الذى يلتزم نهجاً معيناً يسوق نفسه إليه ، ويلزمها به لا يلبث أن تتكون له إرادة قوية تعصمه وتصوره . .

أجل . إن هذا صحيح إذا كنا نريد أفراداً يبرزون في غرض من الأغراض . . كهذه العشرات من الناس الذين يتفوقون على الملايين في الرياضة والفن بيد أن الأمر يختلف جداً بالنسبة للأخلاق .

فالأمة لا يضرها ، ولا يعطل نموها ويحبس عنها مستقبلها أن يبرز من بين ملايينها العديدة عشرة فقط متفوقون في المصارعة أو الملاكمة

أو السباحة . . ولكن يضيدها ويهطل نموها أن يتفوق عشرة أو عشرون أو مائة تفوقاً أخلاقياً يرفعهم إلى السماء بما بذلوه من رياضات قاسية بيننا الجماهير كلها هناك تندحرج على أرض الشر وتمضخ بوحل الرذيلة . ! !

فإذا كنا نريد سلوكاً فاضلاً للكافة ، فعلينا إدراك ظاهرة هامة . هي أن الناس يتصرفون دائماً أو غالباً وفق القواعد والقيم التي تسود بيئتهم ومجتمعهم . ويكاد يكون من المستحيل أن نجد ناساً أعزّة كراماً في مجتمع يرزح تحت وطأة المهانة والذل . . وأيضاً ، يكاد يكون مستحيلاً وجود جمهور يتمتع أفرادهم بأرادة حائرة حازمة إذا كان هذا الجمهور يعيش داخل إطار بشع من الحكم المطلق ، أو القوانين المطلقة ، أو التقاليد المطلقة . . كما أن دخل الفرد وثيق الارتباط بالدخل القومي يرتفع بارتفاعه ويهبط بهبوطه ، كذلك دخل الفرد من الأخلاق وحظه من الفضيلة مرتبط بدخل الجماعة وحظها . . وكلما خلت روح الجماعة من مناجم الخير وخاماته ، كلما كان حظ الأفراد من الأفلاس الخافي عظيماً .

ونحن نعلم أن الطغيان تحدّد وقع لأرادة الجماعة . وهو حين يكون طغياناً ظاهراً يسبب لهذه الأرادة متاعب قاسية قد تفقد بها إلى الجروح الخطير . أو تنزل بها إلى المهوّة الفاغرة . . وكلاهما تعطيل لأهم مقومات الفضيلة في الأمة . ألا وهي الأرادة التي تحقّق جمال الذات وخيرها وتفوقها . .

وتعادر الأرادة إلى القدوة . فنجد الارتباط بين الاثنين وطيداً ، والعروة بينهما وثيقة . ذلك أن الأرادة لا تهتب للعمل وحدها . بل لا بد

لها من باعث ومنبه . . لابد لها من مثل أعلى يناديها ، وقدوة تتعلق بها وتحاكبها .

أجل ، فكما تنشط قوة الأبصار بواسطة منبه خاص هي موجات الأثير الموصلة للضوء ، وكما تنشط غريزة الهرب بواسطة منبه خاص هو وقوع خطر . . كذلك الإرادة لا تنشط إلا بواسطة منبه ومثير هو المثل والقدوة .

فالقُدوة تجمع شمل حياتنا المبعثرة الحائرة ، وتنظمها حول القيمة العليا التي تمثلها . وتمنحنا فوق هذا تركيزاً قويا لبواعثنا وأهدافنا ولقد كان « امرسون » صادقا وحصيفا حين جعل وصيته الرابعة لمن يريد أن يكون رجلا حقا هذه العبارة المضيئة :

— « تذكر غيرك . . فالعواطف معدية » . . .

أجل ، إننا نذوق طعم العظمة عندما نتذكر رجلا عظيما ، ونعيش ولو لحظات قصار داخل حياته البهيجة ، وسجاياء الدافئة المشرقة . وهذه النفوس الشاحنة التي حققت أقصى درجات الكمال الميسور لبنى الانسان . .

هذه التي سجلت ارتفاعا قياسيا في الشجاعة والتسامح والبذل والقوة والتواضع والدكاء والأخلاص . .

هؤلاء الأفذاذ الذين نراهم ، أو قل نرى أحدهم ؛ فنحب الإنسانية كلها ونجلها لأنها أنجبتهم . .

هؤلاء الذي تتمثل فيهم القدوة الصالحة ، هل يبيح الطغيان لهم أن يظهروا ويشرقوا ويضيئوا ؟

نحن نعلم أن بعض هؤلاء قد يحى ظهوره في قومه وفي الناس بمثابة رد فعل للطغيان والقهر . ولكن علينا أن نذكر أن الطغيان إلى جانب هذا لا يمكن القدوة من بلوغ أوجها العظم وانتشارها الرحيب .

إن إنكار « بطرس » للمسيح ، قد ضاعل من جلال قدوته ولوقليلا . . ورجوع « جاليليو » عن القول بدوران الأرض وكريتها تحت وطأة التعذيب الملاحق قد ضاعل من تأثرنا بعظمته . . والمال الذي ألهم به الطغيان رجلا مثل « فولتير » قد أخذ منه كقدوة ما كان وكنا معه في حاجة إلى بقاءه وتفوقه . وإن ما تركه العظماء الإنسانيون من أثر وما طبعوا به البشرية من نشاطهم رغم الظروف التي كانت تعمل دائمة لعرقلة عظمتهم ، وتقليص قدوتهم — ليصور لنا المغامر الفذة المضاعفة التي كنا سنألفها منهم لو تركهم الطغيان ينمون ، وينتشرون ، ولو لم يكن يتعقب عبقرياتهم الخلافة بالأذى والتشويه . .

حيث يوجد الطغيان إذن يكون حظ الناس من القدوة للهممة الحافزة ضئيلا . فالطاغية بوسائله الكثيرة يحاول مسخ العظمة الناشئة التي ستكون قدوة سامقة .

فهو يرشو بالمال ، ويضرب بالسوط ، فإذا خاب سعيه وفل سلاحه . أطلق الأكاذيب في أعقاب القدوة ليشوه بهاءها ، ويطمس معالم عظمتها . وحين تراجع سيل الأراجيف التي انطلقت وراء الأنبياء ، والفلاسفة والصالحين ، ورواد الفكر . نجد ظاهرة تثير الضحك وتدعو للفتنة . . ولا يقف بأس الطاغية ومكره السيء عند هذا الحد .

بل إنه يفعل ما يفعله الاستعمار ، فيصطنع قدوة زائفة يقرع لها

الطبول والأجراس حتى يلتقي في روع الناس أنها النور الذى هبط إليهم من ملكوت السماء . وعليهم أن يسيروا إلى حيث تقودهم وتهديهم .

والويل للجماعات التى ترتفع فى ممانها مثل عليا زائفة ، وزائفة ، وباطلة . إنها الفجر الكاذب الذى يضل العابدين عن فجرهم الصادق المرقوب . فالطاغية لا ينبغي له أن يصطنع القدوة الفاضلة ، وحتى لو شاء ذلك لا يستطيع سبيلا . فيولى وجهه شطر الغوغاء فى أخلاقهم ، والغوغاء فى تفكيرهم .

أولئك الذين يسمون النفاق أدبا ، والحيانة دهاء ، والغش إنقاذاً ، والسرقة تضحية . . (١٩)

يعمد الطاغية إلى هؤلاء ؛ فيصطنع منهم حاشيته ، ويصطنع القدوة التى يفتن بها الجماهير التى يبرها طلاء الصنم ويشجها خواره ، فنضع الكثير من وقتها ، ومن أمنها وإيمانها ، مطوفة حول هذا الغبار الباطل . . وهناك فى أركانها القصة يسير روادها الحقيقون وحدهم .

وبعد حين تفيق الجماعة من الغيبوبة التى أوقعها فيها مكر الطاغية ، تفيق كليله خائرة العقل والقلب والعزم ، وتمضى تبحث عن الشموس فلا تجدها . . لقد ازاورت عنها . وهكذا نحرم الانتفاع بعظمتنا الرواد وهم أحياء . فإذا ذهبوا ومالت شمسهم للغيب . ذهبنا نقتات من ذكراهم

كان « نوم بين » سكيراً عرييداً سافلاً أفقر من أن يطهر ، فلما مات صار « شيخ المحررين » و « أعظم مجاهد فى سبيل العقل » و « آية الله الكبرى » إلى آخر النعوت الفاضلة والصفات الحميدة . .

وما قيل عن « توم بين » بعد موته هو الحق وأما الذى نسج حوله وألقى فوق رأسه حيا فقد كان ثمن صموده ضد الطغيان ، وتأليب الناس عليه ... طغيان الحكم الذى كان بعض زعماء الولايات المتحدة يريد فرضه فى ثياب تسكرية ، والذى طعنه طعنة قاتلة فى كتابه « حقوق الإنسان » . وطغيان التقاليد الذى شن « بين » عليه هجوما مدمما فى كتابه « عصر العقل » .

فن أجل ذلك ألحف المعوقون لحركة التاريخ فى النيل منه حتى لا يؤمن الناس بآرائه ، ويمضون ضدّهم وضد مصالحهم تحت لوائه . .
ومحمد عبده وأستاذه الأفغانى ، شنت عليهما اشاعات دنيئة ، أيسرها أنهما كانا فاجرين يجمعان الأموال لمجلة العروة الوثقى ، ثم ينفقنها على اللذات الرخيصة فى باريس . .
ومحمد عبده بالذات — كما سمعت أذنأى — فى قلب الجامع الأزهر ، مات ولسانه مدلى على صدره . .

قلت يومئذ للرجل الذى يروى هذا ، ولماذا تدلى لسانه هكذا . . ؟
فأجاب : هذه علامة يفضح الله بها السكارى عند الموت . . ولقد صدقته يومها ، وملأت الجوّ تعودا بالله من الشيطان الرجيم
لاشئ يرسى قواعد الفضيلة فى أمة مثل القدوة المتمثلة فى عظمائها الصامدين . . وأرجو القارئ أن يدرك مفهوم العظمة فى حديثنا . .
إنها شئ مختلف تمام الاختلاف عن المفهوم الترابى الذى يقصده الناس فى حديثهم العادى . .
فالعظيم الذى نعينه بكلمة عظيم ، ليس هو صاحب النصب الرفيع ،

أو الجاه العريض ، أو المال الوفير . بل في بلاد كبلادنا لا يكاد يبلغ هذه الثلاثة من الناس إلا الذين يتخلون عن كافة عناصر العظمة الحقيقية ومقوماتها .

نحن نغنى العظمة الصامدة الجليلة التي تتحدى مواضعات عرفها للنحل ، وتتفوق على وصولية البيئة ، ونفعميتها ، وجهلها ، وعجزها .. إن عظميا واحداً من هذا الطراز يفعل في أمة ما تفعله عشر جامعات . .

عندما فرغ « ماوتسى تونج » قبل أن يعرف طريقه ، ويختار هدفه عندما فرغ من قراءة كتاب عن « بطرس الأكبر ، ووشنطن ، ولنكولن وروسو ، وتوم بين . » ، قال وعينه تدور على مشاكل بلاده : « إن الصين في حاجة لمثل هؤلاء العظماء . ولقد عرفت الطريق الآن » . . . أى طريق عرفه ماوتسى من هؤلاء ؟ . .

إنه طريق الكدح النبيل من أجل التقدم الانساني الظافر . والقبس الذي مس « تونج » من سيرة أولئك الأفذاذ ، هو الذي رفعه من فرد عادى إلى رجل يعكف على تحرير نفسه . ثم على تحرير أمته . ومثل آخر لماوتسى نفسه يظهر أثر القدوة العارم في خلق النماذج الفاضلة والجماعات المؤمنة . فذات يوم وقع أحد جنود جيشه المحارب أسيراً في يد الجيش الوطنى الذى كانت تقوده حكومة « كاي شيك » كان حطاما داميا ، يرتجف من البرد ويلعق جراحه من الجوع . وشرعوا يستجوبونه ؛ فسألوه :

— هل تعرف ماوتسى تونج ؟ . .

فبدلاً من أن يتجاهل وينكر تحت وطأة العذاب الذى يعانيه تهلّل وجهه وأشرقت أساريره . حتى لكانه وقد سمع كلمة « تونج » قد سمع نداء النجدة وأجابهم قائلاً :

— « نعم أعرفه . . هو رجل عظيم البسطة ، عظيم العذوبة إذا تكلم ففهمه بسطاء الناس ، وليس عليه إلا أن يدعو فندبر وراءه إلى أى مكان نريد . . . »

« إنه دائم الاهتمام بالآخرين ، بينما لا يهتم بنفسه أبداً . . »
« إنه ينام معنا على الأرض دائماً أثناء الحملات ، ويأكل من طعامنا نحن الجنود ، ويعطينا ما يهدى إليه من ثياب وأحذية . وفى آخر معركة خضناها معه رأيتُه بنفسى منبطحاً على الأرض يطلق النار من بندقيته . . »

« نعم أعرف ماوتسى تونج . إنه الرجل الذى أعطانى بعظمة نفسه ، وجليل كفاحه ، وبأخلاصه وتواضعه — غرضاً أعيش من أجله ، وقدوة أسير فى ضيائها . بعد أن كنت تائهاً ، وتافهاً . . . »
جندى هذا . . أم فيلسوف . . ؟

لكن القدوة العظيمة حين تمس الناس تفعل فيهم المعجزات وعندما نصافح قدوة أمينة تتحول فى اللحظة والنو إلى ما لم نكنه قبل أن نصافحها ونراها .

ألا إن الطاغية — أى طاغية — ليعبى كل مواهبه الشريرة الجارحة فى معركة دائبة وحشية ضد كل عظيم صادق العظمة . وليس يبالى فى سبيل الاستئثار بالأمر وبالسطة أن يحرم أمته أجل وسائل

رقيها المادى والأدبى . وهى القدوة المتألفة الهادية .
ولماذا يهتم الطاغية بالقدوة وبالفضيلة . وهو — مهما يبدأ طاهراً
وقاضلاً — لا يلبث أن يتحول إلى قطب عظيم من أقطاب الضلال
والأفك . . ١٩

لنقرأ الآن للراهب الجليل « سافونارولا » يحدثنا عن أخلاق
الطاغية ، ويصف نكبته الماحقة على الفضيلة وعلى الأخلاق :

— « إن كلمة طاغية معناها : رجل من أكثر الناس شراً . يعمل
على ابتزاز كل شيء لنفسه ، ولا يعطى شيئاً للآخرين . وهو عدو الله
وعدو الناس . .

» والطاغية متكبر جشع محب لشهواته . .

» ولما كانت هذه أسس الرذائل كلها ؛ فإن فيه كل الرذائل التى
يمكن أن توجد عند إنسان . وعلى ذلك النحو تصبح كل حواسه ملتوية . .
تفسد عيناه بالتطلع إلى الفسوق . وتفسد أذناه بسماع التملق . .

» وهو يرشو القضاة ، ويسرق الأرامل والأيتام ، ويظلم الشعب ،
ويحارب أولئك الذين يزينون له الاحتيال على الجماعة . .

» ويقتله الشك فيصطنع الجواسيس فى كل مكان ويرغب فى أن
يبدو الجميع أمامه وعلى وجوههم الحجل والعبودية . .

» ولذا فحين يوجد طاغية لا يستطيع الناس أن يعملوا ،
أو يتكلموا بحرية . .

— لا يزال « سافونارولا » هو الذى يتكلم . .

« والطاغية يريد أن يحكم غيره بالقوة . يريد أن يرتفع فوق أقرانه .
وحق فوق من هم أفضل منه . . . »

« وإذا هو لا يستطيع أن يستمر في مثل تلك الحالة ، ولا يستطيع أن
يحصل على رغباته بغير أموال كثيرة ؛ فإن كل طاغية جشع ولص . . .
« ولما كان غرض الطاغية سيئا ؛ فإن كل ما يصدر عنه لابد أن
يكون سيئا . . . ولذا فهو لا يستطيع أن يفكر في غير السوء ، ولا يفعل
إلا سوءاً . . . وحتى إذا أخطأ ففعل خيراً ، لا يفعله لوجه الخير . . . بل
لينال الشهرة ويكتسب الأنصار ليظل محتفظاً بالحالة الشاذة التي
هو عليها . . . »

ثم يختم الراهب الجليل حديثه عن الطاغية محذراً فيقول :
— « احذى يا فلورنسا أن يظهر فيك طاغية . ؛ فإنه سبب كل
الآثام التي يرتكبها الشعب . . . » . . . ١١١
إذا كان الله يزرع بالسلطان مالا يزرع بالقرآن . . . ، وإذا كان الناس
على دين سادتهم وحكامهم . . . ، فكيف يكون الظلام ويلا إذا كان السلطان
الحاكم طاغية . . . ١٢

ماذا يمكن أن تلمس الأمة منه من فضيلة وخير . . ؟
لا تصدقوا أبداً أن الطاغية يستطيع أن يكون فاضلاً . وحق لو بدأ
كذلك . بل لو بدأ قديساً لن يلبث حتى يتحول إلى شيطان رجيم .
ولقد صدق « نهرو » حين قال : « السلطة المطلقة ، مفسدة مطلقة »
أجل ، إنها مفسدة لأنها تحتاج الطاغية فحسب ، بل ولروحه وأخلاقه . .
« وإذا كان يمكن أن يجتمع الماء واللهب في إناء واحد ،

ففى أن يمكن اجتماع الفضيلة والطعان فى فرد . . . ١١
فالأمر كما يقول الفيلسوف الفرنسى « حويو » فى كتابه
« التربية والوراثة » :

— « إن الأرادة باستعمالها القسوة تنتهى إلى اختلال عميق ؛
ففى إذ تعتاد على ألا تلاقى فى الخارج أى عائق ، كما يتفق للطاعة المستبدن ،
تصبح عاجزة عن مقاومة اندفاعاتها وعندئذ تتعاقب عليها ميول
متناقضة أشد التناقض ويصيبها عطب حقيقى ؛ فيرتد الطاغى طفلا ،
ويستسلم لنزوات طائشة متناقضة . فتكون قدرته العظيمة فى الخارج عجزاً
حقيقياً فى الداخل » .

ألم يحدث ذلك التناقض والعطب للدوتشى الذى مضى يلقى بزعماء
الثوار المسلمين من الطائرات المحلقة فى جو السماء ، ويدك المساجد دكا
على آلاف من الساجدين والراكمين . . وفى نفس الوقت منح نفسه لقب
« حامى حى الاسلام » . . ؟ ؟ ؟ ١١

إن أنفاس الساعين لتتقطع إعياء قبل أن يظفروا بطاغية واحد .
واحد فقط ، كان فاضلا وشريفا .

عرفنا إذن ، كيف يحرم المجتمع الخاضع لنير الطغيان من مقومات
الفضيلة . وهى ، الضمير ، والأرادة ، والقعدة . فهل هذا هو كل
الحسran الذى يلحق بسلوك الأمة ويشوه روحها من جراء الحكم
الطلق . . ؟

لا . فبفقدان هذا الثالث أو ضعفه وإنهاكه . تتحلل مناعة الجماعة
وترعى فى كيانها كافة الموبقات التى تنجم عن هذا اللون من الحكم .

والتي تتعامل معه طردا وعكساً . فوجود حيث توجد . وتوحد حيث
يوجد . فما هذه اللوبات ، وما خطرهما على أخلاق الجماعة ؟ . . .

الأشياء ، هي المادة السريّة للمجتمع المضطرب . .

عندما تشد وطأة الكبت على المجتمع يفعل مثلما يفعل المراهق
المكبوت تماما فكما يتجه الأخير في سبيل تعويض عجزه وتوكيد ذاته
وإعلان شغفه بها إلى العادة السرية ، حيث يتخذ منها شاشة سحرية
يعرض عليها من مشاهد الواقع التخيلية ، ما يشبع رغبته المريضة المكبلة
يفعل ذلك أيضا المجتمع المضطرب المكظوم ، فيتجه شطر عادة سرية
يسرب خلالها كبته ، ويهرب إليها من الواقع المرير الذي بعدت عنه
شقته ، وعز عليه مثاله . . وهذه العادة السرية للمجتمع المكبوت الذي
تسلط عليه طاعية هي : الأشاعة . .

واشاعة بما تتضمنه من كذب ، ولغو ، وبهتان ، تمثل عرضاً
لمرض خلق .

ألم تر إلى مريض يشكو آلاما في معدته ، أو في مفاصله بينما يقرر
الكشف الطبي الواعي سلامة المعدة ، ووثاقة المفاصل . ؟

إن العلة الحقيقية لصاحبنا ليست عضوية . بل نفسية ولقد تحول
الاضطراب الانتمالي إلى اضطراب جسماني فكانت آلام معدته ومفاصله .
كذلك تشيع في المجتمع أمراض خلقية . لا تكون في حقيقتها
أكثر من اضطراب انفعالي ، وقلق جائم ، يتسللان في كيان الجماعة ،
فيدمران سكينتها ، ويتران هداها . .

ويربو هذا الاضطراب وذاك القلق كلما أضنى الشعب إلى المنطق التسوينى الذى يبرر به الطغيان وجوده دائماً . وهو حاجة الأمة إليه لتربيتها ، وتأهيلها للحرية . . فيمثل هذا الأفك الباطل ينبعث في شعور الجماعة إحساس ناجح بالذنب وبالخطيئة ، وشعور طافح بالدونية والضعف . إن هذا القول يحرك الرواسب الدفينة في المجتمع المستعبد أو الذى طال عليه الأمد يجرجر سلاسله وأغلاله ، ويوقظ إحساساً ضاراً يلح عليه بأنه شئ تافه . . ويرد سعيه الحثيث في سبيل النمو الصاعد ، يرد هذا السعى المبارك تراباً في تراب . .

وانتزاع الثقة من وجدان الجماعة على هذا النحو ، وإرباء شكها في قدرتها وفي استعدادها ، يسلبها الأمن الانفعالى ؛ فتتيم وجهها شطر الأشاعة تنسج منها هيكلًا لأحقادها التى تصير مقدسة . وتسلى نفسها ، بالكذب على نفسها ، وبخداع ذاتها . وتعيش في أخطبوط معتم من هذه العادة السرية التى تنهش عافية عقلها وعافية عواطفها ، وهى لاتدرى . . والعجيب أن الطغيان أصلح البيئات والحقول التى يتعرع فيها ميكروب الأشاعة ، مهما يتظاهر الطاغية بمقته للأشاعة وتحديه لها . . إنه يكافح الأشاعة المضادة فحسب ، بينما هو يشد بأشاعته الخاصة أزر حكمه وسلطانه . .

انظروا . . لقد بلغ عدد الذين حوكموا وسجنوا في ألمانيا النازية بتهمة « الأشاعات المخربة للريخ » ثلاثمائة في أعقاب حريق الريخستاج . عدا الذين سبقوهم والذين لحقوا بهم . . ومع هذا فقد كان للنازى وزارة خاصة للأشاعات ، ووزير مختص بها هو « جوبلز » .

والعجيب أن هذه الأشاعات كادت تخضع أفئدة الناس في كل مكان
لهتلر . حتى بعد موته وهزيمته ، وبعد اكتشاف الدور البشع الذي مثله
وأداه . ولعل إحدى الأذاعات الشرقية العربية لا تأخذها العزة بالأثم إذا
ضربناها مثلا لهذا الافتتان الساذج الأبله بأشاعات جوبلز عن سيده
الراحل هتلر . ففي مساء الثلاثاء الموافق — ٨ سبتمبر ١٩٥٤ — قال
المذيع معلقا على برنامج خاص عن ألمانيا « إن هتلر هو ذلك الرجل
العظيم الذي تدخلت الدنيا في مشيئته فأفسدتها » . . . ١١١

والمجتمعات المريضة الواجفة تتسلى كما ذكرنا بالأشاعة ، وتلتمس
منها العزاء والأمل ، ومن ثم فهي لا ترحب بها فحسب ، بل وتضيف
إليها الكثير الطيب من خزان غيظها الموهوب ، حتى حين تكون الأشاعة
ضدها ، وضد صوالحها . ١٩٠

والأشاعة تفسد العقل وتلبس الحق بالباطل ، فيضل الناس بها
ضلالا بعيداً . . فمثلا في تلك الأيام — خلال الحرب العالمية الماضية — حيث
كنا شديدي الحاجة إلى دعم قضية الديمقراطية وشحن الإيمان بالنظام
النيابي السليم ، لنتربح بهذا الإيمان المعركة من القصر الذي كان يشاغبنا
ويؤذينا . . في تلك الأيام ، حيث كان واجبنا يتمثل في الاهتداء بمثل
أطى تتجسد فيه الديمقراطية وتتمثل ، ذهبنا نحن مخدرين بالأشاعات
النازية ، فاتخذنا عدو الديمقراطية وجلادها قدوة وإماما . . « ١١٩ »

وإني لأتصور نفسي يومئذ وأنا فتى غض العقل حدث السن ، بل
وأتصور الذين كانوا أنضج عقلا ، وأكبر سنا . كيف كانوا متيمين

بهتلر . . كئنا نجهده فى كل شىء . فى النسيم الذى نشمه ، فى الموسيقى التى
نسمعها ، فى الأحلام التى نراها . .

وفى صفوف الجماهير الصالحة الورعة : انطلقت كالريح الأشاغات التى
أطوعت بها علتنا واضطرابنا . .

والرؤى الصالحة التى رأى فيها خيار الأمة ومؤمنوها ، رأوا النبى
عليه السلام يعانق « هتلر » . . ورأوه أيضاً يمسح صدره بيمينه ويسميه
« محمد هتلر »

إن الأشاعة عندما تصير غذاء عاما وعلفاً دائماً لوجدان الجماعة تفسد
فيها ملكة الإدراك ، والنفاذ الصادق إلى بواطن الأمور وحقائقها ،
وهذا هدف أساسى للطاغية — أى طاغية يكون — فتحويل الطاقة
الذهنية للجماعة إلى لغو وهذر يكفل له البقاء والسلامة .

وهل نستطيع أن نزرع الفضيلة فى جماعة فسد إدراكها وضاع
يقينها . . ؟؟

إن مثل هذه الجماعة لم تعد تسمع وتبصر وتقدر إلا من خلال
أكاذيب الطغيان وإشاعاته . . والطاغية كما رأينا قبلاً ، لا يمكن أن
يكون فاضلاً ، والتالى لا يمكن أن يصدر عنه عمل فاضل . ومن باب
أولى أكاذيبه . لن تكون فاضلة أبداً

إن نبأ « سافونارولا » يأخذ بخطامنا إلى الحقيقة فى هذا الموضوع .
فذلك الراهب الجليل صنع من أجل الحرية والفضيلة ما يفتن الألباب . .
بث فى روح قومه ولاء دينيا للديمقراطية ، وللعدل ، وللفضيلة . وآمن

به الناس كأنه نبي ورسول ، ومع هذا ، فقد تحول إلى زنديق ، ومفسد للأخلاق ، ومثير للفتن والحراب . .

هل تحول حقيقة أم بهتان . . ؟

بل بهتان ؛ فقد كان هناك « بابا » من آل بورجيا بذ جميع فجار زمانه ، أطلق الأشاعات الكاذبة في أعقاب الرجل الفاضل تعاونه في هذا قوى الاستبداد والشر وضلل القطيع الذي يسعى الشعب (١) فاندفع بهتف بالموث للكافر . . لم يكن الكافر الذي يعنونه ذلك ، البابا الذي عاشر بنته معاشرة الزوجات . . ، بل كان « سافونارولا » الزاهد العابد الذي علمهم الفضيلة وأحيأها في نفوسهم . .

وتحت المشنقة التي أعدت له . نظر إلى بعض تلامذته وقال : « لم أكن أنظر أن تتحول المدينة كلها ضدى بهذه السرعة . . اجعلوا الايمان ، والصبر ، والصلاة أسلحتكم » .

وأصيبت « فلورنسا » بردة خلقية لم يكن منها بد . . ورأى الدين هدام « سافونارولا » من قبل . الذين أخذهم من المواخير وموائد الفمار إلى المسيح وإلى ملكوت السماء . رأى هؤلاء ، وكم كانوا كثيرين ، الوليك الذي صب على معلمهم وهادهم ؛ فشكوا واسترابوا ؛ ثم كفروا . ثم ازدادوا كفرا . . وسرعان ما حملتهم أقداهم وأنفسهم إلى ماضهم الذي حررهم منه « سافونارولا » وعادت « فلورنسا » من جديد ترقص على أنغام الضلال في مأتم الفضيلة . . ١١

في الحياة الحرة الطلقة تموت الأشاعات فور ميلادها . وبذلك ينحلو السبيل بين المجتمع وبين الحياة العقلية الرفيعة التي يبصر بها رؤى الجمال

والعظمة . . ومثل هذه الحياة العقلية ضرورية . بل لا شيء يبلغ مبلغها من الحتمية لوجود مجتمع فاضل ذى سلوك سوى رشيد . وهذا ينقلنا إلى حلقة هامة من حلقات الحديث .

المخططات الخلقية ، ابن سرعى لمخططات العقل

أعرفون العبارة الخلية التي استهلت بها مؤسسة الأمم المتحدة للتربية والثقافة دستورها . . ؟

ربما يكون من المفيد أن نبدأ بها هذا الجزء من الحديث .
 — « تصرح حكومات الدول المشتركة في هذا الدستور بالنيابة عن شعوبها ، أنه ما دامت الحرب تبدأ في عقول الرجال ؛ فإنه ينبغي أن توطد دعائم الدفاع عن السلم في عقول الرجال أيضا . . .
 انظر ١ ، ما دامت الحرب تبدأ في عقول الرجال ؛ فدعائم السلام يجب أن توطد في نفس العقول أيضا . وهذا حق . ، ومثله في الصدق أن نقول :
 — « ما دامت الرذيلة تبدأ في عقول الرجال ؛ فان دعائم الفضيلة يجب أن توطد في عقول الرجال أيضا . »
 وهنا يلقانا سؤال :

— هل تبدأ الرذيلة في عقول الناس . . ؟
 وقبل الاجابة على سؤالنا هذا ، يطيب لى أن أتخيل مفارقة طريفة في ملكوت الله الرحيب .

أتخيل علماء الأرض وعيونهم على المنظار الشاخص إلى الرحاب القصية في الفضاء ، متطلعة إلى المريع في تمنع وخص . ثم أسمعهم يقولون :
 « ليس في قدرة الأحياء أن يعيشوا على سطح المريع لأن رطوبته كافية

بقتلهم . . ولذا نرجح — نحن علماء الأرض — أنه كوكب غير مسكون . ١
 وأنجيل علماء المريخ ، في نفس للشهد تشخص أبصارهم إلى كوكبنا ،
 ويقولون : « ليس في قدرة الأحياء أن يعيشوا على سطح الأرض . لأن
حرّها كفيل بأن يقتلهم . ، ولذا نرجح — نحن علماء المريخ — أن
 الأرض كوكب غير مسكون . ١١

إن مثل هذه التخمينات يتبادلها الأخيار والأشرار . . يتبادلها سكان
 كوكب الفضيلة . ، وسكان كوكب الرذيلة . .
 فلاؤلون يستبعدون أن يكون أصحاب الرذيلة أحياء ، لأن حرّها
 كفيل بقتل أرواحهم . . ١٠
 والآخرون يستبعدون أن يكون أصحاب الفضيلة أحياء ، لأن رطوبتها
 كفيلة بأن تهرأ وجودهم . . ١٠
 وكلا الفريقين مقبل على هوايته . شغوف بها ، فمن الذي يفصل
 بالحق ، ويقضى باليقين ؟ . من الذي يدلنا على الفضيلة الصحيحة ،
 والرذيلة الصحيحة ؟ .

الحق أننا نحن سكان هذا الشرق العربي أحوج ما نكون إلى إدراك
 صحيح وجديد للأخلاق . في حاجة إلى تحديد واضح لمفاهيم الفضيلة
 والرذيلة . والخير والشر . فليس هنا شيء التبس فيه الحق بالباطل .
 وكثر حوله اللغظ وقل الفهم الصحيح . كما حدث للأخلاق والسلوك . .
 عندما أفرغ « المحضر عثمان حموده » رصاصاته الست في حياة
 ضحيته فأرداها . استدعى من فوره إحدى قريباته ، ليستودعها بعض
 متاعه وآخر كلماته ووصاياها . .

أتدرون ماذا قال لها . . ؟ كلكم يامن طالتم فصفه في الصحف
وقعت أعينكم على وصيته . ولكنى أحسب أن قلة نادرة منكم هى التى
وقفت أمام هذه الوصية فى تأمل واعتبار .

لقد قال ، وهو يعلم أنه ذاهب إلى القصاص . تاركا الحياة والأحياء
وراء ظهره المدير . . قال وهو يعيش فى الساعة التى تقرر له أبواب
النهاية . . قال العبارة التى يقولها المدلفون إلى الكفن ، فياخضون بها
حياتهم وثقافتهم وكيانهم جميعا . . فإذا كانت العبارة التى لحصت حياة
« عثمان » وثقافته وكيانه . ؟

إنها أصدق ممت — فى رأيى — للمجتمع الذى نعيش فيه . المجتمع
الأبله ، المنافق ، السطحي . .

قال القاتل وقريبته تسأله : هل تريد أن أقول لأهلك شيئا . ؟
— « نعم ، سلمى على خالى وأخى ، وقول لهم أوعوا تبصوا من

الشباك » . . ١١١

احذرى يا أخته أن تنظرى من النافذة . . ١

هذه هى الوصية الخلقية الفاضلة التى يزجها وهو ذاهب إلى ربه
شاب أنك الرذيلة وأضناها . . فهو باعترافه ، قارف خيانة بشعة لرجل
فى مكانة خاله . . قارف خيانتته مع الأم أمام بنتها . ، ثم مع البنت الطفلة
أمام أمها . . ثم سفك الدم ، وأزهق الروح ، وقتل النفس التى حرم
الله قتلها . . ثم أطلق خوار الفضيحة فى غير حياء أو أناة . .

ثم ماذا . . . — لا تنظرى من النافذة يا أخته . . فتلك هى
الرذيلة ، تلك هى الموبقة ، تلك هى الخطيئة التى لا تطهرها مياه البحار !

مجتمع عفن يفكر تفكيراً عفناً ، ويسيش داخل تقاليد عفنة . .
ولماذا هو كذلك . . ؟ الطغيان . . فالطفة الذين تواكبوا على حياته من
قديم الزمان ، وتعاقبوا على أرضه لم يتحوا لعقله فرصة التبصر والتألق .
بل شحنوه شحنا معتماً بخرافاتهم وخذاعهم .

إنَّ « عثمان حموده » هذا حفيد للرجل الطيب الذى عاصر
« السلطان سليمان » وكلنا مثله حفدة أولئك الآباء الذين أصدر فيهم
« سليمان المذكور » مرسوما من مادتين .

الأولى ، تجعل جميع الأرض المزروعة ملكاً له . وأصحابها أجراء
عاديين وملترمين لا مالكيين . .

والثانية ، تحرم على المرأة أن تخرج فى الطريق العام غير متنقبة . فمن
تفعل وتخرج سافرة . تزد فى شوارع المدينة ممتطية حماراً بالمقلوب . . ١١١
أى أنه يسرق شعباً ، ويغتال أمة . . هذه فضيلة (١)

أما الرذيلة ؟ فهى أن تسير المرأة وليس على وجهها حجاب . . (١)
تماماً كما فعل « المحضر القاتل عثمان » فهو يمرح ويرعى فى أعراض
الناس . ؛ ويقتل فى استخفاف ، ثم يتجشأ وصية كبرسوم السلطان
سليمان ، فينهى أخته عن النظر من . . « الشباك » . . ١١٠

ألم أقل لكم إننا أبناء الدين لفهم تقاليد الطغاة فى مثل الضباب ١٩ .
العقل وحده هو الذى يستطيع أن يعطى مفاهيم صادقة واعية لما
هو فاضل ، ولما هو مردول .

وحيث يوجد التفكير الحر المتألق . . تستطيع أن تبصر موكب
الفضيلة يحتشد ويتجمع ليبدأ فى هذا المكان رحلة الاكتمال الصاعد

والسلوك القويم . . وأما الانحطاط العقلي فهو الأب الشرعى للانحطاط
الخلقى . . هو أبوه وأمه وحاضنته وحامى حماه . .
فلنر الآن كيف هو كذلك . . ثم لنر أثر الطغيان فى انحطاط العقل
وعرقلة نموه ومسعا .

فى الكتاب المقدس . نلتقى بيسوع يقول :
— « . . وأنا أطلب من الأب ؛ فيعطيك معزيا آخر ليحكث معكم
إلى الأبد . روح الحق . . »
ما هو روح الحق الذى سيمكث معنا إلى الأبد ؟ . .
إنه العقل ، وليس هناك شىء سواه يستطيع أن يملأ رحاب هذه
الآية المقدسة . .

وفى القرآن الكريم . تبهنا الآيات الهائلة بالاستقامة والسعى
والتفوق إذ نراها محتومة غالبا بقول الله سبحانه « لعلمكم تعقلون » ،
« لعلهم يفقهون » ، « لعلهم يعلمون » .

ويصور الرسول قيمة العقل فى حديث طريف فيقول :
— « عندما خلق الله العقل . قال له : أقبل ، فأقبل . . ثم قال له :
أدبر ؛ فأدبر . . ثم دعاه وقال له : اذهب ؛ فأنت لعبادى سلطان وعليهم
شهيد . إياك أسأل ، وإياك أعطى ، وبك أحاسب . . .
ثم يبين فى وضوح أكبر ، الارتباط الوثيق بين العقل والسلوك ؛
فيرفع للمسئولية عن الناس فى الحالات التى يتوقف العقل فيها عن أداء
وظيفته سواء كان ذلك طارئا كالأغماء ، أم مقبلا كالجنون . . ولقد كان
« توما الاكوينى » يقول :

— « إنه لما كان كل من العقل والايمان هبة من هبات الله . فهما بالضرورة متوافقان . » ومثل هذا نقول : « إنه لما كان كل من العقل والفضيلة ضرورى لسعادة الانسان ؛ فهما بالضرورة متوافقان . »
الآن إذن نعلم الأجابة عن السؤال الذى طرحناه آنفا إذ قلنا :

أصبح أن الرذيلة تبدأ فى عقول الرجال . . ؟

أجل إنه صحيح . وعندما يذهب عقلك فى إجازة (١) يرفع الله عنك جميع المسئوليات . . وما دام العقل مناط المسئولية الأخلاقية ؛ فلنبداً منه النهج الفاصل لمسئلة السلوك والأخلاق .

فنبداً الانسان والأمر كذلك . والعقل هو الذى كان يعين لنا فضائلنا ورذائلنا . . فيوم لم يكن مع البشرية وحى ودين ، لم تكن بغير أخلاق . بل كان لها فضائلها وأخلاقها التى تهب المجتمع ثباته وأمنه .
فمثلا كان القتل جريمة ورذيلة . . ؟ فن الذى جعله كذلك . .

العقل . الذى أبتأهم أن التسامح مع هذا العمل سيفنى القبيلة ، ويسبب من المشاق والعطب ما يوقف النمو ويعطل الحياة . وهناك صار القتل جريمة مرذولة . ثم وضعت التشريعات التى تؤكد ذلك وتنظم له العقوبة والقصاص . فى شريعة حمورابى التى لم يكن فيها حظ من وحى ولا نصيب من دين . تقرأ هذا النص الرائع الذى سبق اليهودية والمسيحية والاسلام . « العين بالعين ، والنفس بالنفس ، والسن بالسن . وفى الأطراف دية » . . ١١١

والعقل هو الذى اكتشف أخيراً ، ولا يزال يكتشف المنابع الحقة للرذيلة . ويضع الوسائل المجدية الفعالة فى العلاج الخلقى . فصلته بالسلوك ،

وحتميته لتعالته وترقيته لا يشكران أبدا . . وكيفما يكون عقلك ، يكون سلوكك أيضا .

وقد يسألنا سائل : أنت ذكرت في - هذا . . أو الطوفان - أن الوصف الحق لخطايانا أنها أمراض . . فهي تبدأ أخطاء في سلوكنا . ؛ فإذا رسخت صفة الأدمان تحولت إلى مرض خلقي . . وما دام ذلك كذلك . أى ما دامت رذائلنا وخطايانا مجرد أمراض ؛ فما صلة العقل إذن بقضية السلوك والأخلاق ؟ !

أليس يصاب بالأمراض العضوية أناس بلغوا أرفع منازل العقل والدكاء . ، وإذن فقد يكون حالهم مع المرض الخلقي . ؟
ونجيب بأننا لانضع الحالات الفردية ، والمثل الطارئة موضع القاعدة . . هذا أول .

والثىء الثانى ، هو أن الدين يحملون عقولا ذكية حسيطة مسيطرة فلما يصيبهم المرض الجسمى بنفس الضراوة واليسر اللذين يصيب المرض بهما من هم أدنى منزلة فى الدكاء وحفا من العقل . . ذلك أن العقل الدكى الصارم ينأى بأصحابه عن دواعى العلة . من تخمة فى الأكل ، وإفراط فى السهر ، واستسلام للشهوة . شهوة النفس وشهوة الجسد . . وهو بهذا يؤدى دوراً وقائياً هاما يتحاشى به الكثير من أمراض الجسم . وكذلك يستطيع أن يقوم بنفس الدور فى تحاشى الأمراض الخلقية .

فالمرض الخلقي يجتاز أدواراً عدة قبل أن يصير مرضا . . ويستطيع العقل الصارم البصير أن يحتجزه عند أولى هذه المراحل أو خلالها . . فهو يبدأ رغبة . ، ثم يصير سلوكا . ، ثم يكون عادة . ، ثم يغلب عليه

الأدمان الضاغط . فيصير مرضاً خلقياً مقبياً . . وهكذا يواجه العقل فرصاً كثيرة يستطيع بها أن ينقذ الضحية من سوء المصير .

ثم إننا نتحدث هنا بصفة أكثر عن عقل الجماعة . . فالمجتمع ما لم يشع فيه نور العقل لا يمكن أن يكون فاضلاً بل ولا يحق له أن يطمع في إحراز الفضيلة .

وعقل المجتمع يعطيك فكرة كاملة عن شخصيته ، وعن سلوكه . . فعندما كان العقل - غائباً - أعنى عقل غابة ، كان هناك سلوك الغابة . . وعندما كان العقل - إقطاعياً - كان تمت سلوك الإقطاع بفوائده وذائله . . واليوم والعقل صناعي ؛ نجد سلوك الآلة وأخلاق الآلة . . وعندما يكون العقل - مسيحياً - نجد أخلاقاً مسيحية وحضارة مسيحية . . وعند ما يكون - إسلامياً - نجد أخلاقاً إسلامية . .

ولو أن عقل « آل كابوني » وتفكيره توفر لهذا الشيخ الورع الذي ينهى الناس عن تعذيب هرة . ، لصار هو آل كابوني . . . ومن الخير أن أعترف بأني كنت من أكثر الناس جحوداً لهذا الرأي ، وصدأ عنه . . وكنت أقول للناس وأنا أعظمهم . « أكثر أهل الجنة البله » أي أن البله والمغفلين هم أهل الفضيلة والتقوى . بدليل أنهم أكثر أهل الجنة . .

أما الآن ؟ فقد عرفت . ، وكيفما يكون عقل الفرد يكون سلوكه . وكيفما يكون عقل الأمة يكون سلوكها .

ولسنا نغنى بالعقل هنا أن تكون فيلسوفاً ، أو مخترعاً ، أو أدبياً كبيراً . إنما نغنى العقل المتزن ، والدهن الثابت نغنى سكينه النفس

وسكينة التفكير ، . نعني العقل الذى عناه ذلك الفيلسوف الصادق الذى دعا ربه قائلاً : — « يارب اجعل نعم الحياة الدنيا جميعها تحت أقدام الحقى ، وأعطني عقلاً غير مضطرب » . . .

وسكينة العقل وسكينة التفكير لا توجدان قط . حيث يفرخ طاغية ويبيض . سواء كان هذا الطاغية فى الدولة ، أو فى المدرسة ، أو فى البيت . وسنرى فى الفصل الثانى ، كيف فقدنا المقدرة على حيازة فضائل النفس ، لأننا فقدنا سكينة العقل والنفس . . وكيف فقدنا هذه الأخيرة بسبب القهر والعسف اللذين نلقاهما منذ نعومة أظافرنا فى المنزل وفى المدرسة وفى المجتمع . واللذين يشيعان فى عقولنا الاضطراب وفى قلوبنا المسكنة ، وفى أخلاقنا التشويه .

إن نظمة غابرة إلى أخلاق الإنجليز والفرنسيين مثلاً — تضع بصيرتك على عامل من أهم عوامل الفارق الكبير بين أخلاق الأمتين والشعبين . . . فالفكر الفرنسى خصب جياش . والعقل الفرنسى ذكى ثاقب بيد أنه مضطرب نزق . . ومن هنا طلى سلوك الأمة الفرنسية بالدم ، والفتنة ، والحلاعة . . أما العقل الإنجليزى ؛ فأكثر ثباتاً وطمأنينة وأناة . . ومن ثم اتسم سلوك ذويه بما يناسب عظمة ذلك العقل وهدهده . وكيف وابتت الفرصة العقل الإنجليزى فاكتسب السكينة ونأى عن الاضطراب ؟ من شئ واحد . . هو المناخ الحر الديمقراطى الذى تهباً لهذه الأمة من زمان بعيد جد بعيد . . والذى تشبث به الإنجليز تشبثاً باهراً على النحو الذى سنبينه على الصفحات القادمة .

إن العلم يقرر اليوم أنه حيث ينحط الذكاء ، ويتقأ العقل ، يوجد

حس أخلاق ناقص ، كما هو الحال بين الجماعات المتوحشة . . وهناك فارق كبير بين سلوك أوربا المتبربرة . . وأوربا المتحضرة بل بين المجتمع الإنساني القديم ، والآخر الحديث . وهكذا كلما تقدم العقل وثبتت أقدامه . تقدم معه السلوك القويم ورسخت دعائمه .

فكيف نتيج للجماعة نمو العقل واتزانه وسيادته ، لتتمكن بالتالى من تطوير سلوكها ؟ ١٩

إننا بهذا السؤال نبلغ المرحلة التى نجيب فيها عن سؤال ألقيناه آنفا . وهو : ما مدى تأثير الطغيان على الحركة العقلية فى الجماعة . وهل يتأتى لعقل الأمة وعقول الأفراد أن تنمو وترعرع فى ضباب حكم الطاغية — أى طاغية . . ؟

ونجيب بأن الله أعداء العقل هو الحجر ، والوصاية ، لا سيما حين تكون الوصاية لسفيه . ، والطاغية دائماً سفيه . . . ١١

فالطاغية يقوم سلطانه واستكباره على بغضاء معصوبة العينين لكل من يقول له فى جد وحزم ، لم . . ؟ ، ولا . . .

وإذا كان العقل يبدأ رحلة نمائه بتحويله إلى أداة استفهام دائبة ، فلا يفتأ يسأل ، لم ، وكيف ؟ ولماذا . . ؟ ؟ فإنه إذن يرتطم ارتباطاً مباشراً ، وصعباً بمشينة الطاغية . سواء كان هذا الطاغية ، حاكماً ، أو نصاً ، أو تقليداً من التقاليد . .

عندما قام رجل من خير أدياب ألمانيا يحذر الأمة من الطريقة الجديدة التى يربى بها « هتلر » شباب المدارس حيث أحالها إلى « ثكنات » ولم يبق لها من سمات المعاهد إلا قليلاً . . وحصر دروس الألعاب سيا

مدارس المرحلة الأولى في ألعاب « الجاسوسية » ، و « هجوم الدبابات » إلى آخر هذه الأشياء . . ماذا كان جزاؤه . ؟ لفقت له التهم لينزل ضيقاً عزيزاً على السجن ، لولا أن تمكن الرجل من الهرب إلى سويسرا حيث وضع في خدمة نظامها الحر كل مواهبه وفنه . .

فهذه مشكلة من مسائل التربية أمدى فيها رأى عابر . فلم يسمح النظام غير الديمقراطي وغير الجرب بأبدائه . . وهكذا يصدق قول الفيلسوف الذي قال : « إن العبد لا يستطيع أن تكون له أخلاق لأنه لا يملك اختيار خلق لنفسه إن سيده هو الذي يفرض عليه نوع سلوكه وحياته . »

إن الحياة كما يقولون ، عملية هضم وتمثيل . فكل ما في الجماعة من استبداد وعوز وخرافة يمتزج بكياسها ويشمر سلوكها . وإن جميع العلف الذي يغذيها به الطغيان من آراء يحارها ويفرضها لتتحول وتصبح أنت ، وأنا ، والآخرين .

ويبلغ الانحطاط العقلي أوجه البعيد في ظل الطغيان . لماذا . . . ؟ لأن الطاغية يعتمد لدعم سلطانه ، وإرساء دواعي البقاء والاستمرار لحكمه ، يعتمد في هذا دائماً على إحياء غريزة القطيع في الأمة ، وإذا استعلت غريزة القطيع على عقل الجماعة في قوم فلماذا يحدث . تستطيع أن تدرك ذلك بموازنة عابرة بين كلتي غريزة وعقل . . وكلتي قطيع وجماعة . . ؟ ١

وأرجو أن تدرك إدراكاً واعياً ، أن سيادة غريزة القطيع واستعلاءها ، واضمحلال عقل الجماعة وخفوت صوته أثمان محتومان ، وابنان شرعيان

لكل طاغية قام أو سيقوم في هذه الأرض .

إن الأخلاص العقلي لما هو حق . يدعونا للضغط على هذه السمات
كما تنطلق مبينة واضحة . ويدعونا للتكرار والتوكيد حتى نمنح الوضع
ما يستحقه من اهتمام .

إن تطويع الأفئدة والعقول لحكم الفرد يقتضى هذا الفرد أن يسرف في
استعمال الاستهواء والدعاية ، وهو لا ينفك بالليل والنهار في السر والعلن ،
بشق الطرق يبترياً واحداً ، هو رأيه . ويبشر بوجهة نظر واحدة هي وجهة
نظره . ، وهو يطلق دعاواه ومنهجه المرسوم في طوفان هادر موصول
الموجات متساوق الضربات ، ويمجد عقل الجماعة نفسه في دوامة هائلة ،
لا يكاد يخلص منها وينجو حتى تتبتهل دوامة أخرى . ، ولا يكاد يفيق
من هذه الثانية حتى يكون قد ترنح واستخذى وتدحرج في هدوء الموت
إلى جوف الطوفان . .

لقد كان الشعب الألماني عظيماً . . شعب العبقرية ، والنبوغ . ، ومع
هذا فإن عقل الجماعة في ذلك الشعب العظيم لم يستطع أن يصمد أمام
وسائل الاستهواء النازي الذي شنته الأذاعة والصحافة ، وخطوات الأوز ،
ومهرجانات العنصر الآري الشريف (١) لم يستطع عقل الجماعة أن
يصمد في شعب كذلك الشعب ، واستسلم لغريزة القطيع . :

ماذا كان الثمن الذي دفعه الألمان ليس فقط من مستقبلهم . بل من
أخلاقهم . . أجل من أخلاقهم فهي المسئلة التي تعنى هذا البحث ؟
حدث ما يحدث دائماً عندما تحاصر أمة بطاغية يحكم . وغريزة قطيع

تفكر . . نخضع السلوك الألماني ، والخلق الألماني لأبشع رذائل الأرض . .
ألا وهي التعصب . .

ومن سوء حظ بلادنا أنها لا تضع التعصب في قائمة الرذائل الخلقية . .
إنه ، وعند المثقفين فقط قد يكون رذيلة عقلية لا غير . . لهذا نشعر
بصعوبة موقفنا الآن ونحن نصف التعصب بأبشع رذائل الأرض . . !!
ذات يوم ذهب إلى الرسول عليه السلام رجل يسأله عن الأثم الذي
إذا تركه ، وتغلى عنه ، انتصر على كل آثام نفسه ونزواتها . . فقال له
الرسول عليه الصلاة والسلام : لا تكذب . .

وقفل الرجل مصعباً على ألا يكذب ، فكان كلما راودته نفسه عن
رذيلة ، وقف مستأنياً يسألها :

— إذا اجترحت هذه الرذيلة ، وسئلت عن فعلها ؛ فأما أن أصدق
أو أكذب . فإذا صدقت نزلت بي عقوبتها البدنية . .

وإذا كذبت أكون قد حنثت بعهدي ، وفقدت عزيقي وتصميمي . .
وهكذا أفضى به إصراره على الصدق وترك الكذب إلى معظم
فضائل النفس ، ومكارم السلوك . .

أى أن الكذب كان حسب تصوير القصة القنطرة التي تعبرها جميع
الرذائل والموبقات . . !!

ألا إن التعصب كذلك . . مضروباً في اثنين . . لأنه كذب ، ولأنه
ظلم . أما كيف هو كذلك ؛ فسنرجى الحديث عنه إلى الفصل الثالث .
وغاية ما نرجوه هنا إدراك أن التعصب قرين الحكم المطلق ، وثمرة
الحنظل التي تثمرها شجرته الملعونة . .

ذلك أن كل أمر مطلق ، سواء كان ديناً ، أو دولة لا يؤمن بحق الآخرين في مخالفته . لأن معنى أنه مطلق أنه استوعب جميع عناصر الحق الذى لا يمارى ، والأحقية التى لا تسبق . والدولة فى نظر الطغاة أمر مطلق . . كما عرفها أحدهم ، وهو طيب الذكر جداً . . موسوليني .

وإذن فصاحب هذا الأمر المطلق وسيده لا يعترف للآخرين بحق مخالفته ، ولا يؤمن بتعدد النظر إلى الأشياء . إنه ينظر من جانب واحد ويعتد برأى واحد . . وهكذا إذا تحولت الجماعة المدعنة الطاغية إلى وكر للتعصب المدمر فالجريرة جريرته هو . . والأمر لا يعدو أن يكون انتقال عدوى من ذلك الذى يتفانى فى التعصب لدائه ، ومصالحه وآرائه . . ويلعب الاستهواء الضدى دوراً ناجزاً فى هذه الحالة . ؛ فتسارع الجماعة إلى عكس ما يريد الطغيان أن يروضهم عليه فتفتتح أنفس الأفراد ، ونفسية الجماعة لكل دواعي التعصب المضاد ثم التعصب بصفة عامة فتستجيب سريعاً لكل من يقدم إليها دعوة متعصبة ، أو مذهباً متعصباً لاسيما إذا كانت هذه الأمة أو الجماعة قد قطعت شوطاً طويلاً مبهماً ينظم آلاف السنين وهي تعيش تحت وطأة طغيان متنوع ، وغزو متلاحق ، كأمتنا وشعبنا . . أهدأ فقط هو كل ما يجنى به الطغيان على العقل وبالتالى على الأخلاق؟؟..

لا ، فهو بطبيعته عدو الثقافة الحرة ، وقاطع الطريق على قافلتها المباركة . وإذا نحن علمنا أن الافكار الكبيرة المضيئة ، هى قبل كل شئ مساواة ، التى تخلق الأمم العظيمة ، أدركنا مدى العرقلة الآتمة التى يبذلها الحكم المطلق ضد النهضة الصادقة للأمة ، نهضة العقل ، ونهضة النفس . . لىكي تظفر الجماعة بأخلاق كبيرة . . لا بد من ظفرها أولاً بأفكار

كبيرة . . ولكي تظهر بهذه يجب أن يتحرر عقلها من الجهالة . .
والسبيل الوحيد لذلك هو تحرير الضمير من الفزع . ومصدر الفزع هو
الطغيان ، والقسوة والتحكم .

إذن فبداية البدايات لأيجاد مجتمع فاضل مستقيم حتى أن نحرر رقبة
هذا المجتمع من كل حكم مطلق ، وأن يشعر أفرادهم أنهم لا معقب
لحكمهم ولا سيد فوقهم سوى مشيئتهم كجماعة وكشعب

ألا إن الخلق الأدبي عمل روحي قبل أن يكون شيئا آخر ، وحسبما
تكون روح الأمة يحى ، تفكيرها ، كما أنه كيفما يكون تفكيرها تكون
روحها فكلامها يعمل في الآخر طرداً وعكساً . . وإنك لترى المفكرين
الأحرار الذين شرعوا أقلامهم كالسيوف المواضى دفاعاً عن الحرية
قد نشثوا دائماً أو غالباً في أمم وجماعات تهوى أئذنها للحرية وتطير
أرواحها إليها وتصطك محاولاتها بفرص الزمان لبلوغها .

ولكن الفكر الذي نعتبره خفياً وارتداداً . والذي يعطى الجماعة
نهجاً كريماً لحياتها ، هبات أن يوجد في ظل طاعية . فالطاعية بدهائه
وزوعه الدائب إلى السيطرة يعمل ليكسب إلى جانبه جميع الفرص
التي تحقق له زوعه المسعور . وهذه الفرص تتمثل طبعاً في القوات
الاجتماعية الموجودة في الأمة . وعلى رأس هذه القوات الاجتماعية ،
الفكر

ويبدأ الطاعية متوسلاً بالرغبة ، فيطلق في نفوس المفكرين والمؤلفين
والكتاب أنوعاً من الشهوات ، ويبسط لهم موائد الجاه والمال والشهرة ؛
فيستجيبون له . وعندئذ لا يتساءلون عند ما يحملون أقلامهم : ماذا يجب

أن نكتب لنهدى إلى الحقيقة .. بل ماذا يجب أن نكتب لنرضى الطاغية ..
أجل ، لا يكتبون ليعرفوا وينيروا .. بل يكتبون ليكسبوا ويشهروا .
أقسم ، لو أن أمة من القديسين انحرف فيها الفكر الحر عن رسالته ،
وزيف من أجل الغرض والهوى ، لتحول قديسوها من فورهم
إلى شياطين وأبالسة ..

إن كل عمل جليل يتم على هذه الأرض .. كل شجاعة خارقة تتقدم ..
كل رحمة وارفة تسود .. كل ثورة إنسانية تنجح .. كل مرض عضال
يقهر .. كل تقدم إنسانى يزحف ..
أقول إن كل شيء من هذا يحدث ، تجد وراءه شيئاً واحداً رائعاً
وملهماً وخالقاً ، ألا وهو : الفكر ..

والكلمة المسطورة هي الأم الرؤوم التي ولدت ولا تزال تلد كل عمل
نبيل وجليل .. وأيضاً هي التي تلد — إذا كانت شريرة كل وزر
وكل ضلال .

نخير ما يهدى إلى الفضيلة أن تعيش الجماعة في كنف الكلمة الطيبة ..
وشر ما يهدى للرذيلة أن تعيش في مستنقع الكلمة الخبيثة ..
ألم يقل الله ذلك ؟ ..

« مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة ، أصلها ثابت وفرعها في السماء .
تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم
يتذكرون » ..

« ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة ، اجتثت من فوق الأرض
مالها من قرار » .

إن الكلمة الطيبة لها مناخ واحد لا يتبدل ، هو حيث ديمقراطية الحكم ، وحرية الفكر والقول والعمل . .

كما أن للكلمة الخبيثة مناخها المعتم . . حيث يوجد ذلك الصعلوك الذى يسمى طاغية ، فترفع أصوات التافهين الذين يتخذون من الفكر والأدب تجارة ولهوأ . . والذين تضن عليهم الحقيقة بنفسها ؛ فيغمسون أقلامهم فى مداد اللغو والهتان . . بينما ينزوى الذين عندهم علم من الكتاب ، ونور من الحقيقة ، عازفين عن الشهرة التى تمنها الكذب ، وعن المال الذى طريقه التسليم ، وعن الراحة التى تمنها خيانة المعرفة . .

بين أدب الأمة وأخلاقها رباط وثيق . .

فن أدب أثينا ، تعرف أخلاقها . .

ومن أدب الرومان ، تبصر سلوكهم . .

وبين أدب الفرنسيين وأخلاقهم وشيجة . .

وبين أدب الإنجليز وأخلاقهم صهر ونسب . . !

فإذا أراد قوم أن يحدوا فى رفع مستوى الأخلاق ، فعليهم أولا أن يرفعوا مستوى الفكر والأدب .

والفكر والأدب لا يرتفعان بتنمية نزعة الكسب عند الأدباء

والفكرين . . ولا بفرض الرقابة على الفكر الذى خلق ليخلق فى الفضاء

الحر . . ولا يرتفعان بشحن ضماير الأدباء بالفزع تارة وبالشهوات تارة

أخرى . . ولا برهم المنابع العذبة الصافية التى تروى الثقافة بالماء الزلال . .

ولا بالخط من شأن الثقافة الحرة . ورفع لواء الهوس الفوغائى . .

وإذا وجد رجل يقترب كل هذه الموبقات التى تهيم للانحطاط العقلى

والانحطاط الخلقى ؛ فلن يكون هذا الرجل سوى الطاغية . ، وكل فكرة يمكن أن تصورها عن اختناق الفضيلة بالطغيان جديرة بأن تكون دون الحقيقة الواقعة .

مصرع الباعث الخلقى . .

فى « هذا . . أو الطوفان » قلنا إن المحاولة الأخلاقية الرشيدة تبدأ بتعليق الباعث ودعم سلطانه . لأن الأخلاق فى واقعها الحق ليست أكثر من الباعث ، وقلنا إن السلوك الخير بدون باعث يزجيه لا يساوى شيئا . وأعمالنا نفسها لا توصف بالحسن والقبح إلا تجوزا ، وإنما يوصف بهما أصلا بواعثنا . . وضربنا لهذا مثلا — القتل . . فنحن نراه جريمة فى حالة ، وفضيلة فى أخرى . أى أن صفته تتكيف وفقا لدوافعه .

فهو جريمة إذا كان باعته العدوان . .

وهو فضيلة ، إذا كان باعته الدفاع عن الوطن . .

والآن نريد أن نعرف ، هل يتوفر للناس فى مجتمع مستعبد أغراض صالحة ، وبواعث شريفة تهيئهم لسلوك فاضل مستقيم . . ؟ ؟

سنرى أن ذلك غير موات ولا ممكن . لأن الطغيان يسلب الجماعة إرادتها ، وحريتها واختيارها . . والباعث الخلقى لا وجود له — أدنى وجود — إلا حيث تكون إرادة وحرية واختيار .

لكل سلوك إنسانى باعث ودافع ، أى رغبة توجهنا نحو غاية . .

وعلماء الأخلاق والنفس يقررون أن دوافعنا مزدوجة ، فهناك الدافع
الابتدائي . . وهناك أيضا الدافع العائى .

فأنت عندما تسلك سلوكا ما ، أو تسير فى عمل من الأعمال ، تحتاج
لقوة تدفعك ، وغرض يناديك . . إن القوة الدافعة الحافزة ، تمثل
الدافع الأولى . . والغرض الذى يناديك فتسعى إليه يمثل الدافع العائى . .
وأعمالنا إنما توصف بالدافع الثانى أى العائى . فإذا كان شريفا فاضلا ،
كان سلوكنا شريفا فاضلا ، وإذا كان أشراردينا ، كان سلوكنا كذلك
رديثا . .

والباعث الأولى لتعائى ، لأنه ينبعث من غرائزنا وقوانا الفطرية .
أما الثانى فكسبى ، لأننا نختاره كنوع للغاية وللغرض اللذين ينبهان
غرائزنا ويحفزان قوانا .

ويضرب لنا « هادفيلد » مثلا - رجلا سياسيا يخدم وطنه وبلاده . .
إن الدافع الأولى الذى ينبثق من غرائزه ويمنحه القوة والمغامرة
قد يكون أهمية الذات وحب التفوق والظهور والمجد . ، بيد أن أهمية الذات
وحب الظهور يمكن أن يعبر عنهما تعبيرا رديثا كالزهو والكبرياء
والعدوان . .

فإذا عبر السياسى النظيف عنهما بخدمة بلاده ووطنه . كان ذلك
الدافع العائى جليلا وكان السلوك عظيما . .

ومثلا آخر . . هذه السيدة التى تحنو على الساقطات من بنات
جنسها ، وتقضى وقتها فى العمل الدائب لانتشالهن من الوهدة . .
إن الباعث الأولى بالنسبة إليها قد يكون رغبته اللاشعورية فى الاستطلاع

الجنسى . . ولكن هذه الرغبة أيضا كان يمكن أن يعبر عنها تعبيراً فاجراً مستهترا . . فإذا اتجهت به صاحبتنا إلى غرض نبيل كالذى ذكرنا ، كان عملها نبيلاً ومسلكتها حميدة .

وإذن فالدافع الغائى هو الذى يعطى سلوكنا صفة الجمال أو القبح . ، وهو يواتينا بقدر ما معنا من تربية ، وما فى بيئتنا من فرصة . .

أى أن الدوافع الغائية الشريفة إنما توجد وترعرع وتنطق للعمل فى الجماعات التى تشيع فيها الأفكار الكبيرة ، والعلاقات الغيرية السليمة . وحيث الأخاء والحب والشجاعة والسلام . . وبعبارة موجزة نقول : إن الدافع الغائى الفاضل يستمد وجوده من القيم الفاضلة المسيطرة على المجتمع . ، كما يستمد المآل وجوده من عناصره المكونة له . .

فهل للجماعة التى يفرخ فيها الطغيان ويبيض قيم عالية سامية . . ؟؟ إن ما تنظمه الصفحات السالفة كلها من حجج وبراهين تقول : لا ، وهى أيضاً مقولة الواقع والحق .

فالقيم قد توجد فى جماعة يحكمها طاغية ، ولكنها تكون فى حالة كمن واستخفاء وتوقف عن العمل . لأنها ليست كائنات حية ، تتحرك وحدها وتسعى . ، بل لابد لها من ناس تنقسمهم كي تعمل .

والناس فى حكم طاغ قد لا يسلبون الصفات التى تمكنهم من الاستجابة لتلك القيم . ولكنهم يعجزون عن الاستفادة منها والتعبير عنها تعبيراً سويّاً قوياً وهذا مما يضاعف الخطر ويدعو للجزع . . فالشجاعة - مثلاً - يختلف عملها فى المجتمع الحر عنه فى المجتمع المضطهد . إنها فى الأولى

خادم مطيع لكل قيم الحياة الفاضلة ، فهي هنا تعبر عن نفسها بالمخاطرة في كشف أرض مجهولة ، أو مكافأة وباء فاتك ، كما تتمثل في استبسال كل فرد في أداء واجبه وقهر دواعي الأخفاق والفشل . .

أما في المجتمع المضطهد ، فالشجاعة تلعب دوراً مغايراً . . لأن خصائصها الفاضلة تختفي وتكمن وتربص حتى تتفجر أخيراً في ثورة عارمة ، أو فتنة مدممة ضد الوضع القاسي الذي ناءت بحمله حيناً من الدهر .

وإذا الناس لم يجدوا واجباً يربطهم به دواعي الولاء ، فأنهم سينساقون لقوة تربطهم بها دواعي الفرع . ؛ فهكذا نحن بني الإنسان ، لا مناص لنا من أن نكون عبيد الواجب أو عبيد القوة . .

فإذا أخذت جذوة القيم كما أسلفنا ، وخفت بالتالي صوت الواجب الذي كانت القيم تشره وترجيه ؛ فإن الشيء الآخر يهيب بنا فنستجيب له كارهين . . ذلك الشيء هو : القوة .

والقوة في جماعة غير حرة وغير ديمقراطية لا تتمثل في قانون ، ولا في عرف قدر تمثلها في الفرد الذي يحكم . . في الطاغية . . وهكذا يصبح هذا الطاغية هو القيمة العليا للجاعة . ، وتصير شهواته وصلفه ودوافعه الأولية والغائية قدوة تحاكي ، ونهجاً يتبع . .

ولما كانت جميع دوافع الحاكم المطلق شريرة ، وردية . فإن دوافع الدين سيحكونه لن تكون إلا كذلك . . وهكذا تلقى البواعث الأخلاقية الفاضلة الخالقة مصرعها الويل في كل مجتمع ودولة نفسح فيها الديمقراطية مكانها لحكم الفرد وسفنه وطغيانه .

ولما كانت البواعث الفاضلة تحيا بالتشجيع والأثابة ، فإن بوارها
يصير محققاً في الجماعات التي يسودها طغيان .

كيف يثبت الطاغية على الشجاعة ، وهي عدوه ؟؟

كيف يشجع الكلمة الحرة الشريفة وفيها نهايته ومصيره ؟؟

كيف يكافح الكذب والحياه وما حليفاه ؟؟

إن حرصه على الثناء يشيع خلق النفاق والملقى في الناس .

ولقد كان رجل ملهم كعمر بن الخطاب يدرك الخطر الذي يتهدد
روح الأمة كلها عندما تنقلب مرآة مداجية . فكان يرفض أى مظهر
من مظاهر التبعية ولو كان ضئيلاً .

رأى ذات يوم - عبد الله بن مسعود - صاحب رسول الله عليه السلام
يسير ومن ورائه كوكبة من المسلمين ؛ فما إن بصر به حتى أقترب منه وهو
يقول في تبريع لاذع : - ما شاء الله يا ابن أم عبد . . . ١١ .

ثم صاح في الذين يمشون خلفه ففرقهم ، وقال : لا تفعلوا ذلك مرة
أخرى ؛ فإنه فتنة للمتبعين وذلة للتابع . . . ١١ .

ورجل آخر عظيم جد عظيم ، هو عمر بن عبد العزيز قصده امرأة
من العراق . ولما ولجت بيته أدارت بصرها خلاله فلم ترفيه شيئاً ، فقالت :
لقد جئت لأعمر بيتي من بيت أمير المؤمنين ؛ فإذا بيت أمير المؤمنين
خراب . . . ١١١ .

فأجابها زوجة عمر : إنما خرب هذا البيت عمارة بيوت الناس . .
ودخل عمر بن عبد العزيز ، وأقبل على المرأة يسألها عن حاجتها
فقالت : - أنا امرأة من أهل العراق . لى خمس بنات كسل كسد . .

وحثك أبتغى حسن نظرك لمن . فأخذ الدواة والقرطاس . ليكتب إلى
والى العراق وقال للمرأة : سمى كبراهن . . فسمتها ، ففرض لها .
فقال المرأة : الحمد لله . .

ثم سأل عن اسم الثانية والثالثة والرابعة والمرأة تحمد الله في كل مرة .
فلما هم ليكتب اسم الخامسة ، صاحت من فرحتها : حمداً لك يا أمير المؤمنين ..
فقط القلم من يد عمر وقال لها : كنا نفرض لمن حين كنت تولين
الحمد أهله . وهو الله . . أما وقد نكصت سريعاً ؟ فرى بناتك الأربع
يفضن على أختهن الخامسة .. !!

إلى هذا الحد كان الحكام الصالحون يخافون الشاء بل يخافون
مادون الشاء بكثير . .

ولقد يقال : إنك ضربت مثلاً رجلين لم تكن معهما « ديمقراطية »
ومع هذا فقد كانا مثلاً يحتذى للفضيلة التى تتعب لاحقا ومدركها . ؟؟
ونجيب ، بل كان معهما « ديمقراطية » وارقة تملأ رحاب نفسيهما
الكريمتين . وإن كان التطبيق الكامل للديمقراطية لم يكن فى الزمن
البعيد ، وفى بلاد جزيرة العرب النائية البادية مما يسهل أن يكون . ، كيف
كانت أخلاق الناس فى أيام حاكم كعمر بن الخطاب ، وحاكم آخر
مسلم أيضا ، كعواوية بن أبى سفيان ؟

إن الفارق بين سلوك الجماعة هنا وهناك . هو الفارق بين سلوك
الرجلين ، عمر ، ومعاوية .

وكذلك عمر بن عبد العزيز ، الذى ساد فى عهده السلام والأخاء

والفضيلة مبلغا جعل عهده ينعت بأنه « الأيام التي كان الذئب يرعى فيها مع الشاه » . . .

وإذا كانت جميع فضائل الجماعة تبدأ من فضيلة الفضائل ، وهي : حب الوطن والولاء له ، ولاء يعصم أبناءه من خيائته أو هدم بنيانه ، أو تشتيت وحدته ، أو اعتياق تقدمه . . .

تقول : إذا كان ذلك كذلك ؛ فإن دور الظغيان كحرض عظيم على رذيلة الخيانة ، وما ينسل منها من رذائل ، يبدو واضحا مبينا .

هناك ظاهرة تلفت البصائر وتبهرها معاً . . . هي أنه كلما عظم حب الناس لوطنهم ، عظم معه حبهم لأنفسهم . . . فالسلام الاجتماعى الذى هو للناس الصالح للفضيلة . لا يتأتى قط لجماعة يحملون للوطن ضغنا وحقدا . . . ولماذا يحب الناس الوطن يا ترى . . ؟

إنهم يحبونه لأنه المأوى الذى يصون حياتهم ، ومصالحهم . . والعش الجميل الذى يضم ذكريات حبيبة مشوقة . . الأمر الذى يعبر عنه الشاعر العربى فيقول :
وحب أوطان الرجال إليهمو مآرب قضاها الشباب هنالك
إذا ذكروا أوطانهم ذكروهموا عهود الصبا فيها خفوا لذلك

الوطن إذن هو المكان الذى يتاح لى فيه الاستقرار ، والسلام ، والعيش . . فإذا لم يشعر الناس بشئ من ذلك يفاء على سعيهم الحثيث وكدهم الدائب ، فإن إحساسهم بالوطن يتضاءل ويذوى . بينما ينمو شعور آخر بأنهم غرباء فى هذه الأرض ، وضيق عليها . . بل وشعور آخر أكثر سوءا إذ يجدون جهدهم يضيع ، وعناءهم يتبدد فى وطن لا يكافئهم ولا يتراحب لحقوقهم وغاياتهم ، فتنفصم كل عرى الولاء والحب

والضنّ التي كانت في نفس الجماعة لأرضها ووطنها . . وترحب بكل طارق
ومغير يقرع أبواب بلادها ولسان حالها يقول :

لا أذود الطير عن شجر قد بلوت المر من ثمره
هل رأيتم قط سجناء يدافعون عن سجنهم حين يتداعى أمام هجمات
المعاول . . ؟ كذلك الوطن حين يتحول إلى سجن واقراءوا التاريخ
تجدوا مصداقاً لما تقول . .

هذا هو « غوستاف لوبون » يتحدث إلينا . .
— « . . وكما كانت جيوش الثورة الفرنسية وهي ماضية في غزوها
تصطدم بأهم أذلها الطغاة المستبدون ، ولم يكن لها خيال تذب عنه .
كان النصر يحالفها . .

» أما حين تصطدم بأقوام معهم حرية . . ولهم خيال . . فقد كان
يتعذر عليها الفوز والانتصار »

أجل ، إن كل آفات النفس تستيقظ في الجماعة المغلوبة على أمرها ،
فتنفّر من كل فضيلة وتدبر عن كل واجب . ولعل هذا ما عناه الرسول
عليه السلام بقوله : « إذا وسد الأمر لغير أهله ؛ فانتظر الساعة » . .
أى إذا وضع الحكم في غير مكانه ، وسلم لغير أهله ، فانتظر الساعة
التي تدق معلنة إخفاق هذه الأمة ، ومذبة نعيمها . .

فمن هم المعنيون بقول الرسول « غير أهله » ؟ ؟
هم المستبدون الذين يأخذون الحكم من أهله . . من الأمة والشعب
حق حين يتلفعون بأردية زائفة من الديمقراطية المحرفة ، كما كان
فاروق يفعل في مصر . وكما يفعل إخوان له فيها حولنا من أمم وبلاد

هل تعلم أن خير ما يحفز الفرد إلى التحليق الرفيع ، هو الحماس والشوق ؟؟ وهما أيضا خير ما يحفز روح الجماعة ويشد زناد تفوقها .

ترى هل نتعم في ظل الاستبداد والظغيان بهذا الحماس الباعث ، والشوق الزاخر . . ؟

كلا . وإنما يحل بديل آخر عنهما — القنوط واليأس . واليأس يشتت سكينه النفس ، ويلأشى صمودها ، فتسقط غير مكترثة ولا مبالية . وإدراك هذه الحقائق هو الذي حدا بجميع الرواد والقادة والمصلحين . أن ينظروا إلى الاستبداد كعقبة ضخمة تعترض كل ما يريدونه للناس من خير وسعادة . . ليس فيهم رائد واحد ، واحد فقط تسامح مع الحكم المطلق ، مغتصب حريات الجماهير والجماعات . . ليس فقط من أجل السيادة السياسية . بل قبل هذا من أجل صيانة روح الأمة من بثور الرذيلة ، وقروح اليأس . وإن واحداً من أولئك الأفذاذ ليصور الأمر تصويراً مثيراً ذلكم هو « متزني » نبي الوحدة الإيطالية وفيلسوفها . . كان شعاره ، الحب . والحب . ثم المزيد من الحب . . . ١١

ومع هذا ؟ فقد سأله يوما مستر « توماس كوبر » الانجليزي ؛ عن سبب دعوته العنيفة وتوسله بالعنف والقوة لنضال الظغيان النمساوي . . ولماذا ، وهو الذي يبشر بالحب ، والحب ، ثم المزيد من الحب . لا يدع العنف جانبا . . ؟؟

إن إجابة « متزني » التي ستألق في السطور القادمة تمنحنا يقينا جديداً باستحالة قيام أخلاق فاضلة في أمة مضطهدة مستعبدة . . قال :

— « إن ما ترجوه منا يا مستركو بر يحدى فى وطنك ، فأنتم قاومتهم
الطغيان مقاومة عنيفة . وآباؤك قضوا عليه . وعندكم الآن مجلس نواب...
ولكم حقوق مكتسبة ، وقوانين معترف بها ؛ فلستم بحاجة إلى استعمال
الشدة واللجوء إلى العنف . وأنتم بأرادتكم الحرية تنالون كل شيء .

« أما نحن هنا ؛ فأنى لنا مثل ذلك ؟ !

« كيف نعمل فى هدوء والطغيان التمسوى جائم على صدورنا بحيشه
المثلث — الجواسيس ، والضباط ، ورجال الشرطة . ؟

« وكيف السبيل إلى التقدم التدرىجى فى بلاد محرومة من
الحرية ومن إبداء الرأى . وليس بها مجلس نيابى . . وجامعاتها
مستعبدة ؟ ؟ .

« وكيف السبيل إلى الإصلاح وكل مصلح فى متناول يد التنكيل .
وواصل « متزنى » حديثه الحق قئلا :

— « إن الدكاء يقضى عليه فى الطفولة . والشبان الناشئون يبيعون
يقينهم فى سبيل طلب السلامة ، ويبددون فضائل أنفسهم فى التشبه بدون
جوان »

إن عبارة « يبيعون يقينهم » نفيض تصويراً وتحذيراً . تصويراً
للاخضرار الخلقى الذى يحيق بالذين يفقدون حريتهم .. وتحذيراً للاخريين
حتى لا يفرطوا فيها .

أجل ، إن يبيع اليقين هو شرٌّ ما يمزق كيان المجتمع المكبل ؛
والمنفعة الدنيا هى القيمة التى تسيطر عليه . وبسهولة يتحول كل شيء

مقدس في الجماعة إلى سلعة تافهة تباع بأبخس الأثمان . كل شيء . ، يقين
الناس ، وأسرارهم ، ومصارهم ، وأمنهم ؛ فبالجاسوسية والأرغام يجhez على
كل هذه الحرمات التي ذكرناها . إجهازاً لا يعرف الرفق ، ولا يستجيب
للشرف . ويركب في الجماعة طبيعة سلبية تسلبها شيئاً فشيئاً القدرة
على الاكتمال .

في المجتمعات الديمقراطية ، تلزم عمليات الكشف والاستطلاع
حدوداً معقولة ، ويقوم بها بوليس عادى . . ولكي يذهب هذا البوليس
لتفتيش منزل ، لابد له من استئذان النيابة مثلاً . . أما حيث يحكم حاكم
مستبد ؛ فإن الجاسوسية تفتح كل مكان . ويتنشقها الناس في الهواء . ،
ويجدون طعمها فيما يأكلون وما يشربون . . . ١١١

في أيام الطغيان النازي ، كان معارضوه يستغنون عن تركيب أجهزة
التليفون . . في منازلهم رغم حاجتهم القصوى إليها . . وكانوا إذا
اضطروا لاقتنائها يغطونها بالبطاطين . . لأن النازي توصل إلى اختراع
جهاز يلتقط السمع عن طريق التليفون . ، حتى والساعة موضوعة فوق
حاملها . . (١١)

ولقد أفسد « هملر » الأسرة الألمانية إفساداً جمّاً ، إذ أسرف في
نشر مخبراته حتى صار له في كل بيت عين تتجسس له وترى . . كانت
الزوجة تتجسس على زوجها ، والولد على أبيه . وهكذا في كل مجتمع
مغلق . . كل مجتمع تحكمه مشيئة فرد أو أفراد لا تهيمن عليهم إرادة
الشعب ، ولا يحلق فوق رؤوسهم العنيدة الفارغة سلطان الجماعة .
أهناك سبيل لنشر الفضائل في قوم تعمل فيهم تلك الأثافي المدمرة ؟

لا — فالمجتمع الذى يسلب يقينه — كما يقول متزنى — لا يجد في ذات نفسه من المعرفة وسلام النفس ما يدعو للارتباط بالفضيلة ، والسير في طريق الرشاد .

إن الطغيان لا يتحدى الفضيلة ، وحدها . ، بل والأيمان أيضا . . ولقد رأينا كيف أفضى اضطهاد البيض لزنوج أمريكا ، ببعض هؤلاء الزنوج إلى الكفر بالآله إذا كان أبيض البشرية . . . ! ! !

بل لقد ذهب زعيمهم « ماركوس » ينفث في القارة السوداء كلها عقيدة جديدة اجتمع حولها وآمن بها كثيرون من السود وهذا نصها : — « إن دين البيض لم يوضع للزنوج . ولا يمكن إكراه هؤلاء على الاعتقاد بآله أبيض . . ومسيح أبيض . . وملائكة بيض . . ولذلك يجب علينا أن نستبدل بهذا الدين ديناً جديداً ، إلهه أسود . ، وملائكته سود . . » ! ! !

والآن ، أديروا أبصاركم فيما هنالك من أمم فأذا وجدتموها حقلاً بهيجا تترعرع فيه الفضائل الانسانية . وتزجى غيرها ؛ فاعلموا أن من وراء هذا التفوق الخلقى حكما ديمقراطيا راسخا رسوخا يشبه رسوخ الجبال . . ووراء ذلك حرية تملأ صدور الرجال . ومجتمعاً يسير على صراط وطيد من مشيئته الحرة ، وفهمه الثاقب ، وغزواته الصامدة المهيبة التي لا تهضم ولا تنال .

وإننا بعد استقراءنا المقروء ، لنستطيع الجزم بأن العامل الأكبر في مدّ التفوق الخلقى للمجتمع الانجليزى هو ظفره للتساوق بالحرية ، وحرصه عليها بصورة لا يكاد يكون لها نظير . . فبينما تعرض بلد ،

كفرنسا لهزات ضاغطة ومديدة من الحكم المطلق الذى قام على السفك والتدمير رغم ثورتها الكبرى من أجل الحرية . . نجد الانجليز قد أخذوا على عاتقهم ، وفى وقت مبكر جداً أن يلزموا ملوكهم وحكامهم حدوداً أقاموها لهم ، وجعلوا كلمة الأمة ، هى القانون وهى الدستور . . . فى عام — ١١٩٩ — أراد الملك « حنا » أن يستبد ، ويمنح للحكم المطلق ، فقام الشعب كله ، ريفاً ومدناً . فلاحين وبارونات ورجال دين . وردوا « حنا » إلى صوابه الآبق . وكتبوا وثيقة العهد الأعظم . . وفى مادته التاسعة والثلاثين سطروا بحروف من نور وعزم .

— « الرجل الحر لا يقبض عليه ، ولا يسجن ، ولا يجرد من ممتلكاته ، ولا يهدر دمه ولا ينفي ، ولا ينال بأى ضرب من ضروب الأذى إلا بناء على حكم صادر من أسويائه على مقتضى قوانين البلاد . » من ذلك اليوم البعيد جداً ، والناس فى معظم الأرض يكرهون على الاعتراف بالنار والسيوف . كان المجتمع الانجليزى يحاكم الخطيئة أمام هيئة من القضاة والمحلفين . وكان دستوره هذا العهد الأعظم الذى قرأنا الآن إحدى مواده . . . ١١١

إننى أبصر المنبع الدافق لعظمة الخلق الانجليزى — ومعدرة للذين لا يرون الأخلاق إلا تحريم النظر للمرأة ، والاختلاط بها ، وحظر اللهو والشراب ؛ فالانجليز بهذا المعنى قوم لاختلاق لهم ولا أخلاق . . . ١٢٠
أقول : إننى أبصر المعين الثرى لعظمة نفوسهم وأخلاقهم ، كما وقعت عيني على نصوص ذلك العهد الأعظم ، ثم كلما زاملت الروح المصمم المستبسل الذى نفذ به الانجليز عبر التاريخ الطويل نصوص ذلك العهد

الذى ظل يتطور وينمو حتى استمتع الشعب هناك بحرية لا وجود لمثلها اليوم في أى مكان آخر في العالم . . .

انظروا كيف تختم نصوص العهد على لسان الملك :

— « . . وإذا لم يتم تصحيح ما عساه يقع من مخالفة . أو إذا لم يتم قاضى القضاة بذلك في حال غيابنا خارج المملكة . في مدة أربعين يوما من تاريخ إبلاغ ما وقع من مخالفة إلينا . أو إلى قاضى القضاة في حال غيابنا خارج للملكة . ، يكون من حق البارونات الخمسة والعشرين ، ومن حق جميع الناس بالمملكة أن يحجزوا ويضيقوا علينا بكل الوسائل الممكنة . وذلك بمصادرة جميع قصورنا ، وأرضينا ، وسائر ممتلكاتنا

حتى يتم تصحيح ما وقع من مخالفة » . . ١

منذ متى كتب ذلك العهد يا قومنا ؟

منذ ثمانية قرون . وكما يقول « فيشر » فى كتابه تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى : - « إن موضع الأهمية هنا أن طاعة الدستور على الصورة التى تمخص عنها العهد الأعظم ، ظلت ماثلة فى العقل الأنجليزى . جيل بعد جيل . . »

لولا أن يخرج الكتاب عن غرضه وموضوعه ، لعرضت عليكم بعض المشاهد الباهرة للولاء المطلق الذى صان به الأنجليز حريتهم خلال القرون . . نغذوا عنهم العظة والدرس . ولنذكر جيداً ، أنه لا أمل لمجتمع ما فى أن يظفر بأخلاق كرملة أو حياة بهيجة إلا بعد أن يقرّ فى أعماق وعيه ولاء دينى للديمقراطية وللحرية وللدستور . وإلا بعد أن

يتوطد نظام الحكم فيه على أسس لا تنتقص من إرادة الشعب وإرادة الحق . .

لا مقام للفضيلة في بلاد يسوقها طاغية . .
لا أخلاق للبلاد التي يستطيع رئيس حكومة فيها أن يلغى في شهر واحد ستا وأربعين صحيفة ومجلة . . ويسرّح الأحزاب بكلمة واحدة تخرج من بين شفثيه المدلتين . . ويغتال السجناء داخل سجون الحكومة برصاص الحرس الحكومى في عهده السعيد . . . (?) كما حدث فعلاً منذ قريب في بلد عربى شقيق . . .

إن الحكم الديمقراطي هو كما ذكرنا « للناخ » الأوحده للفضيلة ومكارم السلوك . وكل انحراف في تطبيق الديمقراطية ، يزامله انحراف في سلوك الجماعة وحينما نرسل البصائر والأبصار ، تعود هاتفة بصدق ما نقول

اضرب لهم مثلاً :

ونستطيع أن نأخذ من واقعنا عبرة ومثلاً . فالعبرة قد تردع الهوى والمثل يشحذ الانتباه . ولئن نكون بحاجة إلى الأبطال في ماضينا البعيد . بل حسبنا أن نسير في دروب تلك الفترة الأخيرة التي عاصرها ، وعشنا في دوامتها العاتية . فقبل « ٢٣ يوليو » كان طغيان الحكم المتمثل في الأسرة العلوية السكرية ، وفي سدتها وأشيعها ، يلقى على ضمير الأمة من الرزايا والسوآت ما لا طاقة لها به ولا احتمال . .
ولكى تزيد لنا الأمثلة إيماناً بأن الفضيلة في ظل الطغيان تهوى ، والريذة ترتفع ، فلنشاهد في سرعة بعض هاتيك الملامح والصور .

قلنا : إن كلمة الحق ، الكلمة الصادقة الشريفة هي ألد أعداد-
 المستبد ، فلننظر صدق هذا في أول حكام أسرة محمد علي وفي آخرهم . .
 كان السيد « عمر مكرم » مجاهداً بأسلا شريفاً ، أعطى وطنه من
 عقله وقلبه ونضاله في بذل وسخاء . وكان « محمد علي » يثق به ثقة
 مطلقة . كان يحبه ويقده . وبفضله تسلم حكم البلاد . وكان عمر مكرم
 قادراً على أن يكون ما يشاء — جاهاً ، ومالاً ، ونفوذاً . . ولكنه
 وقد رأى طغيان الوالى الجديد تيهياً للظهور ، وأخذ الخوف على
 مستقبل أمته وبلاده من عواقب ذلك الطغيان ، فقد وقف كالطود
 مسنداً ظهره إلى كل محاولات آبائه ضد الطغيان . وخرجت الكلمات من
 فمه في بسالة ووثوق لتقول لمحمد علي : إنك تتحول إلى طاغية . . .
 — إنك تضع الشعب في جيئك ، كما لو كان المنديل الذى تجفف به-
 معاطسك

كانت هذه الكلمات الطاهرة ، هي الحق الذى يجب أن يعلن .
 والفضيلة التى تميز نوع زمانها ومكانها . . ولكن الوالى الصالح « محمد علي »
 غضب على الحق ، وعلى قائله فأوغل في مطاردة « عمر مكرم » وأقسم
 « ليملأن بطنه جوعاً »
 ونسرع مع الأيام لنجد آخر ملوك الأسرة وطفاتها يمثل نفس
 المشهد

فذاك يوم كلنا نذكره ، دب في نفر من رجال مصر ديب الواجب ،
 وكتبوا للملك الذى كان صالحاً (١) عريضة تهيب به أن يساعد الأمة
 التى لم تسيء إليه ولا لآبائه ، على الخلاص من الأخطار التى تهددها . .

فانتفضت أوداج « فاروق » وأمر أحد « الأغوات » أن يبالغ الحكومة
رغبته في تشريد هؤلاء الزعماء الآبقين ، ضاربا الذكر صفحا عن
كل ما قدمه بعضهم إليه وإلى عرشه من خدمات كادت تعصف
بحياتهم يوما . .

ولكن ، كيف يقذفون في وجهه الدسم بكلمة الحق . . وحدث
ملا يحدث إلا في الأحرار والغابات . . إذ فوجيء الرأي العام بكل
هؤلاء السادة يطردون من مجلس الشيوخ طرداً مهيناً . .

وهكذا نجد الجبر بالحق وهو ضروري لتربية الأمة تربية خلقية سديدة
— عملة زائفة محظورة التداول في عصر الطاغية — أي طاغية — لأن
السوق يجب أن تتسع فقط لعملته الرديئة من كذب ونفاق وخنوع .

أعيدوا تلاوة ما كتبه « سافونارولا » عن طبيعة الطاغية ، كيف
يسرق الأراذل والأيتام ويظلم الشعب . ؟ كيف يقتله الشك فيصطنع
الجواسيس في كل مكان . . ثم طبقوا هذه الكلمات على الأمس القريب .

ستجدون ملكا كان له سميت الملائكة بدأ — يوم بدأ — وكأنه
قدس طهور . ثم مالبت الطغيان الذي تقمص سلوكه وحكمه أن حوله
إلى خنزير . . وإلى لص . . وإلى رئيس لفرقة ضالة من السامرة
والجواسيس

وأعيدوا تلاوة ما كتبناه عن أثر الطغيان في إفساد القدوة عن
طريق الرغبة ، أو عن طريق الرهبة . وكيف أن الطاغية لا يطيق أن
يرى مثلاً أعلى يخفق فوق بلاده في صورة بطل أو زعيم .

ثم انظروا صدق هذا فيما كان يحدث قبل أن تفتك الأمة بالعرش الرحيم .

لقد ظل طغيان القصر يكيد ويمكر حتى اضطر زعياً قويا عنيداً أن يتوجه إلى « كبرى » في خشوع العابدين . . واضطر أديبا رائداً أن يعجد في شغف « سلوكك الشخصي يا مولاي » . . . ١١٩٩

وأعيدوا تلاوة ماسطرناه عن تحدى الطغيان لكل فضيلة ، وعن إشاعته روح النفاق واللق والخداع في الأمة ، ثم استعيدوا من واقعنا القريب بعض صوره ، وانظروا كيف كان النفاق والخداع يسودان . . ؟ فحمد على لم يكن غريباً نزع إلى مصر لأن الإسلام هو وطن المسلمين . . وهو كسلم حلّ أهلاً ، ونزل سهلاً ، وحمي إخوته المسلمين وعشيرته المؤمنين من الجور والطغيان . ١١١٠ هكذا كانت الألسنة الطاهرة تقول للناس . . .

وفاروق لم يكن يسرق . . بل كان يتبرع . وكما قلت لكم في كتاب « الديمقراطية . . أبدا » كان في مصر من الصحف ، ومن الزعماء ، ومن الأدباء ، ومن الكبار والصغار من إذا تفل الملك الصالح قالوا « تفضل حفظه الله وبصق » . . . ١١١١

ولست أذكر هذا لألوم من فعلوه ، بل إن الملامة لتضعف حجتى . وإنما أذكره تذكيراً لرأينا السالف ، وهو أن الطغيان يكره الناس على رذائل قد لا يريدونها . . . ويطبّع الجماعة كلها بسلوكه ومثالبه . ويحولها إلى شيطان أحرص حين تسكت عن مظالمه ، أو شيطان ناطق حين تزخرف الباطل وتدافع عن غرور الطاغية وصلفه وفجوره

ولقد بلغت الأمور بالناس في تلك الأيام للتعمة أن صار من حسن الحظ ألا يكون لأحدهم أم جميلة ، أو أخت وسيمة ، أو امرأة حلوة . . . لأن الملك « الأناني » كان في هذه المسئلة وحدها « غريبا » لا يبارى . ، ومن يدري ؟ ؟ فلعله لو طُل به العهد بيننا كان يصدر — حفظه الله أيضا — مرسوما بتأميم الأعراض . . . ١١١٠

إننا لا نعدّد مساوئ ملك غاب وذهب ؛ فقد كان من فضل الله علينا أن فعلنا ذلك في أوانه مع الدين فعلوه غناطين . . . ولكننا نبرهن على صلة الطغيان بالأخلاق من واقع حياتنا الذي لم ينس بعد . . .

قلنا إن الطغيان يلجئ الجماعة إلى السلبية ، ويجعل « اللامبالاة » من عادات سلوكها الراسخة المقيمة . . . ولن نجد فردا ، ولا جماعة تقود السلبية حياته أو حياتها ، إلا ألفت مأساة مفردة . . .

وإن معنا من اليقين ما يجعلنا نقول : إن الطغيان الطويل الذي تواكب على أمتنا والذي نرجو أن نظل مصممين على عدم عودته . . . هذا الطغيان قد ترك في نفسية شعبنا سلبية موعلة مستوطنة وسوف يحتاج إلى سنين عددا نطلق له فيها الحرية إطلاقا كاملا ونستجيش خصائصه الأولى . وقواه الحية استجاشة دائبة ، لكي نستطيع أن نهزم السلبية الجماعة على كيانه ونمتص منها العافية والحياة . . .

إن حريق القاهرة ، كان واحدا من عشرات المظاهر لسلبيتنا المضحكة المفجعة . . . قوم عجزوا عن أن يحرقوا قيصريهم . ؟ فذهبوا يحرقون أنفسهم . . . وصحيح أن الذين اقترفوا مأساة الحريق كانوا نقرأ معدوداً . ولكنك كنت تبصر حول هؤلاء النفر حشودا هائلة من الجماهير

لا تتحرك . كأن هذا الذى تأكله النار ليس مستقبلهم وحياتهم . . . ! ! !
ولكن . . .

ما على من لا يطيق يرى — نور الوادى أو اكتشا
وأيا . . .

لا أذود الطير عن شجر — قد بلوت المرموت ثمره .
هذا هو منطق «لا شعور» الأمة المغلوبة على أمرها دوما . . ولقد كان
— أيضا — منطق « لا شعورنا » والقاهرة تحترق . . .

لماذا ندافع عنها . . ؟ كم حجرا نملكها فى تلك القصور التى تتداعى . ؟
كم قرشا سناله من البنوك التى تحترق . ؟

والوطن . ؟ ماذا يعيننا من أمر مستقبله مادام ليس وطننا لنا . ؟
مادام لا يمنحنا القوة ، والسلام ، والعدل ، والحرية . . ؟

أجل ، هذه هى الفلسفة الواعية التى أوحى بها « اللا شعور »
المنخم بالمأسى إلى وعينا يومئذ ، فوقنا من الحريق كما لو كان مهرجانا
يطلق صواريخه الفرحة البهيجة . . . ! !

ولقد حدثتكم عن الأشاعة التى تفسد فى الناس حين تروج ، ملكة
الأدراك وتشوه جمال الحقيقة ، وتدفع الناس إلى الضلال والأفك زاعمة
لهم أنه الهدى والفلاح . . فهل يعجزنا أن نجد مصداق ذلك فى تلك الأيام . ؟
كيف ؟ وهل كانت مأساة فلسطين إلا إشاعة . . ؟ ؟ ؟

لقد أراد الطاغية أن يذسى الأمة مبادله . ، أراد أن يستنزف طاقتها
التربصة ، فى غرض بعيد عنه . ، وأراد سوقا دنسة يستطيع أن يثرى
فيها إزاء يليق بجلاله وجلالته . . . !

فليلق في روع الناس أنه « حامى حى العروبة والاسلام » وليخاطر
 - دون استعداد وجد - بجيش البلاد وممعتها وشبابها ومالها . .
 واقرعى يا طبول . . .

فاذا الشعب كله يؤمن بصدق الأكذوبة ، وجدية الفكاهة . حتى
 إذا وقف من بين الملايين الخدوعة رجل واحد فقط هو « إسماعيل صدق »
 ليقول لنواب الأمة وشيوخها « تمهلوا وترووا ؛ فأنكم ذاهبون إلى
 مقامرة باطلة » بيدو بهذه الشجاعة الفائقة ، جباناً ونذلاً وخائناً .
 وهكذا تفعل الأشاعة دائماً . . تحجب الحقيقة عن الناس فلا يرونها .
 وهى كما قلنا العادة السرية للمجتمع المضطهد . ومن ثم فهو يعشقها
 ويهواها ويرى الحقيقة وقحة وثقيلة . ؛ فيعرض عنها ويأبأها . . ١١
 وقلنا إن الطاغية يدنس جميع القيم الفاضلة والسامية . فلننظر كيف
 شوّه طغيان القصر جمال الحرية ، ووضاعة الديمقراطية فى بلادنا .
 لقد رأى فى الحياة النيابية قدراً يقرع أبواب مصيره ونهايته ؛ فعمل
 فى مكر وخبث لأفسادها حتى نكرها ونكفر بها . . ومن ثم يستطيع
 التخلص منها فى يسر وهذوء . « ١١ »

هنالك توغل فى الأحزاب فقسّمها على ذواتها ، وأفسدها . وشد
 أزر الأقطاعيين وكبار البرجوازين ليغزوا البرلمان ويوجهوا سياسة
 البلاد . وحرض على تزييف إرادة الأمة . . ودنس الدستور نفسه إذ جعله
 داراً لجرائمه ، وبرفاناً لعدوانه وطغيانه .

لم يكن للدستور جريمة ، ولا للحياة النيابية ذنب ، ولا للديمقراطية
جريمة . . ولكنه الطغيان يدنس كل طاهر . ، ويطمس كل ظاهر . ،

وَيَمْتَنِ الحق ، وَيَحْتَرِمِ الباطل . وَطَى أَنْقَاضَ حقوقِ الإنسانِ يَشِيدُ هَرَمًا
بِأَذْخِا لِحَقُوقِهِ هُوَ . وَامْتِيازاتِهِ هُوَ .. أَمَّا الْجَماعَةُ . ، أَمَّا الأُمّةُ ؛ فَيُعِيدُ
إِحْسانَهُ ، وَالمُتَمَتِّعُونَ بِشَرَفِ غُطْرُستِهِ وَطُغْيَانِهِ . ١١

أَلَا إِنَّهُ لَدَرَسٌ بِاهْظِ التَّكاليفِ . وَيَجِبُ أَنْ نَحْذِقَهُ وَلَا نَنْسَاهُ . .
وَإِنْ هَذِهِ الأُمّةُ الَّتِي مَارَسَتْ مَعَ الطُّغْيَانِ تَجْربَةً شاقَّةً ، لَتَسْتَطِيعَ أَنْ
تَمَارَسَ مَعَ الحُرِّيَةِ تَجْربَةً رَغِيدَةً وَنافِعَةً . . وَالزَّمامُ اليَوْمَ فِي يَمِينِهَا . وَنُقْطَةُ
الْبَدءِ أَنْ نَنْظِفَ مَجْرَى النِّهْرِ مِنْ جَدِيدٍ . ، نَهْرَ شَخْصِيَّتِهَا . وَسُلُوكِهَا ،
وَتَطَوُّرِهَا .

وَكَما جَعَلْنَا الحُطْوَةَ الأُولَى لَتَكُونِ الْفَرْدُ الأخْلَاقِي تَحْرِيرَهُ مِنَ الخَوْفِ .
فَكَذَلِكَ يَبْدَأُ تَكْوِينُ المَجْتَمَعِ الأخْلَاقِي بِتَحْرِيرِهِ مِنَ القَهْرِ .

وَالآنَ ، وَنَحْنُ نَرْجُو أَنْ يَكُونَ قَدْ وَضَحَ أَثَرُ طُغْيَانِ الحَكِّمِ فِي وَقْفِ
النَّمُو الحُلُقِيِّ لِلْجَماعَةِ ، نَنْتَقِلُ إِلَى طُغْيَانِ آخِرٍ لَا يَقِلُّ عَنْ أَخِيهِ سِوَهُ أَثَرِ
وَعاقِبَةٍ ، بَلْ قَدْ يَزِيدُ . . لِأَنَّهُ طُغْيَانٌ يَفْرِضُهُ المَجْتَمَعُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَيَقِيمُ لَهُ
الشُّعائرَ وَالنَّاسِكَ . وَمِنْ هُنَا لَا يَفْكَرُ فِي الخِلاصِ مِنْ أَسْرِهِ وَأَصْفَادِهِ . . ١

الواجب .. لا القوة

« يقول السيد الرب ، أنا لا أسر
بموت الشرير . ، بل بأن يرجع
الشرير عن طريقه ويحيا . . »
- المسيح -

في هذا الفصل

- حدث خلال القرون . . .
- الاستعمار الداخلي
- البيت
- المدرسة
- الجزء الاجتماعي
- الرأي العام
- ماذا نعى بالواجب ؟ . . .

مرت فحول القرون . .

خلال تطورنا الانساني مررنا بمراحل وظروف زرعت فينا حيننا
إلى القوة وطلب الحماية . . لسنا وحدنا . . بل جميع أمم الأرض .
ولا نكاد ندري كنه هذه الظروف تماما . ، أو لعلنا ندري . .
فالإنسانية في أيامها الأولى الحامية ، كانت شديدة الشعور بالضعف
وبالخوف مما بين يديها وما خلفها وما حولها .
كانت تخاف الرعد والبرق والمطر والرياح والوحوش والظلام
والجهول . .

وكنا ، أو بالأحرى كان آباؤنا أولئك ، يسهون الطرف الوجع
في الأفق الأعلى . . أليس تمت شيء يحرسنا . . شيء يحمينا ويهديء
روحنا . . ؟؟

ويجيبهم زفير الفضاء مدمماً عليهم بمخاوف جديدة .
ومع هذا ؟ فقد كان في أعماق وجودهم صوت يهيب بهم ! تقدموا . .
سيروا على أشلائكم . ، خوضوا وسط مخاوفكم . . ذلك صوت قانون
عظيم لم يكونوا يومها يعرفونه ، ولقد عرفناه نحن اليوم . إنه قانون
الواجب . .

ولندع الواجب الآن ريثما نعود بالحديث إليه . ولننض مع القوة لترى
كيف تغلغلت في وجداننا الناشئ البعيد .

ترنح آباؤنا إذ ذاك قرونا طويلاً تحت ضربات القوى المجهولة .

واستحوذ عليهم شعور نام عريق بأن اليد التي تمتد لمساعدتهم وحمايتهم ،
تكون صاحبة فضل عظيم . ١١

فاذا ظنوا الشمس القوة التي تدمرهم إذا سخطت وتحميمهم إذا رضيت ،
لاذوا بها ، وتبتلوا لها . . . واتخذوها إلهاً . . . وغير الشمس من قوى
الطبيعية وظواهرها ، حتى الحجارة . . . ؟ فقد كانوا ينشئون منها معبدا ،
وينصبون داخله إلهاً خلقوه بأيديهم ، ثم يبعثون في أنفسهم اقتناعا بأنه
القاهر فوقهم ، المسكن روعهم ، المبرم لهم جميع الأمور . . . ١١

طالما شعروا من قبل بهوة تتعاضد مجتازها . . فراغ هائل موحش
يفصل بينهم وبين سر هذا الكون للتعاضد المهيّب . ومع الأيام بل القرون
كان هذا الفراغ يزداد جثوما وعمقا وتوغلا . . حتى جاء اليوم الذي
لا بد من ملئه ولو بأكذوبة . ، ولو بوهم . . ولا يزال لهذا الفراغ
بقايا رغم الذي حدث . .

ولكن ماذا حدث ؟ ؟

ليس الكتاب الذي في يدك كتاب تاريخ . وحسبك ما تعلمه من تلك
الأطوار التي صعد خلالها تاريخ الإنسان خلقاً من بعد خلق ، وطورا
من بعد طور حتى جاء عصر الاستعمار السياسي الذي يشمره الغزو ورغبة
الأمة الغازية في سلب الأمة الجاثية . . وكان من أهم الأسباب النفسية
للمهدة له بين الشعوب المغلوبة ذلك الشعور الدفين في أعماق الناس .
الشعور بالحاجة إلى ملاذ يكون أكثر قوة وأشد بأساً ، لتستقر في
كنف قوته وجبروته مخاوفنا وتطمئن هواجسنا . . وليس أدل على ذلك

من أن الاستعمار في يومه البعيد كان أملاً يسعى إليه ، ورجاء تشد إليه
الرجال . وكان الضعفاء يدعون الأقوياء لاستعمارهم واستثمارهم نظير
حمايتهم ، . وأنتم تعرفون أنه من هنا نشأ الأقطاع . . . ١١
الحنين إلى « القوى الذي يحمينا » هو إذن أمر تقليدى أو يسكاد
يكونه . صاحبنا منذ نشأتنا الباكرة ، ووجودنا الأول . . . ولكنه في
صورته المهترئة الملوغ ، للستسمة . . صفة البدايين للوغلين في القدم ،
الذين كانوا يتسلقون الأشجار ، ويسكنون الجحور . . . فقد مضى الانسان
يتخفف من أثقال هذه الحاجة رويداً رويداً . لأن قانون الواجب كان
يستيقظ في وجدانه كذلك رويداً رويداً . . . وكما استيقظ منه جزء ،
زحف على جزء من التعبد للقوة فمحاه وأخذ مكانه .

ما النتيجة التي نريد بلوغها . . ؟ ؟

هى ذى . . الأمم التي نبصرها اليوم شديدة التعبد للقوة ، دائمة
التوسل بها لتنظيم مجتمعيها ، أمم غير نامية ، ووجدانها المعتم غاص
برواسب ماضٍ سحيق تحررت منه تلك الأمم السباقة التي زحف الأحساس
بالواجب على وجدانها فمحاه آية القوة أو كاد . . .

ولقد صار مقياس تقدم الجماعات والأمم موسوماً بتفوق خضوعها
لِلواجب على خضوعها للقوة . بل إن التقدم الأنسانى كله صار اليوم رهنا
بما يبذله من سعى حثيث للنأى عن القوة والسير في موكب الواجب .
الواجب نحو أنفسنا ، والواجب تجاه غيرنا . ويسكاد عمل الإنسانية
للعاصرة ينحصر في مواصلة الكشف عن قانون الواجب ، وإذكاء روح
الأخلاص والمهارة في تطبيقه واتباعه .

أعسير علينا أن نأخذ مكاننا بين صفوف القافلة الراحفة المتحررة.
من أنقال ماضيها ؟ ؟

إنه لسواء أن يكون الأمر يسيراً أو عسيراً ، هيناً أو صعباً ؛ فلا بد
منه إذا أردنا أن نتطور وننمو . بيد أن الإيمان بيسره وإمكانه يشد
زناد الأقدام والسعى ، فلنفي على أنفسنا هذا الإيمان . ولسنا بحاجة إلى
أن نخدع ذواتنا ، ونستهويها بوسائل الأغراء والأيهام لكي نطمئن إلى أن
السير في الطريق التي ذكرنا ، أمر لأمشقة فيه . فالحق أنه كذلك فعلاً .
أجل ، فكل سلوك يوائم طبيعتنا ، ولا يعارضها ، ويعبر عنها ،
ولا يتجدها ، ويقوم على تعليتها ، لا على تحطيمها . يكون سهل للنال
ميسور الأخذ . . ، فهل إرباء الواجب على القوة من هذا النوع ؟ ،
هل هو محاولة ضد طبيعتنا الإنسانية أم في سياقها ؟
ألا إنه ليس يسير في سياق الطبيعة فحسب ، بل ويعبر عنها تعبيراً
لا بد منه .

فالواجب ، كما يقول الفيلسوف - جويو - : « فيض في الحياة
يريد أن ينفق . وهو لا يأتي عن إكراه أو ضغط خارجي . . إنه تعبير
عن قوة طالحة تظهر إلى الخارج في حب وغيرية » . . .
ونعود إلى أنفسنا - نحن سكان هذه الرقعة من الأرض - مصر
وما حولها . . ما حظنا من الرواسب المضيئة التي تجعل إيماننا بالقوة أرجح
من إيماننا بالواجب ، وتجعل استجابتنا للقوة أكثر من استجابتنا
للواجب ، هذا إذا كان للواجب في حياتنا السلوكية مكان . ؟ ؟
ولسوف نجد حظنا منها - أعنى تلك الرواسب - وافيًا موفوراً . .

وهى ليست فقط بقية مما خلفته البشرية الأولى فى وجدان الإنسانية وضميرها ؛ فنصينا يزداد عن هذه البقية ازدياداً متناسباً مع الظروف التبعة التى نجامها الآخرون ووقعنا نحن بين أنيابها ومخالبها . ، وتتلخص فى الاستعمار . . .

لقد وقعت بلادنا تحت ضربات موصولة من غزو متتابع . ونحن حتى هذه الساعة لا نزال ننفذ عن معاصمنا قيوده وأغلاله .

كم هو طويل وعديد خيطهم الذى يتخلل نسيج حياتنا حتى اليوم . (١)
فن فرس إلى يونانيين ، إلى رومانيين ، إلى أويين فعباسيين ،
فطولونيين ، وإخشيديين ، وفاطمين ، وأيوبيين ؛ فماليك ، وعثمانيين ،
وفرنسيين ، وإنجليز . . . ١١١

كل هؤلاء مروا بنا ، وليس فيهم من لم يستقبله آباؤنا بالحفاوة والبشر . لأن كل غزو قادم كان يمثل أملاً جديداً فى الخلاص من مظالم الغزاة الأقدمين . . وهكذا أذكت الممارسة الكثيرة لهذه العادة الحنين الموروث عن البدائية المقرضة . الحنين إلى « القوى الذى يحمينا » ١١١ !
وكان هذا أملاً من عوامل استبقاء الإيمان بالقوة والاعتماد عليها .
وليس ذلك فحسب ، فقد كان كل غاز يحميئنا حاملاً تقاليد ، وسلوكه ، ومذاهبه . ومهما يذكر عن تلاشى الحضارة الظافرة فى الحضارة المنهزمة ،
فأن الأمر بالنسبة لنا كان مختلفاً إلى حد كبير . ربما لأن الغزو لم يكن واحداً يذوب فينا ونذوب فيه . بل متكرراً ، ومتعاقباً . . كان كليل الشتاء ، طويلاً بارداً . فلا نكاد نفيق من استعمار حتى ينالنا استعمار غيره . ، ولا نودع غازياً إلا على قرع طبول غازٍ جديد . . ١١١

لم نجد الفرصة إذن لأنضاج ذاتيتنا . ، وللتطور المنبثق من جماعة مدمومة الشمل ، موحدة الليل ، تدفع كرة حياتها في تناسق وتعاون وإدراك مشترك لوحدة الهدف . وإذا كنا ننسل اليوم من آخر أ كفان الاستعمار الذي لبث فينا قرونا ؛ فينبغي ألا يعزب عن وعينا مدى الانطباعات التي تركها فينا والتي نعالج منها في هذا الفصل أهمها وأخطرها على سلوكنا وأخلاقنا ، ويتلخص في هذه العبارة : « القوة . . لا الواجب ! ! »

إن استعماراً آخر أكثر ضراوة من الاستعمار الراحل ، أو الاستعمار الأجنبي السياسي يحتل كل أركان حياتنا . وقواه مبعثرة في نفوسنا بشكل يدعو لليقظة والعمل الحاسم الفاعل . ، وهو أكثر ضراوة وأشد تنكيلاً لأنه لا يلبس ثياب الاستعمار ولا يحمل أسلحته . ، ومن ثم فهو لا يثير من الضغن والتحفز والهجوم عليه ما يثيره الاستعمار الآخر المنظور . . إنه لا يحتل مدائن ، ولا يسير في شوارع فنلقاه ونحاربه . بل هو يتمص أجسادنا وأرواحنا ويسير في دماغنا ، في ثقافتنا ، في وجدان الجماعة وإرادتها وإدراكها . ذلك الذي نسميه :

الاستعمار الداخلي . .

ماذا نعى بالاستعمار الداخلي ؟؟

إننا نعى ذلك الحجر المضروب والوصاية للفروضة علينا في الأسرة ، وفي المدرسة ، وفي المجتمع . نعى الرغبة الراسخة في التسلط ، والاستعلاء ،

وإلقاء الأوامر التي يجب أن تمثل وتطاع . . وبعبارة موجزة نعني
« التربية عن طريق القوة » . .

إن في تربيتنا تقصاً أساسياً شاملاً ، ونعني بكلمة « أساسى » أنه
صميمى موجود وراسخ في صميمها ، ومتخلل نسيج كيائها . . ونعني
بالشمول كافة أنواع التربية ومسالكها . . تربية البيت . . وتربية المعهد . .
وتربية المجتمع . .

فنحن جماعة نعتمد وسائل التربية والتعلية فيها على مبدأ مقدس ملتزم
هو « لا تفعل » . .

ولقد تناولنا جرأً الاعتماد على الحظر والتحريم في كتابنا « هذا . .
أو الطوفان » . . بيد أننا تناولناه هناك من زاوية الدين . أى كشفنا
عما يفرض إليه الأسراف في استعمال الحظر الدينى من انحذار وأنهيار . .
ونريد هنا أن نتناوله من جانب التربية العامة والسلوك الاجتماعى اللذين
يقومان على أساس باطل وفاشل من القهر والحظر . .

هناك في كل مكان وشارع من المدينة ، تقع عينك على كلمات مسطورة .
قد لا تثير اهتمامك ، ولا تنادى خواطرك . لكننا هنا سنستسمحك في
أن تدير عليها خواطرك ، وتركز حولها انتباهك قليلاً . .

انظر . ، هذه اللافتات التى تجدها في قاعات المحاضرات ، أو صالات
دور الفن من مسرح وسينما ، أو داخل مكاتب دواوين الحكومة ،
أو في أى مكان يضم مناسبة من المناسبات التى تقضى النهى عن شئ . .
ستجد هذه العبارات « لاتدخن » أو « ممنوع التدخين » - « لاتبصق »
أو « ممنوع البصق » - ستجد أيضاً « ممنوع الدخول لغير الموظفين » .

دع هذه الظاهرة لحظات . . وتعال إلى ظاهرة أخرى .
— هذه الأوامر والنشورات التي تصدرها الحكومة — أى حكومة
طبا . ، والشركات ، والمؤسسات لموظفيها . . ستجدها جميعاً تنتهى بعبارة
تقليدية هي « والحذر من الإهال » أو « ومن يخالف يحدث له كذا ،
وكذا » أو « وقد أعذر من أنذر » . . . ١١١

وتعادر هذه إلى ظاهرة ثالثة في البيت فنجد أكثر من تسعين في المائة
يصدرون لأبنائهم الأوامر مشفوعة بالتهديد بالعقوبة إذا خالفوا
أو فرطوا . .

هذه الظواهر العارية تعطى صورة سريعة عن روح التربية والسلوك
في مجتمع يسكاد جميع أفرادها يتحولون إلى أدوات نهى . . وأدوات
تعذيب . . . ١١١

في سويسرا — مثلاً — لا يكادون يستعملون عبارة « ممنوع » .
فحيث تقرأ هنا في حداثتنا « ممنوع قطف الأزهار » ، تقرأ هناك
هذه العبارة : « هذه الزهرة في يدك تكون لك وحدك . ولاكنها في
مكانها تكون للجميع » . . . ١١١١

انظرا ، إن الفارق بين عبارة « ممنوع قطف الأزهار » والعبارة
الثالثة في حداثتي سويسرا ، يمثل في صدق الفارق بين المجتمع السويسري ،
والمجتمع المصري . . والعربي .

بين مجتمع تخلت القوة فيه عن مكانها للواجب . ، وآخر تخلى الواجب
فيه عن مكانه للقوة . . .

وحدثني صديق زار « لندن » وفي أحد أنديةها الليلية وجد العبارة

الآنية مسطورة فوق إحدى اللافات : « إذا كنت من هواة وضع أعقاب السجائر في فنجال القهوة ؟ فأخبرنا لكي نخضر لك القهوة في طقطوقة « السجائر » ١١١

والألزام والأكرام المتبدين في ظواهر حياتنا ليسا عرضاً طارئاً . بل عرضاً مزمناً لعلّة مزمنة وآفة لابتة مقيمة . وهذه الأعراض تنتشر على وجه المجتمع كالبحور ؟ فتراها في كل أشياء . في سلوكه ، وفي تربيته ، وفي ثقافته ، وفي تشريعه .

فهل يصلح مثل هذا المناخ لتربية أمة تربية سوية راسخة ؟ ؟

أم أن الجهود المبذولة في خلاله لا يمكن في أنقى ظروفها أن تمنحنا أكثر من زخرف وألوان ؟ ؟

أجل ، إنها لا تمنح أكثر من الألوان والزخرف .. وشجرة الحنظل لاثمر الكثيرى .. والمجتمع الذى تنطلق دواعى سلوكه ، وحوافز تعليمه وتربيته من الأكرام والخوف ليس أكثر من شجرة حنظل مريرة الثمر والظلال ..

ذلك أن القوة الزاجرة الراجعة حين تصير سياسة دائمة للبيت ، والمدرسة ، والمجتمع فأنها لا تلبث أن تخلق ذلك الذى يسميه علماء النفس بالسلوك القتالى . .

أجل إن « السلوك القتالى » هو الهدية التعسة التى يهديها الإرهاب

للفضيلة . . ١١٠

وهو الثمرة المحتومة لأرباء القوة على الواجب في تقويم الجماعة . والطامة

الكبرى هي كما قلنا من قبل في شيوخ هذا السلوك وتحوله إلى نهج عام للمجتمع ..

فنحن عندما تفرض علينا من البيت طاعة سريعة ضارعة مشفوعة عند ترددنا بضرب مبرح وقسوة لاحقة ، يسبب ذلك جنوحاً في سلوكنا ، وانحرافاً في طبيعتنا .. بيد أنه إذا كانت المدرسة حافلة بالبر والحنان ، والمجتمع تشيع فيه روح الود الخالص ، والتقبل السمج ؛ فإن آثار قسوة البيت تتضاءل ، وتنكمش في غمرة هذا النفيء الودود الزاخر الذي تحبونا به المدرسة والمجتمع .. أما إذا كانت المدرسة امتداداً للبيت بقساوته وردائه ، وكان المجتمع امتداداً للآتين المدرسة والبيت ، فتصوروا كم يكون المصير وببلا .. !!

إن التلميذ الذي كان يدمن الهرب من بيته ومعهد ، والذي قال عندما سئل عن سر هربه وإبائه : « إني فيهما منزلي ومعهدى ، لا أحس بحاجة أحد إلى » ..

هذا التلميذ ، أو هذا العبقرى الصغير عبر عن سر كبير جد كبير من أسرار طبيعتنا الانسانية ..

فنحن بطبيعتنا نحيا حياة مساوية لشعورنا بكرامتنا . ومن أكثر مناسط هذا الشعور اهتمام الآخرين بنا . فإذا نحن حرمانا هذه الاهتمامات الفياضة للبهجة .. بل إذا تحولت إلى إهانات متساوقة في صورة أوامر تطلب الخشوع ، أو قسوة طاغية تشوه النفس ؛ فقد وضعنا أقدامنا على طريق الرذيلة مكرهين .

إن شعار «القوة ، لا الواجب» جدير بأن ينزل عن مكانه في عقولنا ،
وفي عواطفنا ، وفي سلوكنا .

إن ذلك الاستعمار الداخلى ، خليق بأن يرحل عن مجتمعنا لنبدأ بعد
رحيله الذى لن نأسف عليه بناء مجتمع جديد حر شعاره ، « الواجب ،
لا القوة » . .

فلنتعقب الآن معان هذا الاستعمار الداخلى وأوكاره .. وإذا كانت
من الكثرة بحيث لا يتسع وقت هذه الصفحات لغزوها جميعاً ؛ فلنطارد
في أهمها ، وأحفلها بالخطر المرقوب . وليكن أولها :

١ - البيت . . .

عما يؤسف أن التطور الباهر الذى أحال بيوتنا من أكواخ واطنة
إلى قصور كالأبراج ، لم يزامله تطور مماثل في روح البيت ومسلكه . .
فالتقدم الشكى في بيوتنا يسير بخطى حثيثة ، بينما يتخلف بخطى قد تكون
حديثة أيضاً ، تقدمها الأخلاق والتربوى ١١٠٠

إن تحسنا ما قد طرأ لاريب . ، ولكنه بالقياس إلى ما كان يمكن
أن يكون يبدو وكأنه لم يحدث شيء ١١٠٠ فهل نستطيع تفسير ذلك
البطء البطىء ؟؟

في رأينا أن عجز البيت عن إنجاب الطفل الصالح الذى سيكون بدوره
أباً صالحاً ، هو سبب ما يعانىة البيت من توقف عن النمو الأدبى الصاعد
فالولد الفج غير الصالح يمثل في المشكلة السبب والنتيجة معاً . . فهو نتيجة

للبيت الذي لم يحسن تربيته ، وهو أيضاً سبب إخفاق أولاده الذين لن يحسن تربيتهم بدوره عندما يصير أباً ..

إننا نتوارث عاداتنا المنزلية بنفس السهولة والباعث اللذين نتوارث بهما أسماء الآباء والأجداد .. فكما أسمى ولدى باسم أبي ، ثم يسمى ولدى ابنه باسم أبيه . نذهب على نمط مماثل في توارث العادات وتساقو التقاليد . والتطور الذي أصاب تقاليد البيت وعاداته لا يزال بالنسبة لمعظم بيوتنا حدثاً عارضاً ، أو أمراً مريباً . ١١

وإذا نحن أدركنا مدى صدق العلم في كشفه عن أن معظم رذائلنا ومساوئنا الخلقية طول حياتنا إنما ترجع إلى خبراتنا المبكرة في أيام الطفولة استطعنا أن ندرك تبعاً لهذا ، المكانة الصحيحة للبيت ومدى الدور الذي يلعبه في حياة المجتمع كافة ..

إن البيت المصري ، بل العربي لهو أول الأوكار التي تقطنها سياسة القوة وقانون الغابة .

فليس فينا ذلك البيت الذي يجعل شعار تربيته « عامل ولدك كأنه كبير بالغ . فإن للطفل عزة وكرامة يذلها البطش ، ويهينها الأكرام » بل كلنا ذلك البيت الذي يقول ذووه « لا ترفع العصا عن ولدك ، واضرب الرأس فإن فيها الشيطان » ١٠

وإن الجهل الذي يملأ وعينا ليدعونا للحرص الطاغى على أن يكون أبنائنا امتداداً لنا .. ومن ثم ييذل البيت كل جهده في دعوة الولد إلى محاكاة أبويه والانطباع بسلوكهما ، هذا فضلاعن عمل الطبيعة نفسها . ،

غير عابئين بالحكمة القائلة : « لا تسكروها أولادكم على طباعكم ؛ فأنهم خلقوا الزمان غير زمانكم » ..

ويبدأ قانون الغابة في البيت سالكا مع الطفل أحد طريقتين أو كليهما الأمر الصارم الناجب الذي تسكنه الطاعة السريعة الضارعة .. ، والعقوبة التي تبدأ بالضرب وتنتهى بأحداث عاهة جسمية أو عاهة نفسية . أو هما معاً .. وما أندر البيوت التي ترتفع فوق مستوى هذين المسلكين مع أبنائها ...

والأسراف في التوسل . بكلا هذين المسلكين ، أو بأحدهما ، يجعل من الطفولة ربحاً مزروعة .. (١) ونحن نعلم أو ينبغي أن نعلم أن من يزرع الربح يحصد العاصفة ..

أجل ، إن الضغط الذي يمليه البيت علينا ونحن أطفال لا يخلق طفولتنا وحدها ، بل يخلق مستقبلنا كله . فما الطفولة إلا الخطوة الممهدة للرجولة المقبلة . وهذه القماءة التي تميز معظم رجالنا إنما هي نتيجة حتمية للطريقة الفاضلة جداً (١) التي يربى بها البيت المصرى أطفاله وأكباده ..

من آداب الصين القديمة وتعاليمها المقدسة تعليم يقول :
— « أيها الأمير ، كن أميراً .. ويا عبد ، كن عبداً .. ويا أب ، أنت أب .. ويا ولد ، لست سوى ولد » . ١

توزيع جميل . أليس كذلك ؟
إن الطغيان ملة واحدة ، وأسرة واحدة . طغيان الحكومة ، وطغيان

البيت ، وظيفان المجتمع . كلها يشد بعضها أزر بعض . وهذه الحكمة الصينية تكشف عن تضامنها العتيد .

يبد أن جميع عظماء الصين الذين صنعوا تاريخها الحديث والذين يصنعون ، كانوا من الأولى حطموا هذه الحكمة وداسوا بأقدامهم الباسلة قدسها الشريف (١) . .

ولو أن « صن يات صن » أبا الصين وباعث يقظتها . . ولو أن « ماوتسى تونج » العملاق الذي تشاد الصين الجديدة على يديه . . لو أن هذين وعشرات من طرازهما الذين عملوا ولا يزال بعضهم يعمل لمجد أمته . آمن بتلك الحكمة ووقف عندها لظل كما تريد له الحكمة الظاهرة أن يكون . وله قزم صغير . . ولظلت الصين كأبنائها ، قرية كبيرة يطن الدباب الضارى فى خوائها ، ويتدحرج ضحايا الأفيون فوق أرضها . ١
فاذا كان بعض سر عظمة هؤلاء أنهم لم يلتزموا حدودهم كأولاد ، وأطفال . فما أحرانا أن نرفع الحصار الضاغط والحجر الغبي عن أطفالنا ليسيروا فى موكب النمو المفضى لعظمة الانسان ، وعظمة الوطن . .

على أن هذه الآفة التى نحن بصدد عرضها تمثل الوجه الحسن من وجبى المأساة . أما وجهها الآخر الدميم . ؟ فصورته تتمثل فى الهراوة والسوط . . فى القسوة التى لا تنسرب فى أمر صارم فحسب ، بل وفى ضرب مبرح أليم .

فى زيارة لى لأصلاحية الأحداث ، تحدثت مع خمسة عشر غلاما . ووجهت إليهم أسئلة كنت قد أعددتها فى خاطرى ، رجاء أن أصل بها وبالإجابة عليها إلى غايات أريدها .

ولو أن الصدفة عقل يفكر ويبصر ، وأرادت إقناعي بأثر القسوة
في إفساد أبنائنا ، لما صنعت أكثر مما صنعت لي في ذلك اليوم . . .
لم أكن أتوقع أبداً أن تكون القسوة المؤذية هي التي أودت بهم جميعا
إلى مثوالم الجارح في تلك الاصلاحية . قسوة الآباء والأمهات . . .
حسبت أنني سأجد من الخمسة عشر ثلاثة ، أو خمسة ، أو حتى عشرة
يمثلون ضحايا قسوة البيت وإرهابه . أما أن أجد الخمسة عشر شابا من
الطراز نفسه ، فقد كانت صدفة مذهلة حقاً .

سألت أحدهم :

— هل علم أبوك بمقرك هذا .

فأجاب : نعم .

! — وهل يزورك . . ؟

— نعم .

— في مواعيد دورية ، أم حسبما تسمح ظروفه ؟

— في مواعيد دورية .

— في أى أيام الأسبوع يزورك ؟

— يوم الجمعة .

وأنهيت محادثتي معه . وأدركت حديثا عاما مع الجميع حتى رأيت أنه

قد نسي حديثي الخاص معه . .

ثم ألقىت سؤالا موجها للحديث إليهم جميعا . بل ومتعمدا إشعاره
بأنني لن أشرکه معهم في الاجابة مكثفيا بما سمعته منه . وكان هذا السؤال هو :

— هل فيكم من يتشاءم من بعض الأشياء ؟ ؟

— نعم ، وعدد سبعة منهم الأشياء التي يتشاءمون منها ، وكان صاحبنا من بين المتشائمين . .

وأُتِبت سؤالي السالف بسؤال آخر هو :

— هل تتشاءمون من بعض الأيام . كـبعض الناس الذين يتشاءمون من يوم الأحد . . أو من يوم الأربعاء .

وأجابوا إجابات مختلفة لم أهتم لها طبعاً ، لأن إشرأكهم معي في هذه الأسئلة بالذات لم يكن إلا مناورة أهدف بها إلى استخلاص إجابة صاحبنا « س » الذي أجاب قائلاً :

— نعم ، أتشاءم من يوم الجمعة .
وعدت أسأله :

— تتشاءم منه أم تكرهه ، ؟ . ولما وضحت له الفارق بين التشاؤم والكراهية — نزولا على رغبته وطلبه أجابني :

— بل أكرهه . . .

ولعلكم لم تنسوا بعد أن اليوم الذي يزوره فيه أبوه كل أسبوع هو يوم الجمعة . . ١٩

عندما تبصرون في الطريق أولئك المشردين ، وجامعي الأعقاب ، والحفاة العراة من غلمان كان يمكن أن يكونوا أشبالاً ؛ فاذكروا ما تروج به بيوتنا من أسباب الفظاظ والغلظة والأرهاب . هذه التي تحفز الولد إلى الهروب حيث يخسر أخلاقه ، وينتهي لتلقى مستقبله الذي لن يكون إلا مسرحة لجرائمه المبهظة ، وجنائياته على نفسه وعلى الناس . . ١١١

ووراء هؤلاء عشرات الألوف لم يهربوا ، ولم يشردوا في الطرقات ،

ولم ينزلوا ضيوفا على الأصلاحيات . بل هم يجلسون هناك على مقاعد العلم في مدارسهم ومعاهدهم . .

ومع هذا ؛ فهم يحملون جنوحا كامنا غير منظور . وسلوكمهم حين تبصره وتفحصه ، ليس إلا ضربا من الاحتجاج على ما يتعرضون له في بيوتهم من قسر وقهر . .

انظر إلى شجارهم مع بعضهم ، وتحرشهم بأنفسهم ، وتمردهم على أساتذتهم . .

ثم انظر إلى حيرتهم إذا كانوا كبارا ، وإلى فراغ نفوسهم ، وإلى خيبة أملهم التي تملأ وجوههم وسياهم . .

إن ذلك جميعه وأضعافه معه ضرب من الاحتجاج غير المقصود على ما يلاقونه هناك في البيت من إعنات وتحكم وعدوان .

لا زال تربيتنا ترى من سوء الأدب أن يتحدث الصغار مع الكبار . . فإذا أبدى الصغير رأيه مع ضيوف أبيه ، تلقى منه زجرا قاسيا : اسكت يا ولد . . .

وإذا توجه الطفل بسؤال إلى أبيه زجره أيضا بما إذا تكرر السؤال . . وإذا رسب التلميذ — مهما يكن جده واجتهاده — فإن البيت يشتعل نارا تريد أن تحرقه . . بما يحمل التلميذ على الهروب أو الانتحار . فمثلا ذلك المواطن « أحمد حسن » لو لم يغلظ هو وزوجه على ولدهما « سعيد أحمد حسن » لرسوبه في الدور الأول لامتحان الثقافة في العام الماضي ، لما أشعل « سعيد » في نفسه النار منتحرا . ، ولما غادر دنياه المتعبة القاسية في كفن من اللهب المشتعل المشبوب . . .

وكم لسعيد هذا — رحمه الله — من أشباه ونظراء .
تري كم واحداً في كل ألف منا يجد بين ذكريات طفولته مثل هذه
المتعة الفذة التي وجدها بطل القصة الآتية ٩٩ :

— إقرأوا . .

— « علمني أبي ، وكان عطوفاً مدبراً ، أن ألهو بأشياء بسيطة .
وكان مما أهواه في طفولتي أن أجمع شرائق الفراش ، وأن أراقب في
الربيع خروج الفراش منها كأنها أزهار . وكان جهادها في التخلص من
سجنها يثير عطفى دائماً . وأتي والدي يوماً بمقص ، وأعمله في غلاف
الحرير المقل على الفراشة وساعدها على الخلاص . ولكن لم تلبث
الفراشة أن ماتت .

قال لي أبي : « إن الجهد الذي تبذله الفراشة يابني لتخرج من
الشرقة يخرج السم من جسمها ، وإذا لم يخرج هذا السم ماتت الفراشة .
وكذلك الناس . إذا جهدوا في سبيل ما يريدون ازدادوا قوة
وعزماً . ولكن إذا واثم ما يريدون سهلاً طيعا غلب عليهم الضعف ،
ومات منهم شيء جليل الخطر » .

« وأراني اليوم أقدر على احتمال أرزاء الحياة لأن أبي علمني منذ
الصغر تلك الحقيقة البالغة » ١١

كم هو رائع هذا المثال ١ .

ليس والداع طفل ، . هذا الذي يتكلم . . ولكنه صديق يتحدث
إلى صديقه وزميل يتناجى مع زميل . ١١ وهكذا نحرم شبابنا من أهم
مقومات الفضيلة حين نحرمهم من الثقة بالنفس واحترامها . وذلك

بسبب المعاملة الجافة القاسية التي نعاملهم بها أطفالا ومراهقين .
وكم أما من بين آلاف الأمهات تستطيع أن تذكر ولدها في غبطة
وابتهاج وتعدد مناقبه في نشوة وثقة كما فعلت تلك الأم الأمريكية التي
تحدثت عن ولدها فقالت في زهو ونخار :

— « يبلغ ولدى جون اليوم الثالثة والعشرين من عمره ، وهو
شغوف بالقراءة ، محب لمعاشرة الآخرين ، مواع بالالعب الرياضية ،
وبمصاحبة الزميلات » . . . ١١

لعلكم ستحسبونها أما داعرة ، هذه التي تبتهج إذ ترى ولدها
شغوفا بمصاحبة الزميلات . . . ١١
ولكن انظروا البلاء الحسن الذي أبلته في سبيل تربيته وتنشئته . .
ها هي ذى تتحدث فلنصغ إليها .

— « كان الركن الذي يقوم عليه مذهبي في تثقيفه هو أن أساس
التربية جميعا هو الاعتماد على النفس ، وأن قوام الاعتماد على النفس ،
هو قدرة المرء على العمل بيديه . وقد أخذت على نفسي عند ما بلغ
جون الثالثة من عمره أن أدرب يديه على العمل ؛ فكنت أنبطح على
الأرض وأساعده في بناء بيت من قطع الخشب . كنت أدع له الرأي
فيما يبينه . وكنت أنا أسدده وآبى إلا أن تكون الجدران مستقيمة
والزوايا قائمة والسقوف متينة . فلقد أردت أن أعود أنا مله على العمل
الدقيق . . ولما بلغ جون الرابعة من عمره علمته استعمال الآلات . وكنت
أرى في استعمالها تدريبا لليد والفكر معا . .

« ومنذ نومة أظفار جون وأنا أغرس في ذهنه صورة من كل

نظرية أو قاعدة . . ومنذ أيامه الأولى وأنا أعامله كرجل مهذب .
وقادر » . . ١

إننا نحرم أولادنا ومجتمعنا من الفرصة الجزيلة التي تمكن من
الفضيلة ، وذلك بما نسلكه تجاههم من قسوة مباشرة أو غير مباشرة . .
وعلاقة الولد مع أبيه ومع أسرته . تحدد فيما بعد علاقته بالدولة والمجتمع ؛
فالدولة هي بديل أبيه عندما يصير رجلا كبيرا . والمجتمع بديل أسرته
ومنزله . فإذا كانت علاقته السالفة بأبيه وبالبيت مشحونة بالبغضاء
والحقد ، فإنها ستلبس نفس الثوب حين تكون مع الدولة والمجتمع . .
ذلك أننا حين لا نعلم ونحن صغار بعطف آبائنا وتقدير ذويها ، نعيش
حياتنا كلها في خوف مستمر من عدم عطف الغير علينا . ويصاحبنا
إحساس ضاغط بسوء رأى الآخرين فينا ، ورغبتهم في القسوة علينا .
وهكذا نسلب خير نعم الحياة وفضائلها . نعمة التعاطف الاجتماعي الذي
يظفرنا بنشاط مشترك منأزر يسعى بنا نحو غايات مشتركة صاعدة . .
ويطارد « قانون الغابة » المنزلى الأبناء من الطفولة إلى الشباب .
بل هو في هذا الدور الثاني أكثر عدوانا وعلفا . .

ونستطيع أن نقول إن الطفل في بيوتنا ، أعنى معظمها ، يفقد
نصف شخصيته ؛ فإذا كبر وصار شابا فتيا فقد نصفها الآخر . . ١
ذلك أن الطفولة بما فيها من ضعف يستدرّ الرحمة التي تشفع لنا
أحيانا لدى آبائنا ؛ فتخفف من حدة بطشهم وإكراههم وأيضا فأن
شعورنا بمالنا من حرية واختيار يكون في تلك السن المبكرة خافتا
وقنوعا . . أما في طور شبابنا حيث ينمو شعورنا بالحرية المساوية

فيزداد عذابنا النفسى . وحيث يتخلى عنا شافع الطفولة الذى ذكرناه .
فأن إحساسنا بوطأة الألزام والقهر يكون قادحا وثقيلًا . . .

مالون القسوة والاستبداد اللذين يسلكهما البيت معنا في سن الشباب ؟؟

إنه اختيار الدراسة التى ندرسها ، وتعيين الوجهة والمصير . . .
فى الصيف الماضى وقف شاب فى مصيف رأس البر أمام «اللسان» . .
وكانت الشمس تتداعى مائلة للغيب بعد يوم من أيامها الحافلة
بالبذل والإنفاق . . وكأنما أسر مشهد الغروب لنفس فتانا حديثا ؛
فسرت فى كيانه قشعريرة رهيبية . مخرت عباب جسمه فى مثل سرعة
الضوء ؛ وجأة سأل نفسه :

— أفعلها ؟ ؟ ؟ . . .

لقد ذكره مغيب الشمس بأمل له طواه الغروب . وانتهز الصراع
النفسى الكامن فى نفسه فرصة الضعف الموائى فانقض على إرادته اللينة
يريد أن يدفعها إلى الفناء . .

وتمثل هذا الانقضاض المدمدم فى صرخات غير مسموعة انطلقت
فى خواء نفسه نائحة : أجل ، افعلها . . هاهو ذا البحر أمامك . لن تجد
قبرا أرحب منه . بل لن تجد «لإنهاية» تحلق فيها مشيتك المعطلة سواء . . .
ومن يدري ؛ فلو أن هذه التجربة مرت بصاحبنا وهو هناك وحده
لكان محتلا أن نتعته الآن بالفقيد وبالمرحوم . . .

إن مأساة هذا الشاب مأساة الكثرة الكاثرة من نظرائه . يريدون
للمستقبل طريقا ، ويصر آباؤهم على طريق . . .

هم مثلاً يريدون كليات الآداب ، أو التجارة . وآباؤهم يريدون الطب ، أو الهندسة . .

إننا لا نسلب الآباء حق توجيه أبنائهم ، ولا ندعو لأهمال تجاربهم وخبراتهم . بل نحترم لهم ذلك الحق . . وننصح الأبناء أن يضعوا تجاربهم وآراءهم موضع التقدير والاعتبار . . لكن ذلك ينبغي أن يتم بأسلوب متكافئ . لا يشجع رغبة الأب بامتصاص رغبة الابن . لا ينفسى عن نزعة الوالد ، بخنق نزعة الولد . . أجل بطريقة تعامل بها شبابا له عقل ووجدان وإرادة ، لادى خشية تعبت بها وبصايرها أنامل الآباء . . ! وإذا كان لا بد للوالد - أى والد - من سوق ولده فى الطريق الذى يريدها ؛ فليكن من الفطنة بحيث يعد نفس فتاه ويهيئها للقبول فى وقت مبكر مستعينا بوسائل الأقتناع والأيهاء وحدها ، حتى إذا أثمرت الوسيلة التى سيارسها فى رفق من مبتكر الدراسة الثانوية على الأفل ، دفعه فى حفاة إلى حيث يريد . .

وتمت صورة أخرى من صور « الاستعمار الداخلى » الذى يهيمن به البيت فى غلظة وعدم مبالاة . .

هؤلاء الفتيات اللاتى يدفعن إلى أزواج لا يريدونهن . أعرف «فتاة» كانت كالزهرة . . تقدم لخطبتها شيخ هرم فى مثل سن أبيها بيد أنه من ذوى الجاه والثراء . . (١) ورأت الفتاة أنها ستكره على معاشرته والاقتران به ؛ فهددت أهلها بالانتحار . ولم يأبهوا لها ولا تهديدها . ، وزفت إلى مصيرها فى ليلة حالكة السواد . . ، وبعد ستة أشهر طلقت من زوجها بعد أن أعلنت حربا على كل حرمان الحياة الزوجية (٢) .

وبعد عام رأيته صدفه في الطريق ؛ فلم أكـد أعرفها . . كانت مغبرة الوجه متسخة الثوب شاحبة الوجه متهاككة الحطى . . لا تزال مرارة تلك النظرة في حلقى . . . وسألت عن أمرها فيها بعد ؛ فعملت أن أهلها رفضوها بعد الطلاق . فأخذت مكانها كعضو جديد بين بنات إلهوى الرخيصات . وأيضا احترفت تجارة المخدرات . . . ١١

ولو أننا جندنا من رجال الأحصاء ثلثة ليدركوا عدد اللائى يماثلن فتاتنا فى المأساة ، ويشاركنها فى المصير . لتقطعت أنفاسهم إعياء ولما يشارفوا منتصف الطريق . . ١٠

أين يعيش هذا الطراز من الآباء ، ومن البيوت ؟ ؟

فى غابة ، أم فى مجتمع . . ١٠

فى قطع ، أم فى أمة ؟ . . ١٠

وهل تواتى الفضيلة قوما لهم مثل هذا السلوك . . ١٠

إننا لا نستطيع أن نطالب الحيوان بأن يكون فاضلا ، وعلى مستوى كريم من الأخلاق الرفيعة . . وهل الفناء التى تعامل تلك المعاملة ، وتدفع كخرقة الثوب إلى أحضان رجل يترأى لها بغلا . (١) ، هل مثل هذه تكون إنسانا حتى نطالبها بمكارم الأخلاق ؟ ؟

لقد قام واحد من كبار علماء النفس والتربية بتجربة طريفة . تقدمها هدية لبيوتنا جميعا . .

إنه أكره حصانا على أن يطاء فرسا قصيرة السيقان غليظة الجسم ، فبعد أن فعل ، أصيب أى الحصان بأسهال مفاجيء . . ثم لبث بعد ذلك زمنا طويلا يتحاشى أن يقع بصره على تلك الفرس داخل الحظيرة . .

وكان كلما مر بها أشاح بوجهه كأنه يعبر عن احتقاره لها ، واشتمزازه منها
فإذا كان الحيوان يملك حسا جماليا يدفعه إلى اختيار ما هو جميل
ومناسب ، كما يدفعه إلى الاشتمزاز من القبح . . أفليس يملك الإنسان
شعورا بالجمال يلزمنا تقديره وإعطاؤه حقه وفرسته . . ؟ ؟

إن معظم الحيوانات الزوجية ناجحة عن هذا اللون البشع من
الأكرام . إكراه الفتيات على زواج لا يردنه ، ولا يحملن له مودة
ولا توقيرا . .

وهذا الحكم لا تصدره عفو الحديث . ولكنه صورة يقين أثمرته
الشواهد والثلاث . .

ولذلك الأكرام سمات شتى ؛ فليس هو فقط ذلك الذى يعتمد على
العقوبة والتهديد والأرغام . . بل إن منه ذلك الذى يحىء عن طريق
الخداع ، والاستمواء ، والتخدير الذى يسلب البنت إرادتها مؤقتا ثم
تفيق بعد ذلك لتجد نفسها بين ذراعى ، أقصد بين جناحي غراب
مفزع دمى . . ١١١

لا بد أن يعرف البيت واجبه من جديد ، ويسوس ذويه وأبناءه
بوحى من الواجب ، لا بسلطان من القوة .

إن بيوتنا تسلك سلوك الفقى المراهق الذى يستطيع أن يسير فى
غبطة عشر ساعات على قدميه مع مظاهرة تصفق وتهل معرضاً نفسه
بهذا للأذى والضنى وسوء الحساب . ولكنه يمجز عن أن يجلس ساعة
واحدة مستقبلاً مسألة رياضية يحلها ، أو نظرية علمية يهضمها . . !

هكذا بيوتنا ، فهى تفر من الوسائل السليمة للتربية والتقويم ، لأن

هذه الوسائل تحتاج إلى مصابرة وحلم وجهد . وتتوسل بالقوة والقسوة لأنها لا تكلف أصحابها سوى حمل العصا ، وإصدار الأوامر . . .

إن تكوين العادات الصالحة - مثلا - أجدى على التربية من الأرهاب . فهل تستطيع بيوتنا أن تسلك بنا هذا السبيل ؟ طبعاً لا ؛ ففاقد الشيء لا يعطيه ، والبيت المصرى بل العربى لا يزال يفقد العادات الصالحة حتى بين الآباء والأمهات . . .

هنا القوة يا رجال ويا آباء . . .

القوة الشريفة التى تجعلكم قدوة تحتذى ؛ فهل تملظون على أنفسكم قليلاً لتبلغوا ذاك المستوى ؟

إننا نفعل العكس تماماً . . . وهنا تنقلنا المناسبة إلى لون آخر من ألوان القوة الطاغية فى البيت وما تؤديه من خدمات سافلة . (١) .

فواقع آن الآباء لا يستعملون العنف مع أبنائهم وحدهم . بل كثيراً ما يقع العنف على الأم أيضاً . . . وإنى لألقى سؤالاً :

عندما يتشاجر الزوج مع زوجه ويكون من كرام الأزواج ماذا يفعل . . ؟

إنه يفض الشجار بالانسحاب ومغادرة البيت مؤقتاً . . .

ونحن نعتبر هذا منه سلوكاً كريماً ، والحق أنه كذلك فعلاً إذا قورن بسلوك الرجل الآخر الذى يفض الشجار بشج رأس زوجته أو إهدائها

عاهة دائمة فى جسمها . . .

ومع هذا ؛ فانظروا ما يسببه ذلك السلوك الكريم من جرأر وجرائم . .

إن أولادنا الذين يهربون من نيوتهم ، ويخسرون أخلاقهم ، وقد

ينتهى بهم السعى إلى إحدى الإصلاحات ، لم يفعلوا في الواقع أكثر من تقليد آبائهم . .

فلطالما رأى الولد أباه يهرب من الشجار إلى الشارع ريثما تهدأ أعصابه ثم يعود . . فتكونت في وجدانه فكرة عن أن الفرار من البيت هو العلاج الحاسم لما يلقاه من إعنات وشجار . . بيد أنه لن يكون مؤقثا كهروب أبيه الذي لا يزيد عن ساعات .

وإنما سيكون هروبا يناسب سن الفتى واضطرام عواطفه ، وضالة مسؤولياته . .

فسياسة القوة إذن في كافة أزيائها ، عمل تخريبي للأسرة والمجتمع ، وتمهيد موفق لنشر الرذيلة بين الجماعة كلها . . وتستطيعون أن تضيفوا لما ذكرنا من عواقب « الإكراه المنزلي » تلك الأمراض النفسية للمدمنة التي تدمن بها القسوة نفس الشاب وحياته ، من عصاب ، إلى صرع ، إلى انحراف ، إلى سلوك قتالي لا يحيا صاحبه بغير عدوان . . .

إننا بقانون الغابة الذي نستعمله مع أبنائنا نملاً بواطن أنفسهم بالصراع الذي لا يكاد يفارقهم أبدا . والصراع الداخلي في النفس يضعف القدرة على أداء الواجب ثم يلاشيها .

ولو نعرف نحن مداخل هذا الصراع وتعبيراته لأدركنا أننا بقسوتنا على أبنائنا في أي صورة من صور القسوة ، نهى المجتمع لحريق لا يبقى ولا يذر . .

فن بين مرضى العالم « أوجست أيكهورن » مؤلف كتاب « الشباب الجامح » نلتقي بشاب يصلح أن يكون عبدة لنا . . وليس موطن العظة

في نبأه خطورة مسلكه ، بل غرابة الأسلوب الذي عبر به « اللاشعور » عن انتقامه من أبيه .

ولنبداً القصة ذاكرين أن القسوة التي وجدها الولد من أبيه في هذه الواقعة لا تكاد بالنسبة لما يقترفه الآباء تسمى قسوة . . فكل ما في الأمر أن أم الفتى توفيت ، وتزوج الأب بفتاة كانت صديقة لأم الراحلة ، وكان الولد يحبها وأبوه لا يدرى . .

وأخذ هذا التصرف البريء طبعاً صفة القسوة في « لا شعور » الولد ... ثم لم تلبث أن تكونت في « اللاشعور » أيضاً رغبة في الانتقام . .

ما الشكل الذي برزت به هذه الرغبة للكبتة إلى مسرح الشعور ؟ لقد كان الوالد يحترف تجارة الكحول غير النقي « السبرتو » فكان الولد يسرق الكحول الأحمر من زجاجاته ، ثم يول في الزجاجات الفارغة ليملأها بسائل يشبه في لونه الكحول المسروق . . . ١١١

يقول « ايكهورن » الذي قام بتحليل الشاب وكشف عن لاشعوره : « إن الفتى قد استخدم في الانتقام - دون قصد منه - نفس العضو الذي أحس أن أمه قد أساء إليه بسببه » . . . ١٢

سلوك في منتهى الغرابة يقرع أجراس الحذر والنذير لندراً بالرفق والواجب ما عسى أن تدفعنا القسوة إليه من تهلكة وبوار .

والآن . ماذا ينبغي أن نصنع لتطهير البيت والأسرة من هذا الذي وصفناه بقانون الغابة ، وبأى سبيل نتوصل لإنشاء علاقات منزلية جديدة تهتدى بالواجب ولا تتخضع للقوة . . ؟

السييل أن ننشر عن طريق الأذاعة ثقافة منزلية واسعة . نبغها في
كافة ألوان النشاط الأذاعي - المحاضرات ، والتثليلات ، والأغاني . .
والسييل أيضاً أن نوصي الأدب الموجه ليشبع حاجات هذا الغرض
بالقصص القصيرة والطويلة ، وبالبحوث العلمية ، في المقالات وفي الكتب . .
وعلينا أن نلاحظ إبطاء هذه الوسيلة الثقيفية - ولذا فنحن في حاجة
معا إلى وسيلة أخرى تكون سريعة الأجداء . ونحن نرى أن تكون
هذه الوسيلة « مكتب العلاقات المنزلية » . .

ماذا نعني بهذا المكتب ؟؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال أقول لكم إنني هممت أن أسميه
« محكمة العلاقات المنزلية » بيد أنني تذكرت المنهج الذي أسير وأدعو
للسير عليه . ألا وهو حذف القوة ورفع سلطانها ما وجدنا لذلك سبيلاً . .
وشيء آخر ؛ فنحن لا نريد أن تأخذ الأخطاء المنزلية صفة الخصومة
بين الولد والوالده . وكلمة محكمة ووظيفتها أيضاً تشعيران بالخصومة التي
تطلب للمقاضاة .

إن مكتب « العلاقات المنزلية » ضروري لحياتنا وهو اليوم أكثر
ضرورة منه غدا ، وضرورته في غد أكثر منها بعد غد . .
أما وظيفته وعمله ؛ فتكون تقديم النصيحة والمشورة المألوفة في
الحالات التي تعرض عليه . .

وما هذه الحالات . . ؟؟

إليكم أمثلة منها :

« زينب » فتاة مضيئة يمكن لو تزوجت زواجا موقعا أن تكون سيدة

فاضلة ، وأما لفتيان ناضجين . ولكن أباهما يريد أن يقحم حى حياتها رجلا لا تريده . . .

فلماذا نتركها لزوة أبيها إذا كان سىء الاختيار ، ولماذا - أيضا - تتركها لسوء فهمها إذا كانت سيئة الفهم والتقدير . . .

لماذا لا يكون هناك من الأخصائيين الذين يزخرون بالود الإنسانى ، وبالوعى والمقدرة ، من يفصلون فى هذا الاتجاه المنقسم ، والحلاف الضار . . ؟ ؟

إذا زفت « زينب » لعريس أبيها (١) أغنى للرجل الذى يريد الوالد أن يفرضه عليها . . ثم آل أمرها وانتهى مصيرها لمثل مصير التى ذكرت لكم نبأها من قبل . فمن الذى سينوء بفسادها ، وانحرافها . . ؟ ومن الذى سيجنى العلقم من سلوك أبنائها الذين سيرضعون منها لبان الأفك المستهتر والحقد الضارى ؟ ؟
إنه المجتمع والدولة . .

إذن لماذا لا يتدخل المجتمع فى صورة مناسبة لا تأخذ صفة العدوان على الحرية والحق المكتسب ؟
ومثال آخر :

« توفيق » فى ريان الشباب ، متوقد الدهن ، مشرق النفس ، لو سار فى الطريق المرغوب لأمكن أن يتطور إلى نبوغ عظيم قد يهب أمته مثل ماوهبوا أمهم والانسانية جميعا رجال مثل « أديسون » و « شكسبير » و « اينشتاين » و « شارلى شابلن » ١١
ولكن أباه لا يريد أن يمضى فى الطريق المرغوب الذى تتحرق

شوقاً إليه كل مواهبه وإمكاناته ؟

إن المأساة التي تملأ نفس « توفيق » بالفجعية ليست فقط في أنه يدفع عكس هواه .. بل هي قبل هذا شعوره التعس بفقدان النصير . ١١
لماذا لا يناصره المجتمع ويعينه على أيه إذا كان مخطئاً ، أو يقنعه بوجهة نظره إن يكن مصيباً ؟ ؟

إن « مكتب العلاقات المنزلية » يستطيع أن يقوم بهذا العمل الجليل . ورأينا أنه بما سيمنح من سلطات معقولة ، يستطيع أن يحل أكثر مشاكل الشباب . تلك المشاكل التي تغوص في نفسه ثم توجه أعضائها إلى كل عمل تخريبي عقيم . .

وطبعي أننا لا نغنى بمكتب العلاقات المنزلية ، مكتباً واحداً في مكان واحد . . بل سيكون مكاتب كثيرة متعددة حسب تعدد الحاجة إليها . ولقد قلنا من قبل : إننا نؤثر تسميتها « مكاتب » لا « محاكم » . وهذا فيما يختص بالمشاكل القائمة بين الأبناء والآباء . . الأبناء الذين يوجهون رغم أنوفهم . ، أو الذين يهمل الآباء شأنهم لأنهم أبناء الزوجة القديمة (١٩) . . ، أو الفتيات اللاتي يكرهن على زواج بغض . ولكن إلى جوار هذه المكاتب ينبغي أن تقوم « محاكم العلاقات المنزلية » ، أو « محاكم الأسرة » . .

وقبل أن تسألوني عن اختصاصها . . أقول : إنه ينبغي أن تقوم على أنقاض المحاكم الشرعية ، والمجالس اللبية . . أظنكم أدركتم الآن اختصاصها . ؟

وأرجو من الدين سيعارضونني أو ينفرون من رأي هذا أن

يلاحظوا كلمة « ينبغي » . . إني هنا ، وفي كل مناسبة أبدى فيها رأياً
أراه ، لا أستعمل كلمة « يجب » بل أقول « ينبغي » . .
ذلك أنني لا أحب أن أفرض على أحد رأياً ، مادمت أرفض أن
يفرض أحد رأيه عليّ . . وكما أنا شديد الرجاء والرغبة في أن تنتقل هذه
العدوى للقاد والمعارضين جميعاً ، لتستحيل الحراب المتلاحمة في معركة
الرأى إلى شموع نبصر فيها مسالك المعرفة والحقيقة . .
ما معنى أن يقوم في بلد متحضر محاكم خاصة للمسلمين ، ومحاكم
خاصة لغير المسلمين . . ؟؟

ومن الذى بدأ فصنع هذه التفرقة حتى نعرف الغرض الذى وضعت
التفرقة لخدمته ؟

وما معنى أن نكل بأخطر قضايا المجتمع وأهمها شأنًا ، وأولها
بالتقدير والاهتمام - وهى مشاكل الأسرة - إلى نفر من الشيوخ ، ومن
القسس ، لم تؤهلهم دراساتهم أدنى تأهيل لإدراك المشاكل التربوية ،
والنفسية ، والسلوكية ، والاقتصادية التى تفتعل فى الأسرة وتفرز كافة
أخطائها وانحرافاتها ؟

وكيف ننشد « وحدة الشخصية » وهى بداية السير فى طريق
الاكتمال الخلقى للفرد وللجماعة . .

أقول كيف ننشد « وحدة الشخصية » لمجتمع ممزق الكيان .
هنا محاكم المسلمين . . وهنا محاكم النصارى . . ؟ . .

وإذا كانت هناك ضرورة تدعو لتطبيق النهج الدينى فى قضايا
الأحوال الشخصية ، النهج الأسلامى والنهج المسيحى ، فلماذا لا يوحدان

في قانون يحكم به قاض واحد ومحكمة واحدة . . بدلا من أن يكون
هناك قاضيان ، مسلم ومسيحي . . ومحكمتان ، شرعية ومالية . . . ١١١
حقا إنه « كرنفال » نصفه فاجع ونصفه مضحك . .
ثم من قال إن مشاكل الأسرة أحوال شخصية . ١٢
شخصية . . ١٢٢

إن البيت هو المجتمع ، والعائلة هي الأمة ، وليست خلافات المنزل
والعائلة أحوالا شخصية تمس شخص الزوج أو شخص الزوجة . . إنها
مشاكل الأمة والدولة والمجتمع . . إنها أولى بالاهتمام والعناية من قضايا
تزييف النقود وخلط الدقيق . .

اصحوا يا نيام . .

واعلموا أن الأسرة ليست من الهوان وضعة الشأن بحيث تمنح
ركنا جانيبا ، وعناية هامشية . .

واعلموا أيضا أن هذه التفرقة فوق تخطيطها للوحدة القومية ،
ووحدة الشخصية ؛ فأنها تفتح للرذائل الخلقية كل باب . .

أسمعتم عن بيوت الطاعة ؟ إنه قانون الحاكم الشرعية . . مع
الاعتذار لكلمة قانون حق وهي مضافة لكلمة الغابة . . (١١١)

لقد رأيت مشهدا لن أنساه . . فتاة في ربيع صباها بنت أسرة كريمة
فاضلة تفر مذعورة بقميص النوم إلى سطح المنزل ، ثم تقفز السطح في
مخاطرة بشعة إلى سطح منزل مجاور . .

أتدرون لماذا . . ؟

لأن أهلها فوجئوا بزواجها الخبيث الماكر يقتحم البيت خلصة من

النافذة ومعه رجل الشرطة ، لكي يقبض على زوجته التي يسميها قانون
الحاكم الشرعية . « ناشزا » ولكي يسوقها إلى سجن الطاعة . .
معدرة أريد أن أقول بيت الطاعة . . ١١٩

ألم أقل لكم من قبل إنها بلاد السمع والطاعة ؟ ؟
مجتمع هذا ، أم « منسر » عظيم . . ؟ ؟
وكيف نوفق بين صراخنا العالي بضرورة التقدم ، والسير في قافلة
الحضارة ، وبين إصرارنا على هذه العادات القديمة ، والزواحف
المنقرضة . . ١١٩ ؟

قد يبدو لنا صعوبة تنفيذ اقتراحنا الداعي لإلغاء محاكم المسلمين
ومحاكم النصارى . ، واستبدالها بمحاكم الأسرة ، أو بمحاكم العلاقات
المنزلية . . ولكن الأمر جد يسير .

فعدد المحاكم الشرعية في الإحصاء الرسمي لعام (١٩٥٠) هو —
(١١٩) محكمة . .

ليكن تعداد وظائف القضاء بها حوالى مائتى قاض . .
وعدد المحامين الشرعيين في إحصاء عام (١٩٥٠) هو (٣٠٠٨)
يرافعون أمام محاكمها العليا والكلية والجزئية . .
لنقل إنهم الآن حوالى (٤٠٠٠) محام .

وعدا القضاة والمحامين يوجد الموظفون الكتابيون والأداريون . .
أما هؤلاء ، أعني الكتابيين والأداريين ؛ فيمكن وصفهم في أعمال
مماثلة في المصالح المحكومة الكثيرة . .

وأما القضاة والمحامون ؛ فإذا افترضنا جدلا ، أنهم سيسرحون ؛ فإن

مستقبل وطن بأجمعه لا يمكن أن يبخل عليه بهذه التضحية ..
 على أن الأمر لا يقتضى هذه التضحية بحال ، ولنفرض أننا نريد من
 اليوم أن نبدأ تنفيذ الاقتراح وعندئذ تكون الخطوات المطلوب انتهاجها هي :
 (١) وضع التشريع الموحد الذى ستحكم به « محاكم العلاقات المنزلية » .
 (٢) توزيعه على القضاة القائمين وعلى المحامين لدراسته . وأعطائهم
 فترة مناسبة لهذه الدراسة .

(٣) تحويل جميع قضايا المجالس المللية والمحاكم الشرعية إلى المحاكم
 الجديدة التى ستحكم بقانون جديد ، ليس هو قانون الشيخ . . ولا قانون
 القسيس . . بل قانون الدولة .

(٤) شغل المناصب القضائية التى ستخلو فى هذه المحاكم بموت أصحابها
 أو بتقاعدهم — شغلها بخريجي كليات الحقوق مع إفساح دراستهم
 القانونية لتوجيهات الدين وعلم النفس وعلم الاجتماع فيما يخص مشاكل
 الأسرة بصفة خاصة . .

وأما المتخرجون فى كلية الشريعة بالأزهر ؛ ففى مهنة التدريس
 متسع لهم . . ويمكن أن يتاح لهم إجراء « معادلة » تمكنهم من وظائف
 القضاء إذا شاءوا .

إن قضاء البلاد ينبغي أن يوحد ويهذب . .
 ومحاكم المسلمين ومحاكم النصارى ، ينبغي أن تتحول من فورها
 إلى محاكم الأسرة أو العلاقات المنزلية ، التى ستكون بدورها جزءا من
 قضائنا العام ومحاكمنا الوطنية . .
 ولا بد من تشريع جديد لهذه المحاكم يلائم روح بلادنا الجديدة ،

ويزامل تطلعها المصمم وشوقها الزاخر إلى مستقبل لالغو فيه ولا تأثم . .
فإذا كان النزاع -مثلا- بين « بطرس » وزوجه « ماري » وصارت
مصلحة الأسرة والأولاد تحتم التفريق بين ماري وزوجها . فليكن
القانون من الفطنة والقوة بحيث يفصل بالطلاق ، ولو كان السبب شيئا
آخر غير الخيانة الزوجية . .

هل يعتبر هذا خروجا على الكتاب المقدس ؟
ليكن ذلك ؛ فالكتاب المقدس لم يقل الكلمة الأخيرة في كل شيء . . ؟
وإذا كان النزاع بين « أحمد » وزوجه « فاطمة » واقتضت مصلحة
الأسرة والأبناء أن يحرم على أحمد الاقتران بالزوجة الثانية التي يريد
الاقتران بها . مثلا ، فليكن القانون من الذكاء بحيث يحرم باسم المصلحة
العامة ما جعله الدين مباحا . !

هل سيفض ذلك العمل أبا حنيفة والشافعي ومالكا ؟ حسن . ،
إنهم أيضا لم يقولوا كل شيء . .

أما أن ترك بيوتنا وأجيالنا وديعة نصوص واتجاهات استنفدت
أغراضها ، فعمل غير صالح . وضلال يفضى إلى ضلال . .

وبهذا نضع حداً لرذائل الدين يتوسلون بتغيير الدين والعقيدة لمفارقة
زوجة ، وتشريد ولد ، وهدم أسرة . . ، ونضع حداً لرذائل الدين
يسرفون في الطلاق ، ويسرفون في الزواج .

إن مجموع المطلقات في عشر سنوات أخيرة بلغ في بلادنا — حسب
إحصاء الحكومة — (٧٧١٨٥٣) .

فاذا افترضنا أن ثلث هؤلاء المطلقات بلا ولد . ، وجعلنا متوسط

التربية للأخريات ولدين . . لزاد محصول مصر من الأطفال المشردين
أو أشباه المشردين بسبب الطلاق في هذه الأعوام على المليون . . ١١
ثم إن المأساة لا تحجب بهذه الأرقام المفجعة . فقضايا الطلاق للنظرة
في عام واحد بلغت (١٨٨٢٢٧) وكثيرا ما ينتهى الحكم فيها بالطلاق . ١١
إن بيوتنا آبار عفنة تضيح بالأفاعى والجرائم . والمحاكم الشرعية
بنظمها والمجالس المليية بقوانينها تحمل من أوزار هذا التدهور ما يحتم
على الدولة إعفاءها من مهمتها ، وتطويرها إلى ما ذكرنا من محاكم
جديدة للأسرة . ، ذات نهج أسمى وتشريع أنضج .

ب — المدرسة

فاذا غادرنا البيت باعتباره وكرآ للقوة المستعيلة على الواجب ، إلى
وكر آخر يحمل نفس السمات ، التقينا بالمدرسة . .
والحق أن المدرسة عندنا مكان تعس لطلاب تعسين . فهي تستقبل
شبابا يحمل فوق كاهله الوهنان أثقال البيت وحماقاته ، كما يحمل في
أحيان كثيرة آلام عوزه وخصاصته . .
وهى أى المدرسة خاضعة لقانون القوة وسياستها ، خضوعا يسلبها
نعمة الشعور بالواجب ، فضلا عن أن تهدى إليه ، وتدعوله .
فالاستعمار الداخلى في نطاق التربية والتعليم يطنى ويتمدد حتى يخنق
جميع أنفاس التربية والتعليم . . والروتين الحكومى في هذا النطاق
يصول ويجول كحسان ألقى بكل شكائهم تحت قدميه . وإن وطأته الضاغطة
لتنجم في ثقل ماحق لتستقر آخر الأمر فوق هذا الشيء الضعيف

المرتجف المقرر الذى نسميه « مدرسة » . .
والمدرسة طبعاً ، هى مجموعة التلاميذ والأساندة . ومجموعة النظم التى
يرتبط بها التلميذ والأستاذ ليؤديا واجبهما المشترك . ، والتلاميذ وأساتذتهم ،
لا يعرفون عن هذه النظم إلا أنها « الأوامر التى وضعت لتنفيذ » . فهم
لم يشتركوا فى وضعها واختيارها . وإلى هنا قد يكون الأمر طبعياً .
ولكن موضوع هذه النظم والروح السارى خلالها ، والمهيمن عليها ،
ثم الطريقة التى تفرض بها سلطانها ، كل هذه ينبغى أن تكون موضع
البحث الواعى لتنظر مدى ما تنطوى عليه من عناصر التوفيق أو من
عوامل الأخفاق .

ونحن هنا لانعرض المدرسة كمشكلة اجتماعية ، بل كمشكلة خلقية .
أى أننا لن نتقصى كافة مشاكلها وأوضاعها فليس هذا - طبعاً - موضوع
الكتاب . . وإنما نريد فقط أن نكشف عنها باعتبارها أحد العوامل
التي تشحذ الخوف من القوة ، ولا تشحذ الإيمان بالواجب مما يساعد
على التمكن لأخلاق العبيد فى مجتمع يريد أو يجب أن يريد الظفر
بأخلاق حرة لقوم أحرار . .

فمن هذه الزاوية وحدها نلقى ضوء النقد على المدرسة . فنجد المدرسة
فى بلادنا مرتعاً سعيداً لسياسة القوة الباطشة . وكلاً يأساً قحلاً لسياسة
الواجب الملهم . .

وإذا أنت ألقيت بصيرتك على طلاب مدارسنا اليوم ، فأنتك ملاقيهم
واحداً من اثنين ، وقليلاً ما تجد ثالثاً يقف فى الوسط . . إما تلميذ خانع ،
وإما تلميذ وقح . . أما خنوع الأول فثمرة استسلامه لقانون الغابة

القائم في المدرسة . . وأما وقاحة الثانی فشمرة تمرد و رغبته الطائشة
غير المهذبة في مقاومة هذا القانون . .

في بعض مدارسنا الثانوية ، اعتدى طلاب كبار على أستاذ لهم
بالضرب . . أندرون لماذا . . ؟

لأن الطلاب اكتشفوا بمواهبهم الفذة أن شعب النشاط المدرسي
تنقصها شعبة هامة . وقرروا أن يعاونوا الوزارة والمدرسة في إنشاء هذه
الشعبة على نفقتهم الخاصة . . وهناك في ركن قصي غير مطروق ، من فناء
المدرسة ، اجتمعت شعبة النشاط الجديد ، وأبليت بلاء شاقا حسنا أثار
إعجاب أحد الأساتذة ؛ فأتجه صوبهم . وسألهم .

— ماذا تفعلون يا أولاد ؟ ؟

فأجابوا في هدوء : نشاط مدرسي يا أفندم . .

— فسألهم ! وما علاقة النشاط المدرسي بتدخين المنوعات ... ؟ ؟ ؟

— فأجابوه في هدوء أصحاب المزاج . .

— دى شعبة جديدة من شعب النشاط يا أفندم . . ! !

ولما أبلغ الأستاذ أمرهم لناظر المدرسة أبعد الناظر اثنين كانا يتزعمان
هذه « الشعبة » . . مما أثار الحفيظة فتربصا ومعهما آخرون بالأستاذ في
الخارج وضربوه . .

أسمع بعضكم يتساءل :

هل كان لابد أن تترك المدرسة أولئك الأشقياء في نشاطهم الحر (١) ؟

لكي لا يعتدوا على أستاذ بالضرب ؟ ؟

أبدا ؟ ونحن لا نقصد هذا . . وإيماننا ذكر السبب ليزداد جرمهم

بشاعة . فإذا كان سبب العدوان كما ذكرنا يصير جرم المعتدى مضاعفا مرذولا . . . ولكن ليس « العلاج » أن نقول للمجرم يا مجرم . ، بل هو اكتشاف أسباب إجرامه ودواعي موقفه وإمكانات بعثه من جديد إنسانا فاضلا وديعا . . . وفي مدرسة أخرى إعدادية لا تتجاوز معظم أعمار تلاميذها الخامسة عشرة ، ضرب تلميذ أستاذه على وجهه ضربا مهينا ، فلما هم الأستاذ ليدافع عن نفسه تصدى له تلميذ آخر باذلا عونه النبيل (١) لزميله المعتدى ؛ وأخرج من جيبه مطواة ، وشرع نصلها ، ولوَّح بها في وجه أستاذه قائلا :

— والله افتح بطك . . . ١١١

والدين لا يأخذ عدوانهم على أستاذتهم هذا الشكل الطاغى المزرى من الطلاب يعتدون في صور أخرى كثيرة لعل أكثرها ذبوعا تهديدهم الأساتذة برفع أمرهم للناظر . ناظر المدرسة . . . ١٢٠ . . . ولعلكم تذهلون ذهولا ينأى بكم عن تصديق الواقعة الآتية . ولكنها مع ذلك وقعت . وكان بطلمها تلميذ بأحدى مدارسنا الابتدائية ، لم يتجاوز سنه التاسعة . قال لمدرس الحساب وهو يزجره :

— والله لأقول للبيه الناظر بمدك . . . ١١١

ومعنى كلمة « بمدك » يضربك على قدميك بعد تجريدكما من الخذاء . . . إن عبارة هذا الطفل ستكون دليلنا إلى اكتشاف العوامل الخبيثة التي تفرض القوة على الواجب في المدرسة ، والتي تخلق في نفوس الطلاب رغبة في محاكاة ما يشهدونه في معاهدهم من جهة ، وفي مقاومة الضغط للتوالى والقسوة الهابطة عليهم من جهة أخرى . فيسلكون

مع أساتذتهم ، وفي بيوتهم ، وفي الطريق ذلك السلوك القتالي الشاذ . .
فالمدرسة تستوحى كل مناشطها من القوة . . فهناك الضرب ،
والتأنيب ، والطرْد ، والأكره في شتى مظاهره وألوانه .

وعلى الرغم من تحريم الضرب بقانون ؛ فمن السذاجة أن ننتظر
احترام مثل هذا القانون . فالتعذيب البدني في مدارسنا قائم ما قامت
حوافزه ودواعيه . ، فما هذه الحوافز وتلك الدواعي . . ؟

ذات يوم رأيت أحد زملائنا يضرب تلميذا ضربا مرهقا . واقتربت
منه في وداعة هامسا في أذنه : شيئا من الرحمة والرفق . . فأشاح وجهه
عني وهو يقول : إن المفتش لا يرحم . . . وعاد ليستأنف الضرب
للبهظ بعضاً تالمث كأها كلب مسعور . .

إن المفتش لا يرحم . . . تلك هي المشكلة . وعسى ألا تكونوا قد
نسيتم التهديد الطريف الذي توعده التلميذ الطفل أستاذه قائلا : « والله
لأقول للناظر بمدك » . .

فالناظر ، والمفتش مظهران للآفة التي تجعل المدرسة مسرحاً للسلوك
الذي شعاره ، القوة لا الواجب . .

فالمدرس — مثلاً — يضرب التلميذ ، وسيظل يضربه ما دام تمت
شبهان يترأى ان لهواجسه كعفاريت الليل . . ويقذفان في قلبه الطلوع
الدعر والرهبة ، وذاتك الشبهان هما . . « البك » الناظر . .
و « البك » المفتش . .

إن أكثر من تسعين في المائة من المدرسين مرتبى النشء ، لا يعنيه
أن يكونوا عقل التلميذ ، أو يساهموا في تصميم مستقبله . . وإعماهم

يعملون فقط للماء ذا كرتة يضع قواعد ومعارف تدرأ عنهم نعمة الناظر ، وفضول المفتش . .

وهم لا يرهبون « المذكورين » رهبة صيبانية تزجها الهواجس الباطلة . . بل يرهبونهما تنفيذا لقانون وزارة التربية والتعليم .

فالوزارة المذكورة تضع مستقبل الأستاذ في يد الناظر والمفتش . وتعزى الناظر بكتابة « تقارير سرية » ، كما ترك للمفتش أمر تقدير المنزلة التي يستحقها المدرس من حسن أو جيد أو ممتاز . . ويدرك المدرسون هذا فيسارعون إلى إشباع رغبة الناظر الذي يريد بدوره نتيجة حسابية طيبة لمدرسته كي يرقى بها درجة . . ويسارعون إلى إشباع غرور المفتش الذي كثيرا ما تكون تعاليمه مناهضة لما عليه خبرة المدرس بتلاميذه .

إن الهدف الذي يتلأأ أمام أبصار الاساتذة والذي تهوى إليه أفئدتهم ، ليس ذلك العقل النضير المثقف المتراحب الذي ينبغي أن يهيئوه للتلميذ ، وليس هو تلك الشخصية الياقة النامية السوية التي يجدر بهم أن يمكنوا التلميذ من حيازتها . . ولكنه الكلمة المطرية في التقرير السرى للناظر ، ودرجة جيد أو ممتاز ، في التقرير السنوي للمفتش . . ولكي يظفروا بهذا الغرض السريع يتوسلون بالضرب ، المبرح ، وبالشتم المقترع ، وبالتقريع الخزي . . وهكذا يطبعون وجدان الشباب بنشاطهم اللائع ، وسلوكهم الشرس . ومع الأيام يصير السلوك القتالي - شرعة التلميذ ومنهجه . . . ١١

وسبظل انصراف طلابنا عن العلم والمعرفة مدينا بالشكر الجزيل
لعصا الأستاذ وبطش المدرسة . . فالتفنى الإنسانية تحمل أضغانا مؤرثة
لكل ما يسبب لها العذاب والألم . .

ولعلنا نجد نسبة المتدينين بين شباب الجامعة ، أكثر من نسبة
المتدينين من شباب الأزهر . . ولعلنا لو فحصنا حقيقة الأسباب نجد
رابعة لما عاناه طالب الأزهر وهو طفل في سبيل القرآن والدين . .
لظالما اتخفت عصا « الفقيه » من جسده الفضع مرتعا . . لظالما ضرب
وحبس وعذب وأوذى . .

وهكذا انطوى « لاشعوره » في سن مبكرة على جزع أليم تفلت
فيما بعد إلى مسرح الشعور في صورة ذلك العزوف عن الدين ونبت التعاون
معه ، والاستجابة إليه . ، الأمر الذى لا يحدث لطالب الجامعة كبراً ،
لأن أسبابه لم تقتحم حياته صغيراً . . .

فأكبادنا التى تمشى على الأرض . . ولدى وولدك . ، أخى وأخوك . .
زهرات يومنا ، ورجاء غدنا . . هؤلاء التلاميذ لن نصنع لى نملاً نفوسهم
ضغنا على العلم وعلى المعرفة وعلى الثقافة أكثر مما نصنع اليوم بهم في
البيت وفى المدرسة . . إخضاعهم لبأس القوة ، وعدم تعويدهم على
الانفعال بالواجب .

إن روح السيطرة الشخصية تشيع بين مدرسينا شيوعاً يدعو
لوجوب تفهم بواعثها ووقف امتدادها . .

والمدرس لا يعبر عن هذا الروح بالضرب ، والزجر ، والأسراف في

إصدار الأوامر والنوامي فحسب . . بل إن ذلك ليتغلغل في طبيعة رسالته ؛ فيشوّهها .

فمن النادر أن تجد مدرسا يطلب من تلامذته اختيار موضوع الأنشاء الذي سيتحدثون فيه اليوم ، مثلا . . .

فالمنهج الدراسي مظهر من مظاهر امتحان شخصية التلميذ وتجاهلها . ذلك أننا لا نستطيع أن نأخذ رأى الطلاب فيما سنقرره عليهم من مواد وكتب وموضوعات . . بيد أننا نستطيع أن نشعرهم بالمشاركة عن طريق المدرس ساعة إلقاء الدروس وتوزيع المنهج . . ولكن هذا لا يحدث ، لأن شخصية المدرس تموج بالعقد التي لا تسمح له أن يكون ديمقراطيا في مهنته وعمله ، وردّ الفعل المحتوم لسيطرة الناظر والمفتش ووطأة التقارير السرية ، والعلمية ، تجعل منه إنسانا مريضا وشديد الرغبة في الانتقام غير المقصود .

والسيطرة الشخصية المستبدة هي وسيلة للثأر والانتقام . . .
فأرفعوا عن المدرس إصره ، وألغوا التفتيش فإنه « زائدة دودية »
وارفعوا الناظر فوق مستوى الجواسيس ، واستبدلوا بالمفتش نظام المدرس الأول واحصروا مهمته في التوجيه المذهب ، والتعاون المتكافئ . . .

حرروا المدرس من مخاوفه ، فإن عدوى العواطف تنقل كل نقائصه النفسية إلى تلاميذه وإن روح التسلط الهابطة عليه من ناظره ومفتشه لتتخذ آخر الأمر قنطرة تعبر فوقها إلى التلميذ نفسه فتسحقها وتلاشيها . .

إن فلسفة « من علمنى حرفا صرت له عبدا » قد أفسدت أخلاق المدرسة وعطلت رسالتها .

وإن سياسة القوة المسيطرة على المدرسة لتجعل من التلميذ أداة إعداد للمستقبل . . . مستقبل المدرس والناظر ، لا مستقبل التلميذ . . .
وإن إمكانيات التلميذ ليضحي بها من أجل تلك الغاية المسيطرة . .
ترقية المدرس ، وترقية الناظر ، وموقف المدرس من ناظر المدرسة ومن المفتش يحدد نوع سلوكه مع تلميذه ، وهو إلى الاستغلال أقرب منه إلى التربية السوية القويمة . .

فحرموا المدرس من أغلال القوة التي ينوء بها ومكنوه من أن يستلهم في عمله الواجب ، ليختص بعنايته وجهوده مستقبل التلميذ ، ومستقبل التربية ، ومستقبل السلوك الإنساني في هذه البلاد .
وبعد ؛ فلمس في حديثنا هذا عن البيت وعن المدرسة ما ينبغى وجود مناسبات تقتضى استعمال القوة بل والأرغام من الوالد ، أو من المدرس . .
يبد أن هذه المناسبات ينبغى أن تكون طارئة ونادرة بحيث لا تأخذ كما هو حادث عندنا صفة القاعدة والدوام . .

هذا أول . .

والأمر الثانى هو أن التدخل القاهر الطارئ من البيت فى حياة أبنائه ، أو من المدرسة فى توجيه تلاميذها ، لا يضر شيئا عندما يكون نظام البيت والمدرسة قد سادها بالفعل روح الواجب . لأن هذا التدخل القاهر سيكون حينئذ أخلاقيا ، لأنه يتم باسم الواجب ، وفى رعاية مبادئه ووسائله وغاياته . الواجب الأخلاقى ، لا الواجب المهنى . .

ج — الجزء الاجتماعى

وننتقل الآن إلى مظهر آخر من مظاهر إرباء القوة على الواجب في بلادنا ومجتمعنا — حيث نجد الإيمان بالقوة كوسيلة وحيدة لتقويم السلوك ، يأخذ علينا كل سبيل لبعث الأحساس بالواجب في نفوسنا وفي سلوكنا .

وسنسمى الوضع الذى تتمثل فيه هذه الظاهرة المزعجة .

— « الجزء الاجتماعى » . .

ونعنى بالجزء الاجتماعى ، العقوبات التى يرتبها المجتمع لخطاته ومدنييه . . نعنى الأسلوب الذى يشرع به المجتمع الجزاء والعقاب ، والأسلوب الذى ينفذه به تشريعه وقوانينه .

ونسارع فنعلن أننا لا نريد إلغاء القانون . ووقف التشريعات التى تحمى سلامة الجماعة وتنظم علائقها . بل نريد أن يكون القانون في بلادنا علاجاً ، لا عقوبة . .

أجل ، هذا التعبير يحدد تماماً ما نريد . . « العلاج لا العقوبة » .

وإننا نلاحظ أن القوانين في بلادنا العربية كلها إنما توضع للعقاب والتشفي والانتقام . . وليس للعلاج أو الوقاية . . ومعذرة إذا كان في كلامنا عن « قوانين البلاد العربية » كثير من التجاوز والتفاؤل . . !

فالحق أن هناك في بعض تلك البلاد أوامر فقط ، لا قوانين . . أوامر يتجشأها في صلف وجهالة وإسراف ، أحكام كراعة الغنم ، أو شيوخ تخنق في أرديتهم جلائل الموبقات . ١٤ !

ومعذرة مرّة أخرى إذا استعملنا نفس القدر من التجوّز والمبالغة
فيما أسمىناه « سجون البلاد العربية » . . فالسجون في بعض تلك البلاد
شئ لا يزال ينتظر المعجزة التي تستطيع أن تختار له اسما مناسباً . . . ١١
إنك تظلم القبور ، إذا سميتها قبرا . .

وتظلم الحظائر ، إذا سميتها حظيرة . .
وتشوه سمعة « السلخانات » إذا سميتها « سلخانة » ولقد رأيت
بنفسى بعض المناظر والصور الفوتوغرافية . أخذها بعض السجناء خفية
لسجون تلك البلاد ، وجاءوني بها لأنظر ، وأرى . .

ألا صلوا من أجل الشيطان إبليس ، فإنه — إن يكن موجوداً —
ليكون أقرب إلى رحمة الله من أولئك الذين يزجون بالضحايا في تلك
الظلمات التي تسمى سجوننا . . . ١١١

ولكم وددنا لو استطعنا إلقاء هذه البلاد من حسابنا ، لنستريح من
الهموم الثقال التي يؤودنا بها التفكير في ضلال حكامها وقادتها . ، وفي
تعاسة شعوبها وشقوتها . . ولكن كيف نستطيع ذلك ، والذين هناك
جماهير مثلنا ، إخوان وعشيرة ، وناس ينتظرون من كل إنسان كلمة
تسقط عن كاهلهم ظلما ، أو تبعث في نفوسهم رجاء وأملا . .

فإذا رجعنا إلى بعض البلاد العربية المتعدنة مثل بلادنا نجد نفس
المشكلة ، لسكنها من غير شك في مستوى أعلى . . أي نجد روح التشريع
والجزاء عندنا تعتمد على القانون كعقوبة لا علاج . .

والأسراف في العقاب والزجر لم يعد طريقا إلى الفضيلة . بل هو في
معظم ظروفه أقرب الطرق إلى الرذيلة . . والبلد الذي يستمرى هذا

الأشراف فيجلّ بقانون ، ويحرّم بقانون ، لا يلبث أن يصير كالمدينة التي
أهلكها السكوت . .

أتعرفون نبأها . . ؟ إني أقدمه هدية لمصر وما حولها . .

كانت « إميكلى » إحدى مدن اليونان القديمة ، وكانت تزعمها
الأشاعات عن قرب غزو الاسبرطيين لها ؛ فصدر قانون شديد يحرم على
أهلها ذكر كلمة « اسبرطة » ، أو « جيش اسبرطة » ، أو « غزو اسبرطة »
وبعد حين وصل الاسبرطيون الغزاة ، فلم يجرؤ أحد على إنذار قومه . .
ودخلوا المدينة واحتلوها فوصفت في التاريخ بأنها « المدينة التي أهلكها
السكوت »

إن البلاد التي تسرف في التحريم بقانون لا تلبث أن تهلك وتتداعى
تحت وطأة ما كانت تحذره وتخشاه .

أفيعجزنا أن نلتمس من واقعنا الشواهد على إسرافنا في التشريع
الحاظر ، وعلى نظرتنا إلى القانون كعقوبة لاعلاج . . ؟
كان عندنا يوما « بغاء رسمى » ؛ فصدر قانون يحرمه . .

هذا القانون عقوبة ، ولو كان علاجاً ؛ لفكر قبل تحريم البغاء
في عواقب هذا التحريم حتى لا تفشو فاشية البغاء السرى ، والشذوذ
الجنسى ، والسكبت المدمر . . .

لا تظنوا أنني آسف على البغاء الذي ألغى . ؛ ولا تحسبوا أنني
من اللنادين بعودته . فالبغاء رِق بشع ، واستعباد وقح . . والذين يدعون
لعودته ويرون فيه علاجاً جنسياً يفكرون تفكيراً مراهقاً مريضاً

ولو أن لهم بالمجتمع أدنى خبرة ، لأدركوا أن علاجه الجنسي في الصداقة ..
لا الفاحشة .

وإذن فنحن نضرب قانون إلغاء البغاء مثلاً لنضع أمام القارىء صورة
للروح الذى يسيطر علينا في تشريعاتنا . ، والذى لا يحاول أن يجعل
من القانون علاجاً . . حسبه أن يقول : لا تفعل . غير ناهج بالناس
سبيلاً فيما ينأى بهم عن مضاعفات المنع والتحریم ، وغير باذل لهم عوناً
بتشريع آخر أو بنهيج جديد يخفف من غلواء الحظر . ويأخذ بأيديهم
إلى الفضيلة في سكينة وسلام . .

وقانون آخر صدر ونحن ندفع بأصول هذا الكتاب إلى المطبعة -
قانون إلغاء القمار . .

إن القمار رذيلة تهيب برذائل كثيرة ، كالسرقة والاختلاس . بيد
أننا حين حرمانه كرزيلة .

فالقمار - أولاً - كأي شيء آخر يحرم بعنف ، لا ينتهى . بل يختفى .
وفي السر والخفاء يزداد انتشاره وتعظم ضراوته . لأن التحريم يلازمه
الأغراء دائماً . حتى إننا لو حرمانا على الناس أكل الجمر الملتهب ، لتمنوا
أن يذوقوه

وشيء آخر . هو أن لعب القمار في مصر ذو صبغتين . .
فهناك أندية خاصة به وحده . يلعب فيها الهواة والرواد بمبالغ
فادحة . ، هذه مستقر عصابات ولصوص . . .

وهناك أندية اجتماعية وثقافية تتخذ من « اللعب » بمبالغ طفيفة

تسلية وترويحاً دون أن يكون الأثراء عن طريق اللعب غرضاً - أدنى
غرض - للنادى أو لأعضائه . .

وقد تسأل : لماذا إذن يلعبون بهذه المبالغ الطفيفة . ؟
إن الإجابة على هذا السؤال هى أيضاً موضوع نقدنا للتقنين
الذى يجيد أن يكون عقاباً . أكثر مما يجيد أن يكون علاجاً . .
فأعضاء هذه الأندية يلعبون على مبالغ طفيفة لأن هذه المبالغ
تذهب إلى النادى . .

وأنا أعرف بعض الأندية التى كان هذا اللعب الهامشى يدرّ لها كل
شهر مبلغاً يتراوح بين مائة وخمسين جنيهاً ومائتى جنيه .
وسوف تعلق بعض تلك الأندية أبوابها تحت وطأة هذا العجز المالى ..
فلماذا لم يفرق القانون بين أندية القمار الخاصة ، والأندية الاجتماعية
التي تتخذ منه تسلية عابرة لأعضائها وسبيلاً لدعم وجودها . . ؟
وإذا كان هذا النوع الأخير من « اللعب » ضاراً ويجب حظره . ؟
فهل فكر التشريع أو المشرع فى طريقة يعوض بها الأندية الاجتماعية
والثقافية ذلك العجز الذى سيهدد بقاءها . .

كلا . . فالقانون لم يشر لذلك قط ، وأغلب الظن ، بل أغاب اليقين
أن الدين شرعوه ووضعوه ليعلمون شيئاً عن هذه التفرقة التى ذكرناها ..
إن الأندية الاجتماعية المهذبة تؤدى للفضيلة دوراً سامياً . .
إنها تأخذ أعضاءها من المفاهى ، ومن الحانات المبتذلة ، وتشغل
بأشياء لا بأس بها ، وقت الفراغ الذى ثبت أنه الوحش الضارى
الذى يلتهم أخلاق الناس .

وأنا شخصيا ، أوافق على إلغاء القمار في شتى صوره ومظاهره . حتى في تلك الأندية التي أدافع عن مستقبلها . ولكي أستكر الطريقة التي نستعمل بها القانون لمحاربة الرذيلة .

فمثلا ، لكي يكون هذا القانون علاجا خلقيا ، كان ينبغي أن يدرس أولا كافة الظروف والملابسات . ثم ينتظم نصا بتعويض الأندية الاجتماعية من صندوق وزارة الشؤون ، بدلا من المبالغ التي كانت تحصل عليها من « لعب التسلية » حتى لا تضطر إلى إغلاق أبوابها حيث تنفتح بهذا الأغلاق أبواب شرور كثيرة ورذائل شتى .

وخذوا مثلا آخر . ذلك القانون الذي صدر منذ عام وبضعة شهور ..

والذي يجعل الصلاة إجبارية في المدارس . . .

تري هل يعلم الدين أصدروا هذا القانون ، أن مظاهر الصلاة في المدرسة أصبحت منذ صدوره أكثر خفوتا وتلاشيا . . ؟

لا بد من رفع وطأة القانون عن الأخلاق ، إذا كنا جادين في نشدان أخلاق سوية لأمتنا . فالقانون قديفاج - بعض الوقت - في أن يهب بعض الناس أخلاق العبيد ، أخلاقا تحفز إليها الطاعة والخوف . . لا الاقتناع والواجب . . ، ثم هو فيما وراء ذلك فاشل

فاشل . . .

وتعالوا نجب معاً على هذا السؤال :

ما علاقة القانون مثلاً بالكذب ، والجبن ، والفاق ، والغرور ، بل وبالزنا نفسه عندما تكون المرأة راضية . . ؟

هل نستطيع أن نكافح رذائل النفاق ، والخنوع ، والكذب بقانون . . ؟

وإذا كان القانون هو النص الذى يتضمن الجزاء والعقاب : ، فإن السجن ، هو الأداة التي ينفذ بها المجتمع أو الدولة مضمون ذلك التشريع . أجل - القانون نص . ، والسجن أداة . .

والاثنتان يشبهان حجرى الرعى . يطحنان فى بلاهة وقسوة كثيرا من احتمالات الهداية والفضيلة والخير . . . ١١

إن السجن فى بلادنا يقوم بدور فعال فى تعويق المسلك الخلقى للمجتمع . وسأحدثكم عن هذا بعد أن أسألكم : هل تعرفون شيئا عن الحياة داخل سجوننا ؟ ؟ . .

هل قرأتم - تلك الحكمة التى تتلأأ على حبين كل سجن كبير « السجن تأديب ، وتهذيب ، وإصلاح » . . . ١٢

فى عام « ١٩٣٧ » أخذت إلى سجن مصر متهما بتحريض الطلاب على الحكومة القائمة يومذاك . . . وإلى أن يفصل القضاء فى المعارضة المرفوعة منى ومن زملائى الذين سجنتم معهم ، كان لا بد أن تقضى بضعة أيام فى ذلك السجن المهيّب . .

وفى « زنزانة » حجرة صغيرة تصلح عشا لعصفور ، وضعت وهناك . كان فى استقبالى داخل هذه « الزنزانة » أربعة زملاء يفرض قانون السجن عليك صداقتهم وزمالتهم قرضا . .

أولهم — « برش » تفرش به الأرض . .

وثانيهم — « برش » تتقى به البرد . .

وثالثهم — « إناء » تتبول فيه ..

ورابعهم — « إناء » تشرب منه . . . ١١

وقضيت الليلة الأولى .. وفي الصباح فتح الحارس الباب وناداني قائلاً :

— يا اللا يا جدد شيل . .

فأجبته : أشيل إيه ؟ ؟

فقال . « البلاوى بتاعتك دى » . . وأشار إلى وعاء البول . .

وكنت حتى هذه الساعة أظن أن هذا العمل ليس من اختصاصى .. فساءلته :

— أنا الذى سأحمله وأريقه . . ؟ ؟

فأجاب وهو يقهقه :

— لا . . دا البيه مأمور السجن هو اللى يشيله وينغسله . . ! !

وأطلق من حلقومه صرخة كرثير الأعصار . طالباً منى أن أحمل

« البلاوى بتاعى » وقد كان . .

وفي اليوم الثانى فتحت الأبواب ، وساقنا الحرس فى طابور إلى

الطبيب . . وهناك رأيت قطيعاً مكدساً كالأغنام . بل إن هذا التشبيه

ليقتضينا أن نعتذر للأغنام . . ! !

وفي اليوم الرابع ، صاح فينا مناد من الحرس . أن هيا إلى العروسة . . .

وسألت الرجل :

— عروسة إيه . . ؟

فأجاب : دلوقت تعرفها . .

وهناك فى فناء من أفنية السجن ، وقفنا تجاه « العروسة » . .

هيكل من الخشب على صورة إنسان مبسوط الذراعين ، منفرج الساقين ! !

وعرفنا من السجناء القدامى نبأ هذه العروسة . . إنه الجهاز الذى

يثبت عليه ويشد إليه كل سجين توقع عليه عقوبة الجلد . .

وازددنا معرفة . عندما استقبلنا « جاويش » يخبرنا أننا سنشهد
الآن زميلاً لنا سيجلد . .
لماذا . . ؟

لأنه خالف تعليمات السجن . .
وأخبرنا أننا نشهد عقوبته وجلده . ليكون لنا فيه عبرة وعظة . . .
في أربعة أيام فقط ، رأيت هذه المشاهد الموبقة البشعة ، فهل هذا
هو كل ما هناك . . ؟

في عام — ١٩٥٠ — وقف متهم أمام قاضيه الذى وجه إليه .
الحديث قائلا :

إن « سوابقك » فى الأجرام قد بلغت التاسعة والعشرين . والجريمة
التي تحكم الآن عنها ترتيبها الثلاثون . .

ولم يصبر المتهم حتى يتم القاضى حديثه فصاح وفى كلامه رنين الصدى :
— « والله يا بيه ، أول مرة كانت بتاعى صحيح . ، والباقي كله بتاع
الحكومة » . . .

ولما سأله القاضى إيضاحاً قال : إنه ارتكب أولى جرائمه بجهوده
الشخصى وخبرته الخاصة ، أما بقية جرائمه فقد تعلمها فى السجن من زملائه
وكان كلما عاد إلى السجن تعلم شيئاً جديداً . .
ومن الطريف أن القاضى سأله :

— أليس تعلمكم السجن شيئاً غير الجريمة . ؟ أليس هناك محاضرات
دينية ، وواعظ يث فيكم روح الخير والهدى . . ؟
فأجابه المتهم . .

— واعظ . . ؟ دا احنا مرّة خليناه بيوعظ وسرقنا سبيحته

الكهرمان . . .

إن اعتراف هذا المسكين التعس تصوير دقيق وصادق لسجوننا .

إن السجن في بلادنا أبعد ما يكون عن التأديب والتهذيب ،

والاصلاح . . .

إنه « معمل تفرغ » للجريمة والمجرمين . وهو بنظمه القائمة لا يمكن

أن يكون إلا هكذا . .

ولكى تنصروا عواقب حياته الخميدة (١٩) في أخلاق الأمة .

فليس عليكم إلا أن تبصروا تلك الصفوف الطويلة التي تدخله كل عام ،
وتلك التي تعادله كل عام . ثم تنصروا مجموع هؤلاء وهؤلاء في عشرة

أعوام مثلاً . .

ستجدونه بشراً عميقاً تقذف إلى المجتمع دوماً وباستمرار بشراً الجرائم

وأشدّها ضراوة وفتكاً . .

إن السجن كالقانون يجب أن يتحوّل من عقاب إلى علاج . . ومن

أداة تعذيب ، إلى وسيلة تهذيب . . .

وذلك يقتضى انقلاباً شاملاً في نظمه وتقاليده .

لماذا يحرم السجين المتزوج من لقاء زوجته كل عام بضع مرات . . ؟ ؟

وماذا ننتظر من السجناء أن يفعلوا تجاه هذا الحرمان ؟

إن سجلات الحوادث في السجن تهيئنا في خجل واستحياء . .

فالرجال هناك يعانون حرماناً جنسياً ساحقاً ؛ فتتجرّف طبيعتهم

اليائسة شطر « المثلية » ، يلتمسون فيها العزاء . .

وإن لنا لبرة في المأساة التي كان أبطالها « توفيق محمد حسن ، وعبد الغفار سعداوى ، وطه محمد مهدى » السجناء بسجن « لين طره » فقد تنازع « توفيق ومهدى » الرجل الثالث وتغلب « توفيق » فاستأثر به لنفسه . . . وذات يوم والثلاثة يعملون معاً في مصنع صابون السجن فاجأ « مهدى » غريمه « توفيقا » بضربة قاتلة تركته جثة هامدة ، واعترف بسبب جنايته . . . والعجيب أن « مهدى » القاتل كان مسيحياً . واسمه « اميل ميلاد حنا » وقد أسلم في الأيام الأولى لدخوله السجن ، واستعان بالاستقامة وبالصلاة . ولكن حياة السجن وانظمه لم عمله إلا قليلا . . . حيث وجد نفسه مضطرا لاغتنام الجرائم والردائل التي انتهت بالشذوذ وبالقتل . . .

قد يسأل سائل ، عما إذا كنا ندعو لتدليل السجناء وتحويل السجن إلى منتدى يضم وسائل الترفية ومباهج النعيم . . . ؟

ونجيب من فورنا : نعم ، نريد أن يكون السجن منتدى يضم كل وسائل الترفية ، بيد أننا لا نرى في هذا تدليلا ، بل علاجاً وإصلاحاً . وإنا لنسأل بدورنا : ما الحكمة المرجوة من سجن المذنب . إصلاحه ، أم تعذيبه ؟ ؟

إذا كان إصلاحه هو الغاية ؛ فما أبعد القسوة عن أن تكون علاجاً أخلاقياً ، وما أعجز سجوننا بنظامها القائم عن أن تهدي ضالاً ، أو ترشد حيران . . .

وإذا كان التعذيب والعقاب هما الغاية من سجنه ، فنسأل
سؤالاً آخر :

— هل نعاقب المذنب لأنه أساء في الماضي ، أم نعاقبه كي لا يسيء في
المستقبل . . ؟ ؟

إذا كان الأول ؟ فما أشد حماقتنا وأدعائها للبراءة لأننا نعاقب على
عدم ، ونفعل كالمعتوه الذي ينشر النشارة . . .
وإذا كان الثاني ؟ فإن خطأنا إذن لويل . فالجسد الذي نعذبه ،
والروح التي نشوهها ، مجنى عليهما . إن الفاعل الأصلي هو الإرادة
بما يكتنفها من ظروف صاحبها ، ودواعي يبيتها . والإرادة الإنسانية
لا ترتدع بالقسوة . بل كثيراً ما تشدّ القسوة فيها زناد المقاومة
والانتقام .

وهبوا السجن بما فيه من تعذيب وتكيل استطاع أن يهزم إرادة
المذنب ويبيدها . فماذا سنكون قد ربّحنا . . ؟
لا شيء . . بل سنخسر إنساناً . . .

على أنه هيات أن نمحو «الإرادة الإنسانية» من إنسان أونهمزها .
إن المجرم المصطلي بعذاب السجن لا ينهمز فيه إلا جسده . أما إرادته ؛
فمنالك في أقصى كيانه تصطك أنيابها المدخرة ليوم لا ريب فيه .

على أن نظرتنا للمجرم جديرة بالتعديل والتعلية ، إذ هي تنطوى على
تجاهل ظالم لظروف ارتكابه وانحرافه . كما تنطوى على ضحالة الإدراك
لحقيقة هذا الذي نسميه مجرماً .

إن شر أنواع المجرمين عندنا هم أولئك الذين تعودوا الأجرام . .
ومع هذا فوراء ذلك في نفسية المجرم فضيلة باهرة يكشف عنها العلامة
الفرنسي « جويو » ألا وهي الشجاعة وحب الخطر . .
أجل ، إن المجرم الذي تعود الأجرام رجل قامت بينه وبين الأخطار
مودّة وألفة ؛ فلم يعد يخشاها أو يفرّ منها — إفكم تكون مغامنا جزيلة
إذا استطعنا استنار هذا الطراز من الناس ، وحولنا شفهم بالخطر من
ذلك الخطر العدواني إلى الأخطار الجليلة الرائعة الهادفة . . ؟
لقد كانت الأمة الانجليزية ذات يوم أمة من المجرمين . . أى أمة
تعودت الأخطار ، وعشقت المغامرة . . ولعل هذا يعطينا تفسيراً لفضيلة
الثبات التي يضربها الشعب البريطاني عندما تدمم عليه الحروب
والأزمات والكوارث .
فليكن هذا الفهم رائدنا ونحن نعالج مشاكل الجريمة والمجرمين
في بلادنا . .

إننا لانصنع شيئاً ذاقية عندما نكس السجناء داخل ججور
خربة معتمة . بيد أننا نصنع الحاضرنا ومستقبلنا كل خير عندما نبذل
من جانبنا جهداً نحول به جريمة المجرم إلى بطولة ، فستثمرهم
في المشروعات التي تحتاج إلى جهد ومغامرة . ونعامهم كأناسي وبشر . .
إن السجن المصري كما ذكرنا قبلا ، بئر بعيدة الفؤر تعج بما تقذف
به إلى المجتمع من سيكروب وجرائم . فلنعد النظر فيها جميعا على ضوء
ما ذكرنا وما نذكره في هذه السطور ، وعلى ضوء حاجتنا الملحة إلى
تطويرها وتهذيبها .

لماذا نباعد به الرجل وزوجه خمس سنوات ، أو عشرًا ،
أو خمسا وعشرين . . ؟

وماذا تفعل الزوجة خلال هذا الدهر الطويل . ؟
ذات ليلة مر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بامرأة قد أضناها السهر .
وكانت تنشد حسراتها فى هذه الأبيات من الشعر :

تطاول هذا الليل وازورّ جانبه وليس إلى جنبى حليل أداعبه
فوالله ، لولا الله لارب غيره لزلزل من هذا السرير جوانبه
مخافة ربى ، والحياء يكفى وأكرم زوجى أن تال ركائبه
واقشعر كل ما فى ابن الخطاب من صلابة وجبروت . وسأل عن نبأ
للرأة ؛ فعلم أن لها زوجا طال غيابه فى جيش المسلمين الذى توجه لبعض
الغزوات والفتوح . .

وذهب إلى ابنته « حفصة » يسألها :

— يا حفصة ، كم تصبر الزوجة على زوجها ؟ ؟
وإذ تنجّل « حفصة » وتوارى وجهها بردائها ، يصرخ فيها عمر قائلا :
— أجيى ، وأنقذى أباك من عذاب أليم . . .
وتجيبه « حفصة » :

— تصبر شهرين يا أمير المؤمنين ، وتجالد نفسها بعد الثالث . ونفقد
صبرها بعد الشهر الرابع .

ويخرج عمر فوراً ، ليضع قانونا يحرم على قواد الجيوش أن يستبقوا
« متزوجا » بعد أربعة أشهر . بل يرجع إلى أهله ويقضى بينهم وقتاً
كافيا ثم يعود . . .

ما أحوج سجناءنا إلى قانون كقانون عمر الذى اشترعه منذ ثلاثة عشر قرناً . . .

ولابد من وضع نظام يتيح لكل سجين زوج ، أن يقضى مع أهله أسبوعاً أو أسبوعين فى فترات مناسبة . . ولن تكون حوادث الحرب ، كما ستصورها ملنا مخاوفنا أبداً . .

ولابد من وضع نظام يتيح للسجين العزب الذى يريد الزواج أن يتزوج . . ولابد من تحويل السجون إلى أندية تنتظم كل وسائل التسلية والترقية مع ما يتيسر من وسائل الإنتاج . .

ولابد من إدخال « السينما والراديو » على نطاق واسع فى تلك السجون التى ستتحول إلى أندية ، لينساب رى الثقافة والفن فى النفوس الجافة اليابسة فتردهر فضائلها السكامة وترتعرج .

ولابد من إلغاء مظاهر الوحشية كافة ، من جلد ، وتعذيب ، وأبراش . و « حمل البلاوى » فى الصباح وفى المساء . . . ١٩

ولابد من تغيير ذلك اللباس الردىء السكالح الذى نلبسه سجناءنا . . أقسم ، لو أن « ملاكا » لبس هذا اللباس شهراً واحداً لنفت فى روعه شعوراً ماحقاً بالهوان والضعف والتعاسة ، ولا اكفهرت كل فضائل نفسه المزدهرة وخباياؤها . . ١٠

وكذلك نرى أنه لابد من اختصار المدة المضروبة للسجن المؤبد . . وجعل حدها الأقصى خمسة عشر عاماً . وإلغاء « المراقبة » التى تطارد بها النزيلة بعد مغادرته السجن .

إننا نعاقب المجرم كما قلنا لنزجره عن الأساءة فى المستقبل . وخير

ما نصنعه لبلوغ هذا الهدف ، هو التقويم ، لا التحطيم . . وسجوننا
بحالتها الراهنة لا نستطيع إلا أن تحطم إنسانية السجين وتشوه روحه . .
أما تقويمه ، فأنى لها ذلك وليس فيها من وسائل التقويم والتربية شيء . . ؟
بقيت واحدة . ، ياليتنا نوفق للاقتناع بها . .

إلغوا كلمة « السجن » . . وضعوا بديلها « المرفأ » . .
سموا السجون « المرافق الاجتماعية » فالحق أنها يجب أن تكون
كذلك . . يجب أن يكون السجن « مرفأ » يستجيب فيه للذنب من
أمراض نفسه وسلوكه حتى يعافى . .

صحيح أنه ليس في دول العالم من استعمل هذه التسمية . . ؟
ولكن أى بأس في أن تقدم نحن للعالم هذه الهدية . . ؟ ؟
إن المستقبل القريب للإنسانية لن يعترف بكلمة سجن . بل لن
يعترف بالسجون نفسها . .

فلنذكر التاريخ أن أمتنا أول أمة حولت السجون إلى « مرافئ »
ونجبت الإنسان من وطأة التسمية البغيضة « السجن » . .
ولكن هذا الاقتراح يتحول إلى سخرية إذا أعطينا سجوننا هذا
الاسم وهمى على وضعها القائم . ، فلنحولها إلى مرافئ بالقول وبالفعل . .
احذفوا من منهج القضاء كلمة « شاقة » فإنها كلمة غير إنسانية . .
بل واحذفوا كلمة « أشغال » راصطنعوا بديل الكلمتين كلمة حلوة
وديدة هي . . « العمل » .

ألا ما أروع تلك الساعة وأبهجها التي تصدر فيها أحكامنا
القضائية هكذا :

« يا عبد الفتاح . . لقد اقتنعت المحكمة بأنك مسيء . . ورأت أن تحكم في قضيتك باجتماعك خمس سنوات في المرفأ الاجتماعي مع العمل . . »

إنكم تلاحظون أننا وضعنا كلمة « مسيء » مكان « مجرم » أو « مذنب » وكلمة « الاجتماع » مكان كلمة « السجن » وعبرة « المرفأ الاجتماعي » مكان كلمة « السجن » وكلمة « العمل » مكان عبارة « الأشغال الشاقة » وتلاحظون أيضا ، أن الكلمات التي ندعو لحذفها جارحة ومتوحشة ، تنهش كرامة الإنسان نهشا وبيلا . .

والمذنب مهما يكن ، إنسان . وليس الخير في نخطمي به في تقويمه . وكما قال السيد المسيح « إن الله لا يسر بموت الشرير . بل بأن يرجع الشرير عن طريقه ويحيا » . .

وهذا القدر من الحديث عن « الجزء الاجتماعي » نكون قد أشرنا إلى أثر القانون والسجن في دعم أخلاق العبيد الباجمة عن سيادة القوة والأرغام . فلتنتجبه الآن إلى ممكن آخر من مكان هذه الآفة . . ممكن لعله لم يخطر ببالنا أن يكون صاحب دور مخرب في محاولة الاكتمال الخلقى الصاعد للأمة . .

أنتعرفونه . . ؟؟ ها أنذا أقدمه لكم :

الرأي الرابع . . . ! !

يلعب الرأي العام دوره كقوة ملازمة ينفشى الناس عصيانها ويهاونون نفوذها . حتى أشدهم بأسا ، وأمضاهم قوة ، من الزعماء والقادة ،

كثيرا ما يذعنون للرأى العام إذعانا ليس من دوافعه الاقتناع بما لهذا
الرأى من وجهة نظر ، وكمن قائم وزعيم أودت به السائرة الجارفة
للرأى العام ، وصيرته من الهالكين ...

وعند ما يكون الرأى العام ضحلا ، غير ممتلىء بالمعرفة . . نجيا ،
لم تنضجه الخبرة والتجربة . ؛ فأنه يكون من الممكن أن يتحول إلى
كارثة غير ممتعة . . .

بيد أن ذلك لا يبرر تجاهله أو قهره . إذ لا غنى للجماعة إنسانية عنه .
وإنما يدفع إلى إفساح طريق النمو أمامه ، وتهية جميع الفرص التي تشد
أزره ، وتشجذ إمكانياته .

والحظ الواجب توفره للمجتمع كي يتكون فيه رأى عام مستنير وحر ..
هذا الحظ من الثقافة ، والتجربة ، والحرية ، والذي لم يتوفر لمجتمعا
العربي على الوجه المطلوب . يجعلنا نقرر مطمئنين أن الرأى العام في هذه
الرقعة من الأرض - مصر وما حولها - لا يزال جنيئا ، يدعونا للحذر
منه . . والحذر عليه . . ويهيب بنا كي نعمل صادقين لأعطائه فرصة .

أجل ، إن في بلادنا طلائع رأى عام تشجع على الثقة بمستقبله . وإن
يرتكب أحدها - حاكما كان أو محكوما - جريمة أشنع من الجبر على هذا
للمستقبل . والضغط على الطلائع البازغة كشعاعات الفجر . وتضليل
زحفها لليوم وخطواتها الباسلة . .

إن الرأى العام ضرورى للأمة ، ضرورة الصباح في أرض يطمسها
الظلام وتغمر أرضها الشظايا والحفر . .

وإذا كان موضوع البحث سيقصر حديثنا على حتميته الأخلاقية ،

فلن يكون معناه أننا نتجاهل حتمياته الأخرى السياسية ، والاجتماعية والثقافية . .

والآن . ما صلة رأى العام بالمسلك الخلقى للمجتمع . ؟
إن الإنسان كما نعلم — كائن اجتماعى — يتأثر عن طريق المشاركة الوجدانية وغيرها من النزعات والغرائز بسلوك الجماعة ورأيها .
ويستطيع كل امرئ منا أن يذكر الرغبات والشهوات التى يتنازل عنها ، لا زهداً فيها . ولا بدافع من خوف دينى . . بل بحافز الخوف الاجتماعى . الخوف من نقد المجتمع ، وقسوة حكمه وتقديره . .
كما نستطيع أن نبصر تلك الفضائل التى تفعلها كارهين . لىكى نظفر برضاء الجماعة وحسن تقديرها لنا . .

ومعنى هذا أن رأى العام يقف على رأس البواعث الخلقية . ونجد أنفسنا مضطرين فى كثير من الأحيان إلى استحسان ما يستحسنه واستهجان ما يستهجنه . فإذا كان على إدراك سليم للفضيلة الصحيحة ، والرذيلة الحققة ، فإنه يكون ميزاناً دقيقاً وصالحاً للسلوك . أما إذا أدرك مسائل الأخلاق إدراكاً غيبياً ، وقاس الفضيلة والرذيلة بمفاهيم جاهلة أملت على رواسبه وتقاليده ؛ فإن الأمة تتحول من حيث تدرى أو لا تدرى إلى وكر عظيم من أوكار الرذيلة والضلال .

وإذا كان من المؤسف أن نعرف بأن رأينا العام من هذا الطراز ؛ فإن من الخير أن تحفزنا هذه الظاهرة إلى تلاقى ما ينبج منها من عواطف وأضرار . .

فلنا إن رأينا العام لا يزال جنيناً ، علينا أن نحذره ونحذر عليه . .

ونحن نعى بالحذر منه ألا نستسلم لميوله ونزواته وأحكامه ، ونعى بالحذر عليه ، ألا نضائل من فرص تطويره وتنميته . فالسبيل الحق لوقاية الأمة شر الانتكاسات الوييلة يتمثل أكثر ما يتمثل في إحياء كل الطاقات الذهنية ، والشعورية ، والأرادية في رأى عام شامل يستمع على الاستهواء الباطل ، والمسكر الخبيث . وما لم نفعل ؛ فسيظل رأينا العام كما هو . دمية يعبث بها الحواة الذين لا تخلو منهم أمة . والذين يموتون فور ظهورهم إذا جاء هذا الظهور وسط جماعة يقظة ، ورأى عام فطن وحصيف . .

وقد يتوهم الذين يعيشون في العاصمة وجود رأى عام شامل . بيد أن الربف يموج موجاً بالذين لا يعرفون إلا أنهم لا يعرفون . . الذين إذا هبط أحدهم عاصمة بلاده فسكر في شراء « ترام » أو « ساعة » من ساعات الميادين العامة . . ١

وحق الذين يعيشون في العواصم والمدن يندر فيهم من نجد له مكاناً في الطليعة الواعية الناشئة التي قلنا إنها تمثل بداية مشجعة لرأى عام فسيح . هذا الرأى العام في بلادنا مريض بالجهل وبما يستتبعه الجهل من آفات التزمت ، والتعصب ، والخوف . . والنفاق الاجتماعى الذى يصد عن طلب الحق ونشدان السكال . ومن هنا تجمىء جنائته على الفضيلة والأخلاق . .

كيف يتصور « رأينا العام » الفضيلة . . ؟ ؟

إذا كنت تصلى ، وتصوم ، وتجنب الخمر ، وتأنى عن النشاط الجفسى المحظور . فأنت قديس عظيم . حتى حين تكون شخصيتك منحلة

انحلالا كاملا . فتؤثر الجبن على الشجاعة ، والداهنة على الصراحة ، والهوان على الأنفة ، والشح على الجود ، والجود على التطور ، وتأن كل الحرام ، وتتحايل على الحق ، بل وتمثل دور « يهوذا » من أجل مطمع فان وغرض زائل . . كل هذه اللويقات لن تخلع عنك صفة الصلاح والاستقامة في نظر الرأي العام الذي لا يكاد يعرف شيئا عن هذه الشوارد

التي تسمى « الأنفة ، والصراحة ، والحقيقة ، والتطور » . . ١٩ .
لسوف نتحدث إن شاء الله في الفصل القادم عن مآتي هذا القصور والعلى والبلاهة التي يدرك بها « رأينا العام » مشكلة السلوك الإنساني .
وحسبنا هنا أن نكشف عن خصاله المعرقة لنموه ، وأيضا لنمو اكتمالنا الخلق الذي تريده .

إن الرأي العام عندنا يحصر الفضيلة والرذيلة في « المسئلة الجنسية » أكثر مما عداها . ونحن لا نزيد أن نقض من قيمة « الاستقامة الجنسية » أو أن نضائل من شأنها وحتمتها . ولقد أكدنا هذه الحتمية في كتابنا السالف « هذا . . أو الطوفان » .

وحذرنا من « العريضة الجنسية » كهواية ، أو كعلاج . . وقلنا إن الانطلاق الجنسي الجامح يفر بصاحبه من كبت خطير إلى كبت أخطر ، هو كبت « الحاسة الخلقية » . ثم دعونا إلى الاعتدال وبرمينا له منهاجا . .

إذن ، فنحن حريصون على وضع الاستقامة الجنسية داخل منهجنا الخلق . . بيد أن ذلك لا يعنى أن نترك الأحساس بها يطنى على وجداننا ، ويتحول إلى « هستيريا مقدسة » . . إن ذلك الأغراب فضلا عن كونه

غير منطقي وغير سوى . فهو يسدل ستاراً كشيء على الجوانب الأخرى
للساوك وللفضيلة وللزيلة . ويحرمانا بالنالى من معظم فضائل العصر
ومحاولاته الأخلاقية الرفيعة . . .

وأضرب لكم مثلاً : الاختلاط . .

إن الاختلاط الجنسى فى العمل ، وفى العهد ، وفى النادى . قد صار
رغم بعض الأخطاء التى يفرزها ، فضيلة من فضائل عصرنا ، ووسيلة
مجدية للاستقامة الجنسية الياعة . .

ومع هذا ، ورغم الطرقات العنيفة والمتساوقة التى نزلت ولا تزال
تنزل على وعينا الحليم (١) فلا يزال « رأينا العام » يحذرده ويخافه
ويستنكره . . . ١١

بل إن الجامعات العلمية عندنا لتقدم لنا شر ألوان هذا الحذر وأغناه
بالفسكاهة والفجعية . فالتالبات فى بعض المدرجات يتخذن صفوفا خاصة
بهن . وإذا حدث أن اقترب منها بعض الطلاب غضبن . ؟ فإذا تدخل
الأستاذ ليقنع الطالبات بأنه لا بأس بأن يتسع الصف لزملاء . لا سيما وهم
فى قاعة علمية ، لا فى صالة لهو . . . تجيب بعض الطالبات :

— والله ، دى أوامر البيت . . . ١ ؟ حدث هذا فعلاً .

مع أن كثيراً من بيوتنا الفاضلة (؟) التى تريد أن تدير الجامعة
من المطبخ . لا تعلم شيئاً مما يجب أن تعلمه عن البيت نفسه . . .

وكم من فتاة تتظاهر بالعزوف عن الاختلاط الشريف المذهب . ،
وكم من فتى يتظاهر أيضاً ، ثم لا يكون هذا التظاهر سوى تعبير مبين

عما يعجّ به « اللاشعور » من رغبات لاهثة مسعورة ، وما ينطوى عليه السلوك من نقائص مستورة . .

إن جهل « رأينا العام » وصخريته يدفعانه إلى التزمت ، والتعصب وهنا يتجلى دوره كعامل من أهم العوامل الممكنة لسياسة « القوة . . لا الواجب » .

فالتزمت والتعصب لا يدعان ضحيتهما يعترف بوجهة النظر الأخرى . ولا يجدوى الاقتناع في ثبات الفضائل ورسوخها . ويحفزانه إلى التوسل بالأكره والقسوة . لبلوغ الغرض الظلم الذى يحمضانه . . وحين يرفع رأى العام سوط قممته ليهوى به على الخارجين عن طاعة تزمته وجهالاته ؛ فإن الطريق يفتح لكل رذائل النفاق ، والضعف ، والكذب ، والجود . . ويحاول الناس أن يذبحوا لأنفسهم شخصيات مستعارة يستردون بها فى السر ، ما يسليه منهم الأذعان للرأى العام فى الجهر . . فيظهرون فى أردية الشرفاء عندما تقع عليهم الأعين . حتى إذا خلوا إلى أنفسهم أتعبوا رذائل الأرض ، وأنهكوا قواها . . .

وليس ذلك خسب . بل إن تزمّت رأينا العام ليؤخر مجيء الحقيقة ، ويحول دون ظهورها . ولقد علمنا قبلاً أنه بدون حقيقة لا توجد فضيلة . . وكذلك يطارد الشجاعة الأدبية اللازمة للبحث عن الحقيقة . .

إن أرضنا قلما تنجب رائداً باسلاً وتجود بمفكر حر يضع كل ترغيب الحياة وترهيبها تحت قدم الحقيقة ، ثم لا يفتنه عن الولاء لها شيء من أشياء الوجود . .

وهذا الطراز من الرجال ، هو الممرّاج الذى يأخذنا صاعدين إلى

الكامل الميسور . ، وما دام حظنا منه قليلا ؛ فلا أقل من أن نتيح الفرصة لرواد الدرجة الثانية ، والثالثة . . لينموا ويعوضوا عقمنا المؤذي وهل نجود بفرص الأنعام هذه ، حين نلوح بالوعيد والتهديد للذين إذا جاءوا بما لا تهوى أنفسنا وتقاليدينا ، قتلناهم ، أو ألقاناهم ، للهرب والآنزواء . . ؟ ؟

أبدا . . وإن الكارثة لتجل عن الوصف إذا كان الرأي العام هو الذى سيتولى مهمة الأجهاز عليهم ، أو ترويعهم . . هنالك ، تموت الشجاعة ، وتموت فى أثرها الحقيقة ، وتندرج معهم فى كفن الواحد ، الفضيلة . . .

وأضرب لكم مثلا - ذلك العالم الغربى الذى اشتغل بالطبىعيات حتى حق كفر بالله . ورد إلى الطبيعة وحدها كل ما فى الوجود من موجود .. وبعد سنوات ألف كتابا ينادى فيه بصوت جهر :

— يا أيها الناس . ، يا أيها الشباب . ، ارقصوا . . . وهو طبعا ، لا يعنى بالرقص الذى مجده ودعا إليه ، رقص البطون المألوف عندنا . . بل يعنى تلك الحركات التوقيعية المعبرة التى يؤديها الرجل والمرأة معاً فى تسام وتعاطف .

ترى لو كان ذلك العالم الشهير فى مجتمعنا ، وفعل هذا ، أكان رأينا العام سيتلقى صيخته فى فهم ، أو حتى فى إعراض هادى . . ؟ ؟
طبعا لا . . لماذا . . ؟ لأن رأينا العام لا يعرف عن المرأة إلا أنها أداة للهو الجسد . . ولا يعرف فى المرأة شيئا يدعو لعشقها واحترامها سوى مفاتها المثيرة . ليس فيها من الفكر ، ولا من الروح ما يجذب

ويدعو . . وكل خطوة نحوها فهي خطوة إلى الفاحشة . وإذا كان يجفل من الاختلاط في دور العلم فكيف به يسمح بالرقص مهما يكن نظيفا . . ؟؟ إن هذا الرجل - إذن - مارق ماجن أفاك

ومع هذا ؛ فاسمعوا بقية النبأ . ، إن ذلك العالم بعد أن هرب من الله عاد إليه ، وجعل عنوان الكتاب الذى تحدث خلاله عن الرقص . « الرجوع إلى الله » . . وتحدث فيه عن البواعث التى ردت به إلى الإيمان ، والتى رأبت صدع نفسه ، وجمعت شتات سكينتها . ومنها الرقص . . قد يكون الرجل مخطئا . بل لنفترض هنا أنه كذلك فعلا . . مخطيء ضل سواء السبيل ولكن ، هل هذا هو الخطأ الوحيد الذى وقع . . ؟؟ إن المجتمع - أى مجتمع - يشهد كل يوم حشداً هائلا من الأخطاء الفنية ، والسياسية ، والاقتصادية . فيتسامح معها ويكتفى بأصلاحها . . فلماذا لا يتسامح أيضا مع الخطأ الخلقى . ، على فرض أنه كذلك . . ؟؟ هنا تظهر الآفة واضحة . . وهنا يستبين الفارق الكبير بين الرأى العام المستنير والرأى العام المظلم . .

فالأول وقد برىء من الجهل والتزمت ، يزن الخطأ الأخلاقى بنفسه . . الميزان الذى يزن به الخطأ الفنى ، أو الخطأ السياسى . .

أما الثانى ، فيأزره به حمله وتزمته إلى حماقة مضحكة . تتمثل فى تسامح سخى مع الخطأ الفنى ، أو العلمى . . وحرب مجنونة على الخطأ الخلقى .

وهذا ينقلنا إلى لون آخر من ألوان الخطر الملاحق الذى يهدد به الرأى العام عندنا قضية السلوك والأخلاق . .

إن الجاهلة المزمنة تضيء بل تنفث في رأيها العام تزمنا ضاريا . يميل به عن السلوك السوى الذي يجب أن يسلكه تجاه الخطئين خطأ أخلاقيا . . فكم من أناس كان من الممكن أن يرجعوا عن الشر وهم في بداية الطريق ، لولا الحقد المتبادل بينهم وبين الرأي العام الذي ينظر إليهم في بلاهة وقسوة ، ويعالج عدوانهم بعدوان أشد وأنكى . . .

ألا إن عجز الرأي العام عن التسامح مع الخطأ الخلقى ليعزى بالمزيد منه ، ويفضى إلى إدمانه . ؟ فالنفس البشرية بطبيعتها تسمو فوق نزواتها كلما أحاطت بها اتهامات الآخرين ومشاعرهم الحفية الودودة . .

وكذلك تزداد عثراتها الخلقية كلما أحست أنها موضع استهجان وعدم مبالاة . هنالك تمضى في رذيلتها إلى آخر الشوط ، وتشرب من كأسها حتى الثمالة يسوقها ذلك شعار : « أنا الغريق ؟ فما خوفي من البلل » . . وهكذا نجد الرأي العام الجاهل التزمت كالطاغية تماما . كلاهما مزرعة للرذيلة . يعزى بها ، ويدفع ضحاياها إليها دفعا ويلا .

وكأى من فنيات انتحرن لأن خطأ أخلاقيا ارتكبته كان مستورا ثم تكشف . . وكثيرا ما يكون هذا الخطأ من الضالة بحيث لا يستحق التكفير عنه بالاعتذار . . فضلا عن الانتحار . . .

رأيت — فيما رأيت — أسرة ، كل نساءها وبناتها يمارسن البغاء السرى . . ورجال الأسرة من أزواج وإخوة لا يعلمون شيئا . .

ونساء الأسرة عبارة عن أم ، وبناتها المتزوجة . . وبنات الطالبتين . . والأم يشارف عمرها الستين . وهى التى تدير مأدبة الرذيلة وتقدم للضيوف فى حذر ومهارة بناتها الزوجة ، وبناتها الطالبتين . . (١٤)

لماذا تفعل الأم هذا وترتكبه ؟ إن الظروف المعيشية كما رأيتموها ، لا يمكن أن تكون سببا . والرغبة المشتبهة ، لا وجود لها بين الحوافز على الأقل بالنسبة للأم ، وبينها الزوجة . .

لا أستطيع الزعم بأننى عرفت الباءت الكامن فى جوف المأساة . . ولكنى تأكدت من قصة « الأم » التى سأرويها لكم الآن .

كان أبوها تاجرا كبيرا ، وكانت أسرتهما تقيم بأحدى مدن العواصم الصغيرة . وعلى الرغم من صلاح أبيها ومحافظته ، فقد كان رجلا متسامحا إلى حد غير قليل . .

أحبت الفتاة شابا يعمل فى تجارة أبيها ، وسارجهما فى تكتم واستحياء . . وذات ليلة ، وأخوها راجع من عرس كان يشهده ، والفجر يقرع أبواب يوم جديد ، « ضبطها » بين ذراعى فتاها فى ذلك المكان الذى يسميه الناس « بير السلم » . .

لم تسكن تصنع وحبيبها ساعثنى ، كما لم يصنعا من قبل أكثر من النجوى . وما تثيره النجوى من فضول خفيف ترتكبه الشفتان والدرعان . . .

وطبعاً أخبر الأخ أمه وأباه . وأصرت الأم على طرد الفتى من عمله . . واكتفى الأب بتوجيه نافع أسداء إليه وشفعه بالتهديد بالطرد إن هو عاد . . بيد أن الأم صممت على الطرد وغاضبت زوجها من أجل هذا . ثم عادت إلى بيت زوجها بعد أن انتصرت مشيتها . وخلال هذه الظروف والأيام ، كان الخبر قد تفلت من ثقب النوافذ ، وتلففته آذان الطريق . وصار الوالد حديث الناس وموضوع تندرهم .

كيف يكت على ما حدث . . كيف لا يقتل الفتى ، وليس فقط يطرده . . بل كيف لا يغسل العار بدم ابنته نفسها . . ؟ . والعواطف تعدى ، والأيحاء يضل . .

وهكذا ، فإن « الرأى العام » فى تلك المدينة الصغيرة أنسى الرجل عقله وتساعده . . وذات يوم أصلى ابنته ضرباً أليماً . وعاشت الفتاة فى جو خانق من التحقير والأهانة . . وحددت إقامتها وروقت حركاتها بشكل ضاغط مثير .

وبعد سنوات تزوجت ، ثم طلقت ، ثم تزوجت رجلاً بالقاهرة وبقيت فى عصمته حتى توفى . . وهى لا تنكر أنها وهى معه وفى عصمته كانت تفعل — دون علمه — ما تشاء . . (٩)

إن بنتها المتزوجة كذلك . تفعل بأرشادها ما تشاء (٩) والزوج لا يعلم . . بل إن الزوج ليتحدث عن زوجته فى ثقة غامرة . حتى لكأنها قديسة عذراء . . ١١

مرة أخرى ، لا أزعم أننى أعرف حقيقة الباعث الذى ألزم الأم هذا السلوك المزدول . ولاكننى مطمئن ، وهى طمأنينة لا أكلفكم أن تتقبلوها — أقول إننى مطمئن إلى أن الدورَ الأجرامى الذى لعبه الرأى العام فى ذلك « البلد » الذى كانت تقيم فيه الأسرة . والذى ألب الوالد على بنته وحرضه . . والذى خلق من شئء تافه ، فضيحة مزلة شهت روح الفتاة ، وشحنت نفسها بالحق الضارى . .

هذا الرأى العام الجاهل المنافق التعس ، هو المسئول الأول عن هذه المأساة وعن ذلك الحشد الكبير من المساكين للمائلة .

سألت الأم — ذات مرة — :
— أليس الأفضل أن تجنب بذنيها الطالبتين ذلك الطريق حرصاً على
مستقبليهما ؟؟

فأجابني وهي تضحك :

— مستقبل . . .؟؟ الحياة ما تستاهلش . . . ١١١
أجل ، لقد أفتعناها بتفاهة الحياة ، وتفاهة كل ما بها من قيم ، يوم
وقفنا منها وهي فتاة بريئة طاهرة ذلك الموقف العادر الخزي . . . ويوم
حظرنا عليها أن تتنفس . . .

يومئذ ، دفمها الرأي العام بكلتا يديه إلى الرذيلة والشقاء .
ولقد يسأل سائل :

— أتريد من الرأي العام أن يسكت على الرذائل ، أو يصفق لها ؟؟
وأجب : لا . . . ولكني أريد ألا يسلك تجاهها مسلكاً غيبياً يضاعف
من ضراوتها وانتشارها . . .

والحد الوسط بين الإفراط والتفريط ، بين التهاون والتزمت — هو
ما ندعو إليه . مدركين أن الظفر به يتطلب جهوداً مخلصة شريفة تبذل
في سخاء لتطوّر رأينا العام وتنويره ،
ما نوع هذه الجهود اللازمة . . .

أستطيع أن ألخصها في كلمة واحدة هي « المعرفة » . . .
وأنتم تعلمون أن في مقدمة وسائل المعرفة ، الكتاب . والصحيفة . .
وتعلمون أيضاً احتياجنا العارمة إلى الكتاب الموجه ، والصحيفة الباعثة ..
أما الكتاب ، فلا مناص من إطلاق جميع امکانيات الانلازمة

للكاتب من حرية ، وتشجيع ، ولا بد من إلغاء كافة الملباسات التي تبعث في نفس الكاتب القنوط والسامة . . وأيضا لا بد من كتاب ومفكرين يكرسون مواهبهم للنضال ضد ما في الحياة من كذب وألم وعجز . . ويعيشون للحق . ويؤثرون الواجب على المنفعة . . بيد أنه ينبغي إدراك ظاهرة هامة . . هي أن الكاتب يقاتل في معركة شبه يائسة ، إذا لم تسلك الصحافة نفس الطريق المستقيم الذي ندعو الكتاب للسير فيه . لأن ضجتها التي لا تنهى . وإيحائها الموصول النافذ يجعلها أكثر هيمنة ، وأعلى صوتا ، وأوفر نفوذا ..

والحق أن في صحافتنا خيرا لا ينكر . . ولها دور مذكور ومشكور في إنشاء الرأي العام ، وشد أزره . . لكن من الحق أيضا أن فيها شرورا لا تطق . . ولها دور تمس في تضليل الرأي العام واعتياق نموه . . فإذا قلنا إنها تأخذ بالشمال ما تعطى باليمين لم نسكن إلا صادتين . . ونحن لا نسكاد نعلم كيف تستطيع صحيفة تلعب القمار مع القاري ، وترسم سياسة توزيعها في غيبة فضائل المهنة ، والشعور بتبعات الفكر . . . كيف تستطيع أن تكون معلما ومرشدا . . ؟ ؟

لقد قلنا إن الناس يصوغون سلوكهم وفق القيم التي تسود مجتمعهم . وصحافتنا طبول تفرع لقيحة واحدة هي المنفعة . . ١١

والسباق اللاهث للمسعور الناشب بينها نحو التوزيع الأكثر . جعلها نمرغ كل التزاماتها الشريفة في التراب والوحل .

عندما تواظب الصحيفة على إبراز الحوادث النافذة وتعطيها من الأهمية ما تعطيه لأعلان حرب عالمية . من العناوين الضخمة ، والعرض المثير .

فإن ذلك لا يعنى قط سوى شىء واحد . هو إتلاف الملكات الذهنية
للقراء الذين يتكون منهم رأينا العام . .

وعندما تنشر صحيفة بنفس الطريقة السالفة ، نص محادثة
بين رجل وزوجته ، أو رفيق مع صديق . ؟ فأنها بهذا تلبس
الرذيلة ثوب الفضيلة . بل ثوب البطولة . وتقعن قراءها بأن التجسس
على الأسرار التى أعلنت قداستها حقوق الإنسان . ليس سوى عمل
شريف وبطولة تستأهل الحفاوة والأعجاب . . ١

وعندما تعالج الصحافة القضايا القومية بروح حزبية . أو القضايا
الإنسانية بروح غير إنسانية . .

وعندما تلتمس للباطل المعاذير والمبررات . فأنها نصيب الرأى العام
بشر ما يمزقه . وتعرقل فى همة باعية كل وسائل التريية ومحاولات التفوق
الخلقى للجماعة . .

فكيف نأخذ بزمام هذا المارد الضارى إلى الخير والحق والواجب ؟؟
ألا إنه لعبث أكين أن نتقدم للصحافة بموعظة . . ؟
وأىضا ، إنها لمحاقة مزعجة أن نطالب بوضعها تحت وصاية . . نحن
الذين نرى أن أفضل علاج لأخطاء الحرية . هو المزيد من الحرية . . .
إذن ، فما السبيل . . ١

هناك سبيل نقترحه وندعو له هو أن نحرر الصحافة - قدر الاستطاعة -
من وطأة المنفعة . التى تضلها ، وتضل معها الجماهير .

وستتوسل لهذا بالقانون .. وإنه ليؤسفنا ونحن ندعو لأحياء الشعور
بالواجب . ونحذر من الأسراف فى الاعتماد على القوة حتى حين تتمثل

في قانون . . يؤسفنا أن نلجأ مضطرين هنا إلى القانون لتتق بمادة
أومادتين ، شرورا قد تحتاج بعد لقوانين شتى ، وعقوبات حمة . .
أما المادة الأولى من القانون المقترح ؛ فتحرم تحريما قاطعا القبار
الدى تمارسه صحفنا . . وسنرج بهذا التحريم ، انطلاق الجهود الفنية
والعقلية في كل صحيفة لرفع مستواها حتى تنفوق على غيرها . . ومهما
يكن الأمر ؛ فستكون المنافسة بين الصحف على هذه الصورة الكريمة
سيلا يتسامى بتحريرها وبقرائها . .

أما المادة الثانية ؛ فتعيد تنظيم الجريدة من جديد . تنظيم ينفي عنها
مظهر الأفظاع وسلوكه وصلفه وهتانه . .

— كما نطلب من الذين ينشئون « جمعية » أو « هيئة » أن ينتخبوا
المشرفين عليها . ويلتزموا النهج القانونى الذى يردهم عن المحاولات غير
المشروعة . . فكذلك يجب أن يكون الأمر بالنسبة للصحافة . . فالواقع
أن كل صحيفة بموظفها . عبارة عن هيئة تمارس عملا مشتركا يقوم بتوجيه
المجتمع . فكيف نترك هذا العمل الجليل والخطير لفرد واحد ، هو
صاحب الجريدة . . ؟ ؟

ينبغي — إذن — أن يكون لكل صحيفة مجلس إدارة يشترك في انتخابه
جميع محررى الصحيفة وموظفها . .

وهذا المجلس الذى نفترض أنه سيتكون من عشرة أعضاء ، يصير
بمثابة « جمعية عمومية » وينتخب بدوره « ثلاثة » يشرفون على التحرير
ويكونون مسئولين عنه . .

إننا نعلم — سلفاً — أن أصحاب الصحف سيخادعون القانون ، ويصلون

إلى تكوين مجلس يوافق هواهم . . ولكن ذلك لن يضرنا شيئا ، لأن كل تشريع جديد معرض للعبث الذى لا يلبث أن يزول كلما تفاعل الناس مع واجباتهم إزاءه . . على أن قليلا من الضمانات نحوط بها المحررين والموظفين ، سيجعل كل محاولة للعبث هباء باطلا . .

إن مثل هذا التنظيم للصحافة هو — فى رأينا — السبيل الأوضح لتقويمها والانتفاع بها — فتوزيع المسئولية على جماعة ينتخبهم العامة فى الجريدة سيحيى فيها وفيهم الشعور بالمسئولية . . ويرفع عنها وعنهم استبداد صاحب الجريدة . . ويحد من نشاطه الفردى الضار حين يعلم أنه لم يعد له من الأمر شيء — وأن الجريدة لم تعد إقطاعا يسيطر عليه غروره . . وأن سياستها لم تعد معلقة بكلمة تخرج من فم الملوء بالمطامع والشهوات . . بل صار ذلك كله فى أيدي المائة ، أو المائتين الذين يعملون معه ، ويحملون فوق كواهلهم المتعبة مشاق العمل وأوزاره . .

وإذا سئلت ، ماذا أبقيت إذن لصاحب الجريدة ؟ ؟

أجيب ، أبقيت له الرمح الذى سيخفيه من جريدته . بعد أن صار أو سيصير ربها حلالا مشروعا . . وأيضا أبقيت له نصيبه من الإشراف على سياسة الجريدة وتوجيهها مع الآخرين مادام سيظفر بتزكية الناخبين . . .

إننا نهيب بالمسؤولين فى كافة بلادنا العربية أن يضعوا هذا الاقتراح موضع الاعتبار . . وسواء علينا أن يجي هذا التنظيم فى صورة تشريع

وزارى تضعه الحكومة ، أو نقابى ، تضعه نقابة الصحفيين . . اللهم أن يتم ذلك حثيثاً ، ليقف ذلك المد «الأخلاقى» المدلع من عبث الصحافة ، وتكالبها على الرمح وعلى الانتشار .

إن الصحافة فى بلادنا تنمى فى رأينا العام غريزة القطيع . وتلاشى منه عقل الجماعة . مما يساعده على إدمان الرذائل الاجتماعية من تعصب ونفاق ، وحبن ، وكذب ، وجمود ، وانحطاط . وهكذا يتعطل انطلاق الجماعة إلى أعلى . فلتبحث الصحافة عن طريق أهدى للحق ، وأصون للأمانة التى تحملها ويساعدها نحن على هذا بتنفيذ ما اقترحناه .

والآن . ، وقد تعمقنا أهم مظاهر القوة والقهر العاملة الناصبة فى مجتمعنا . والمعطلة للديوع الواجب الأخلاقى كباءث ومحرك . ، فأنتما نختم هذا الفصل بالحديث عما نعينه بالواجب .

ماذا نعين بالواجب . . ؟

تتشقق الرئة المريضة الهواء النقي ، فتحوله إلى سعال . .
وتهضم المعدة السقيمة الغذاء الشهى الغنى ، فتحوله إلى مرض . .
ويتلقى العقل المخبول الكلمة المضيفة ، والحكمة المترعة ، فيحولها إلى هذيان . .

وللمجتمع قيم إذا تخربتها العلة أو أخذ مكانها نقيضها . تتحول جهود الناس إلى هباء . .

ولقد ذكرنا من قبل أننا نصوغ سلوكنا وفق القيم السائدة فى المجتمع . فإذا كانت قيماً ضالة جاء سلوكنا ضالاً مثلها . . وإن تك قيماً فاضلة ، يكن سلوكنا فاضلاً . .

وإذا رفع المجتمع لأبنائه قima مريضة مسفة ، فيجب عليه ألا يلومهم على ما تركبون وما يقترفون .. فسيكون للناس من العذر المشروع الصادق مثل ما لصاحب المعدة المريضة ، والرئة الثالثة ، والعقل المخبول . . . !
 إن كل جهد يبذل للتسامي بالسلوك سيتحول إلى النقيض . . تماماً كما تحول المعدة الممرضة الغذاء الشافي إلى مرض ، وربما إلى موت . .
 ففي ظل قيم منحرفة يتحول جهدك المبذول من أجل إحراز الصدق ، لحساب الكذب . .

وجهدك للظفر بالشرف ، يتحول لحساب الخسة . .
 وجهدك لكسب الشجاعة ، يتحول لحساب الخور والفرع . .
 وجهدك لاستشراف الحقيقة ، يلتهمه منك رصيد الخرافة . .
 وجهدك الصاعد نحو التفوق ، يتحول إلى انتكاس مروع صوب الانحطاط . . . !

وهذا هو التفسير الصحيح للواجب الذي نعينه . . فالناس عندما يجاهدون جهاداً أخلاقياً في ظل الواجب كقيمة . فأنهم يجنون أشياء ثمرات جهادهم . . وحين يبذلون كل طاقتهم لبلوغ نفس الغاية في ظل القوة كقيمة ، فأنهم لا يكونون أسعد حالاً من الذي يتحول التفاح الجيد في معدته إلى عصارة فاسدة . . . !

إننا في ظل القوة نعمل الفضيلة مضطرين ومكرهين ، فإذا زالت ظروف اضطرارنا واستكراهنا ، لم يبق معنا من الفضيلة شيء .
 أما الواجب ، فهو كما يقول « جويو » ليس شعوراً بضرورة ، ولا بضغط ، بل هو الشعور بقدرة . ولذا فهو يدفع بكل حسنا الأخلاقي

إلى الحركة . لأنه يوحى إلى الشعور بالاحترام العميق لقوانا ومحاولاتنا .
والتوسل بالقوة ينمى معنى الرق فى وجداناتنا . بينما الواجب يرفعنا ،
ويخلق بنا فى الفضاء الحر . ومعنا أخلاق الأحرار . لأخلاق العبيد ...
والقوة إرادة صناعية ، تأخذ مكان إرادتنا الطبيعية الدائية . وهكذا
نعيش بأرادة ليست منبعثة من صميمنا . وتحصرنا تلك الإرادة الدخيلة
داخل نفسها ، فتحتاج فىنا التمرد عليها ، والرغبة فى الانتقام منها . وتنمى
فىنا من النزعات ما يجعلنا أكثر توحشا .

أما الواجب ، ذلك الذى ينبعث من اقتناع صميمى لنا وليس هناك
من قوة خارجية تزجيه سوى الضرورات العادلة المنبعثة من حياتنا
الاجتماعية ؛ فهو وحده الذى يبذل خوفنا أمنا ، وتوحشنا الغرزي
اثتناساً وجدانياً وهو الذى يهبنا نور الشخصية بما يبعثه من ثقة بقدرتنا
الداخلية ، وبما يصنعه من تحرير لرقابنا ...

والقوة تعتمد على فرض أحكامها وأوامرها ، من غير أن تربطنا
بواجبات مفهومة ، ومن غير أن تعطى الباعث الخلقى الاهتمامات اللازمة
لبعثه وشحنه وتعليته .

أما الواجب ، فيخاطب الباعث رأساً ، ويروضه على إدراك واجب
أخلاقي تزجيه وتحميه قوانا النامية ، وأفكارنا المقتنعة ، وعواطفنا
للمتطلعة لخير ما فى الناس من مكارم ، والمزاملة لأسمى ما يبذلون من محاولة .
وهكذا نجد القوة حين تتحول إلى قيمة عليا تناط بها محاولاتنا
أو بتعبير أصح ، يناط بها إذعائنا الخلقى — نجدها أكثر نأياً بنا وابتعاداً
عن الفضيلة الراضخة ، والسلوك القويم .

يقول ما كولى : — « إن خير معيار لخلق الرجل ، هى الأشياء التى يفعلها فى خلوته حين يتأكد أنه لن يطلع على سره أحد . »

ويقول هوايتهد : — « الدين هو ما يصنعه المرء فى خلوته . »

أجل ، إن الوحدة لتنضو عن الإنسان ما يستر حقيقة نفسه .

وهذا أجمل وأصدق تصوير للفضيلة . . حين تكون وحدك .

لاسلطان لأحد عليك ، تبرز حقيقتك ، وتظهر كل خفاياك .. وإذا كنت

خبيث الطوية فأن مسرح الواقع يوجع بمواهبك الشريرة التى ستنتطلق

ساعية كحيات وأفاعى انطلقت من جراب حاو أو ساحر . . ويذهب

عنك الانسان الذى يتصعب فضيلة ، ويختر بالود للناس ، والغيرة على

الحق ، ويتجلى شخصك الطبيعى الذى صنعه القوة ، وأتمت ضراوته ..

إن هذا الذى نستطيع أن نتبينه فى أنفسنا حين نخلو بها ، .. وحين

تفكر فى نفعية ، وغش وأناية .. ليكشف عن خيبة القوة وإخفاقها

فى خلق الفرد الصالح والمجتمع الصالح . ذلك لأن القوة لا سلطان لها

على داخلنا ، وعلى ما فى هذا الداخل من بواعث ورغبات . . بخلاف

الواجب الذى يدعم بنياننا من الداخل دعماً قوياً يحمى هيكلنا من أن

يقوض ويسوى بالتراب ..

حولنا بلاد تكافح السرقة .. كما تكافح الخطيئة الجنسية بالقتل وغيره ..

ومع هذا فللرذائل الخلقية هناك نشاط هائل لا يكف عن الحركة ،

ولا يفتر عن الارتكاب ..

وفى بلاد أخذ كسويسرا ، أو كاللاندنرك .. لا تبتز الأيدي ،

ولا ترحم الزانى بالحجارة حتى يهلك ويموت .. بل ولا تنظر للرذائل إلا

نظرتها إلى مرض يعالج في رفق وأناة .. نجد الفضيلة مترعرة ، يملأ الأفق عيبرها ، وبضيئه سناها ..

حدثني أستاذ ثقته كان في « لندن » بعد الحرب للماضية وغشيت البلاد أزمة فحم خانقة . وطلبت الحكومة من الناس أن يكفوا عن استعمال الفحم ثلاث ساعات كل يوم حددت ميعاتها .. وفي هذا الوقت من كل يوم لم يكن بين سكان « لندن » جميعاً من يخالف رغبة الحكومة . ولقد حاول صاحبنا أن يتأكد من هذا ؛ فكان يعتمد زيارة بعض معارفه من الانجليز خلال تلك الساعات .. وحين كشف أحد الانجليز بعمله هذا ، ضحك وقال له : لقد أتعبت نفسك . إن الشعب الانجليزي يحترم القانون ، لأنه قانون . بل لأنه كلمته ... هو يقولها ، وهو ينفذها وحين يقولها لا يقولها اعتسافاً أو اعتباطاً ، بل يستمدّها من الضرورات العادلة لمجتمعها . فتأخذ صفة الواجب . وحين ينفذها يستبعد نهائياً كلمة « صعب » .. ١١...

وحدثني نفس الأستاذ أنه يوم نزل « لندن » لأول مرة طالباً في إحدى جامعاتها ، أعطى ملابسه للكواء .. وفي اليوم الثاني فوجيء حين عاد إلى منزله بلفافة كبيرة موضوعة أمام باب المنزل على الطريق العام .. واقرب منها فوجد بداخلها ملابسه .. ومن ذلك اليوم علم أن مثل هذا العمل شيء عادي هناك وليس ثمت من تسول له نفسه خيانة مثل هذه الأمانات مهما يظن مكنها أمام الباب .. ١١٠٠
ليس هناك مشائق للمذنبين ، ولا سجون تنص بأدوات التعذيب . ، ولا قوانين يتجشأها في إسراف مجتمع مبطون ..

ولكن هناك أمة عشقت الحرية وتشبثت بها ، كما لم يتشبث بها أحد .. وولأوها العريق للحرية ملأ روعها ووعيا بصوت الواجب .. الواجب الذى تمليه ضرورات عادلة تتمثل فيها مصالح الأمة والجماعة .. ومن ثم يكون واجبا أخلاقيا نبيلاً . لا ذلك الذى تمليه مخاوف طغيان باغ أو تقاليد مجتمع متخلف ..

فى كتاب « الأخلاق بلا إكراه ولا جزاء » يحدثنا المؤلف عن طفلة فرنسية ، أعطتها أمها قرشاً لتشتري شيئاً للمنزل . وإذ هى تعبر الطريق دهمتها سيارة ألقت بها على الأرض وأصابها بجروح . واحتوى الطفلة إغماء طویل بيد أنها ظلت قابضة على القرش فى حركة عصبية عنيدة .. ولما أفاق ، وجراحها تنزف ، وجدت أمها أمامها ، ففتحت يدها للمقبوضة وبسطتها إلى أمها تناولها « القرش » قائلة :

— قرشك يا أمى .. لم أضيعه ..!!

يقول العلامة « جويو » معلقاً على هذه الواقعة الرائعة « لقد كانت الحياة عند الطفلة أدنى قيمة من القرش الذى أوثمت عليه .. ومنذ عام شهدت القاهرة واقعة مماثلة ..

ضابط بوليس مصرى ذهب يحمل حقيبة بها — خمسة وثلاثون ألفاً من الجنيهات — ليضبط بها عصابة تهريب .. كان الموعد بينه وبين العصابة فى منزل رئيسها . وذهب ومعه واحد من رجاله .. ووقفت القوة بعيداً عن البيت ..

وداخل البيت ، قدم لهما « كوبان من الشاي » ما إن ذاق الضابط منه رشفتين حتى ذاق فيه طعم الغدر فقد مزجته العصابة بمخدر ..

— ١٦٥ —

وأدرك أنه أحيط به وبرجله الذى معه . والذى ألقاه المخدر كجثة
هامة بعد أن تجرع (فنجان الشاي) فى سرعة وهو يقول —
ما أشبهاء .. ١١٩ !

وطلب الضابط من أفراد العصابة وكانوا أربعة أن يفتحوا باب الشقة
وهنا أسفروا عن مكرهم وطلبوا اليه أن يسلم المال الذى معه فى هدوء
أو فليكن الموت له

ونسى الفتى نفسه ، وذكر واجبه ورجع إلى الورا خطوتين حيث
احتفى بمائدة الطعام التى فى البهو . وتبادل مع العصابة الرصاص ..
كان وحيداً بينهم ، والقوة هناك لا تسمع شيئاً ولا تبصر . وتشبث
بحقيبة النقود فى استبسال جنونى .. وبدلاً من أن يحمى صدره بها ،
حماها بصدرة .. ١١٠

وهدهاه ذكاؤه فمزق زجاج النافذة برصاصة . نقل دويها نبأ المعركة
للقوة المراقبة فى الخارج .

وهاجمت القوة المكان وخرج الضابط يتهاوى ويترنح .
وفوق السلم قابله رئيسه يسأله فى هلع — هل أصابك مكروه ؟؟ ..
يبد أن الفتى لم يكن هناك فى ذاكرته وعلى لسانه سوى عبارة
واحدة هى :

— تفضل فلوسكم ... لم يضع منها شيئاً .. ١١٠

نفس الكلمات والحروف التى قالتها طفلة فرنسية منذ عشرين عاماً
فى موقف مماثل .. ١١٠

لماذا .. ؟

لم تكن الطفلة هى التى صمدت وتكلمت ، ولم يكن الضابط هو

— ١٦٦ —

الذى صمد وتكلم .. بل كان شيئاً آخر حل فيهما .
ولو تعدّد الشهد في آلاف الرجال والنساء وكان هذا الشيء حالا
في ذواتهم ومقيا . ، لرأينا نفس الصورة ، ولسمعنا نفس الكلمات ..
أما ذلك الشيء فليس سوى .. الواجب .
لأن رحلتنا إلى الكمال الانساني لتبدأ من إيماننا بالواجب ، واعتمادنا
عليه ، والتبشير به ، والتوسل لأقراره في النفوس بكل سبيل مستطاع .
والآن ، لنحاول معاً أن نبو العلة الأساسية التي تعرقل نمو الواجب
فيها .. وأن نصطنع النهج الحق الذي يأخذ بأيدينا إلى حيث نريد .
إن الذي في أقصى ذواتنا من إذعان للقوة وإيثار لها لم يكن ثمرة
الطغيان السياسى وحده . بل لقد امتزج ذلك الطغيان بعامل آخر كان
له خطره البعيد . . ذلك العامل هو « الهيمنة الدينية » . .
فماذا نعني بالهيمنة الدينية . . ؟
سنجيب .. واحسن دعونا قبل هذا نخبركم أن السلوك الانساني اليوم
يناديه رائدان أخلاقيان ، يلتقيان حيناً ، ويفترقان أحياناً . .
ذلكما الرائدان هما : الأخلاق الدينية . . وأخلاق المدنية ..
ونعني بالمدنية ، الحضارة والارتقاء . .
فمع أى هذين الرائدتين نمضى . . ؟
سنمضى - طبعاً - مع أكثرهما استهجاناً للقوة والهيمنة والقسر . .
سنمضى مع أقربهما للواجب وأكثرهما حفاوة بنا ، وحناناً علينا ،
وإدراكاً لحقيقة المشكلة التي نعانها . . ؟
أجل . مع أكثرهما فهماً للحقيقة ، وتعاوناً مع المستقبل
سنمضى . . فأيهما يكون . . ؟ ؟

أَخْلَاقُ الْمَدَنِيَّةِ ، أَهْدَى ...

« حين يفقد الحقيقى ضرورته ، يصير
« غير حقيقى .. والماضى والحاضر والمستقبل
« شوط واحد لانهائى ، تحقق الحياة به
« غرضها الأوحد التقدم »

- قبل أن نبدأ :
- الأخلاق الدينية ، غير الدين
- خصائص الأخلاق الدينية
- فلنأكل آلهتنا ، ولستحرر من القدر
- المدنية ، هى الدليل

قبل أنه نبدأ ..

في كتابنا الأول « من هنا .. نبدأ » تحدثنا في فصل « قومية الحكم » عن الحكومة الدينية ، ونفينا إمكان قيامها ..
 وفي كتاب « الديمقراطية .. أبدا » تحدثنا في فصل « ديمقراطية التشريع » عن القوانين الدينية ، مؤكداً أنه لا يمكن أن تكون هناك قوانين دينية ، إلا بالقدر الذي يسمح بأن تكون هناك « كهرباء دينية » و « مواصلات دينية » .. ١١ ..
 واليوم ، وفي هذا الفصل نناقش فكرة « الأخلاق الدينية » المتوسلين بالفهم المستأني غير المتخير لمعرفة حقيقتها . وهل استنفدت غرضها . أم لا يزال لها هدف تريده ، وواجب تبذله ..
 ودعوني أصارحك ، أنني أسمع غمغمة استنكار وتذمر . وأسمع أيضا ، همهمة سؤال يتحرك نحونا .
 هذا السؤال يقول :

— إذا كنت قد نفيت عن الدين ، الحكومة الدينية ، والقوانين الدينية ، وتوشك اليوم أن تنفي الأخلاق الدينية .. فماذا أبقى للدين إذن ؟؟ وما هو ..؟؟ وما رسالته ..؟؟ ولماذا يبقى ..؟؟
 وأعترف في صدق ، أنه سؤال عادل .. بلغ من العدالة والجدارة حدا يجعل تقبله والأجابة عنه من حتميات الموقف الذي أؤتمنا على تبعاته ..
 موقف الدين يبحثون عن الحق دون أن يهربوا مما يحىء مع الحق من مشقة وخطر .

والجواب عن هذا السؤال . بسيط بساطة الحقيقة . فنحن حين نفينا الحكومة الدينية ، لم نقل إن الدين ليس له رأى - أى رأى - فى شكل الحكومة . .

ومثل ذلك فى القوانين الدينية ، لم ننف أن يكون للدين توجيه فى إنشائها وتنظيمها . .

وإنما قلنا إن الدين لم يرسم شكلاً محدداً ومعيناً للحكومة بحيث إذا لم تقم الحكومات بهذا التصميم الخاص تصير حكومات لا دينية . . (١)
كما لم يبسط فى تفصيل كامل ، قوانين معينة اشترط الحكم بها والاحتكام إليها ، بحيث يصير العدول عنها إلحاداً وهرطقة . .

إذن ماذا فعل الدين . . ؟؟

لقد اكتفى بأن رسم الأطار الصالح للحكومة الصالحة ، فاختار نظام الشورى ، وهدى إليه قائلا « وأمرهم شورى بينهم » تاركا للناس ممارسة التفاصيل وابتكارها . كل أمة حسب ظروفها . ، وكل جيل حسب العصر الذى يعيش فيه . .

ولو فعل غير هذا ، لكان حجراً على المستقبل ، ولما استحق أن يكون ديناً . .

وسلك مع القوانين مسلكاً مشابهاً ؛ فاشتراط أن تكون أداة لأرساء الحق والعدل . ، وهى لا تكون كذلك أبداً إذا تحجرت فى نصوص معينة . ولا بد لها إذا أرادت أن تصون الحق ، وترفع ثواء العدل أن

(١) راجع الفصل الثالث فى كتاب « من هنا . . نبداً » .

تطوّر ، وتتغير ، بحيث تجيء دوماً استجابة صحيحة لمقتضيات العقل
الإنساني ومنطقه . ، وتلبية واعية لاحتياجات العصر ومشاكله . . .
وليس أدلّ على هذا من أن الإسلام نفسه أبقى على بعض قوانين
الجاهلية ، واستصحبها دون أن يغير منها شيئاً (١) .

وليس يعقل أبداً ، أن ينسخ الله بعض أحكامه المنزلة في القرآن ،
ويستجيب لمصالح الناس ؛ فيغير اليوم حكماً نزل البارحة . . ثم يحظر
عليهم بعد ألف وأربعمائة عام بالنسبة للإسلام ، وبمد ألفى سنة بالنسبة
للمسيحية ، أن يطوروا القوانين ويغيروها حسب ما تمليه ضرورات
حياتهم النامية ، ومصالحهم المتغيرة . . !

ومثل هذا الذي قلناه عن الحكومة الدينية ، والقوانين الدينية . .
تقوله عن الأخلاق الدينية . .

فنحن لا نغي أن الدين فطر الاهتمام بالفضيلة ، أو محذوف
الرعاية للأخلاق . .

ولا نغي أيضاً أنه فشل في إصلاح النفس البشرية وإرباء هداها . .
وإنما نغي ، أنه لم يلزم الناس بنهج أخلاقي متحجر . ولم يحدد الوسيلة
المفضية إلى مكارم الأخلاق . . وإنما أكد للناس أن الخير ، هو وصية
الله الخالدة . وأن الشرّ طريق المهالكين . ورفع أمام أعينهم من القيم
السامية ما هو جدير بتكريس الجهد البشري في سبيل بلوغه .

أما الوسائل التي نحقق بها جهدنا هذا ، ونبذل بها قيمنا تلك ؛

(١) راجع الفصل الثاني من كتاب « الديمقراطية . . أبداً » .

فأمرها متروك للناس . يكييفونها حسب أزمانهم وعصورهم . . وليس هناك إذن ما يمكن أن يسمى « أخلاقاً دينية » تحدد نوع الوسيلة ، وتختار للسلوك نهجاً واحداً لا تبديل له ولا تطوير فيه . . . ١١
ولو فرضنا - جدلاً - أن هذا النوع من الأخلاق وجد لنفسه مكاناً في الماضي . ؛ فهبات أن يحد له مكاناً اليوم . حيث يقود العقل قافلة التقدم في فطنة باهرة وعرفان للجميل . . جميل القوى الخيرة التي سبقتها ، والدين على رأسها . والتي لا تزال تزجي للموكب نفحات تشد عزمه وتنعش قواه . .

أجل ، إن إنسان هذا العصر إنسان جديد . . خالق قيم ، ورائد حضارة . . وهو إذ يرفض أن يكون امتداداً ألقياً لسلفه ، يريد أن يكون امتداداً رأسياً صاعداً . . ولم يعد هدفه في الحياة أن يفلسفها ، بل أن يحياها . .

وليس هناك عبث أكثر من عبث الدين يحاولون أن يسلكوه في شكيمة . ويفرضوا عليه قيماً موروثة لم يمنحها عقله الحرّ جواز المرور . . . كان عمر بن عبد العزيز من خير الدين حملتهم الأرض فوق ظهرها ، فهما ، وعدلا ، وزهدا . . ولقد كان له دعاء جدير بكل متدين صالح ورع أن يلقه ويرثله . .

كان الخليفة الصالح يدعو ربه ويقول :

« يا رب انفعني بعقل . . واجعل ما أنا صائر إليه ، أهمّ إلى مما

أنا مذبر عنه . . . » ١١

أهناك حفاوة بالعقل ، وارتباط بالمستقبل أصدق من هذا ، سيما حين

يجيء من رجل كعمر بن عبد العزيز الزاهد القانت الأواب . . ؟؟

إن الفلسفة اليوم تنأى عن وصف الانسان بأنه « كائن » . وتنتعته بأنه « صائر » إشارة إلى تطوره للتحرك أبدا . . فتأملوا في ضوء هذه الالفة الفلسفية ، كلمة عمر بن عبد العزيز وهو يقول أجعل ما أنا « صائر » إليه ، أحب إلى مما أنا مدبر عنه . .

لست أعرف لطمة توقظ الغافلين الصالحين الذين يرون في « الصيرورة » إلى أفضل « جنوحا وكفرا » ، مثل هذه التي تأتاهم من رجل يحل عن النظر في طهره وصدقه وتقواه .

فلنسأل الله معه أن ينفعنا بقولنا ، وأن يجعل اهتمامنا بالمستقبل أكثر من اهتمامنا بالماضي . .

بل لنستعمل نفسه كلمته ؛ فقد قال « أحب » ولم يقل « أكثر »
والحق أن الدكاء المنألق في كلمة « أحب إلى » يزيد فتونا بصفاء
هذا الرجل العظيم . فحاجتنا شديدة إلى تحويل قلوبنا عن الماضي
إلى المستقبل . وبذل الكثير من حبنا له . إننا نحب الماضي . . نحب القديم . .
كما يحب المريض علته ، مؤثراً إياها على مرارة الدواء ومشاق الشفاء . .
تؤثر الماضي على المستقبل ، فراراً من تبعات الانتقال التي تتطلب أول
ما تتطلب تغييراً في عالمنا العقلي . .

من أجل هذا تعظم حاجتنا إلى تحويل مودتنا وحبنا للمستقبل . .
الذي نحن صائرون إليه . .

إن وصل الأمة — أى أمة — بالتقدم الإنسانى رهن بطبيعة الموقف الذى تقفه بين الماضى ، والمستقبل ..
ونحن كقوم نحاول أن نكون راشدين ، علينا ألا نهدم الماضى ،
وفى نفس الوقت علينا ألا نربط به بل نتخذه وسيلة وموردا لمستقبل
متطور وحياة متقدمة نامية .

أما الذين يريدون لنا أن نحكم من وراء القبور فخد خاطئين —
وإنهم ليستطيعون أن يروا أنفسهم ، ويطالعوا عاقبة أمرهم والصير . إذا
هم شاهدوا أسطورة «السيد الكبير» فى فيلم « طريق الأفيال » ١١٠٠
لقد كان « السيد الكبير » يتحكم فى الحياة وفى الأحياء من قبره ،
بنفس القوة التى كان يتحكم بها حياً .
وكان أكثر الناس إذعائاً لذكركه ، وانهاراً بالماضى وتعبداً له ذلك
الذى يدعى « أبوهاى » .

إنه صورة حية لعبيد الماضى وسدنة التقاليد .. ويوم زحفت الأفيال
كمد المحيط على القصر الذى تحداها به « السيد الكبير » وقطع به طريق
الماء .. جاء « أبوهاى » مستطار اللب ، مفزع الفؤاد إذ رآها تسحق
قبر سيده سحقاً . وهم ليحظى رفاته .. فتقدم إليه فيل متواضع ، والنقطة
بخرطومه . ثم طوح به إلى منيته كأنه بعوضة ١١٠٠
هكذا يفعل التقدم بكل من يقف زحفه ، ويتخذ من الماضى
قبلته وإمامه .

إن الحياة تجدد وصعود مستمرين .. وكل حقيقى فيها يتحول إلى

النقيض حين يفقد ضرورته .. والماضى ، والحاضر ، والمستقبل ، تقسيم
وضعى ونسبى ليس أكثر .

والزمان فى نظر الحياة ، ليس سوى شوط واحد لانهاى تريد أن
تحقق به غرضها الأوحد .. ألا وهو التقدم ..

فالتحيز الماضى عمل يرفضه الماضى نفسه ، لأنه يفقد وجوده
وموضوعيته ، فى نفس اللحظة التى نعرله فيها عن حاضر الزمان ومستقبله
كما أن وجود المستقبل ، والتبرم بفضائل العصر ومنهاجه . يعتبران من
فورهما ، جحوداً الماضى وإنكاراً لفضائله وتعاليمه . . لأن ذلك الماضى
نفسه ، كان يوماً ما ، حاضراً ، ومستقبلاً . وكان الولاء لتعاليمه الجديدة
مروفاً وإلحاداً .

وما أصدق الشاعر الذى قال :

قل لمن لا يرى للعاصر شيئاً — ويرى للأوائل التقديما
إن ذاك القديم كان جديداً — وسيضحى هذا الجديد قديماً .

وإذا كان التعاون مع التطور ، والاتجاه صوب المستقبل لازمين
لتحقيق أغراض الحياة كافة . ؛ فهما أكثر جسمية ولزوماً لتحقيق غرضها
الأخلاقى .. لأن التطور والمستقبل ، يعنيان المدنية والتقدم :

والمدنية كما سنرى خلال الصفحات القادمة ضرورة للأخلاق . بل
هى الفضيلة ، وهى الأخلاق . إنها تنمى كافة مصادر السلوك من عقل ،
وشعور ، وإرادة . وتنقل الإنسان بوسائلها الكثيرة المجدية من الفردية

والعزلة اللتين ترعرعان الشهوات الضالة إلى الغيرية التي تحول اللذة الشخصية إلى وجدان عام يتحرك داخل موكب خير ، يستهدف خيراً مشتركاً .

وإنه لمن الخير أن ندرك حقيقة هامة — هي أن الدين في كافة أزيائه .. اليهودية ، والمسيحية ، والإسلام . إنما انتصر ورسخ وفتحت له القلوب ، لأنه كان في أيامه الأولى يمثل مدينة جديدة . ، مدينة أخلاقية على الأقل .. وإن المرسلين عليهم السلام لم يتوج كفاحهم ضد خصومهم العتاة بالفوز ، إلا لأنهم كانوا يمثلون طلائع المستقبل والعد . ، بينما شد خصومهم إلى الوراء بسلاسل وثيقة من حرص مشثوم على تقاليد عفا ، وتعصب ذميم لجهالات راسخة ، وتطلع مسعور إلى مغامرات باطلة ..

أجل . لقد كان موسى دعوة للمستقبل والتقدم إلى فرعون ..

ألم يناد ببشريته بدل ألوهيته ؟؟..

ألم يلخص أمر إرساله موضوع رسالته التقديمية . ، حين قال الله له

« اذهب إلى فرعون إنه طغى » ؟؟..

ألم تكن مناضلة الرجعية السياسية المتمثلة في فرعون ، والرجعية الاقتصادية المتمثلة في قارون عملاً من أعمال التقدم الأنساني ، والحضارة الزاحفة ؟؟..

ألمست مدينة فاضلة ، هذه التي قالت في ذلك اليوم البعيد جداً ،
للطبقة الكادحة المعذبة (جئت لأحرركم من الرق ، وأجعلكم أئمة ،

وحكاما ، وأجعلكم الوارثين للملك فرعون . وأمكن لكم في الأرض .
لينظر الله كيف تعملون » ..؟؟

والسيح ..؟؟

لقد كان هو الآخر حين أهلّ يمثل مدينة أخلاقية .
استمعوا للحيثيات التي طالب رؤساء الكهنة « ييلاطس » بأعدام
السيح من أجلها :

— « إننا وجدنا هذا يفسد الأمة .. ويقول للناس لا تعطوا الجزية
لقيصر . فإنه عدو الله وعدوكم ..

» لأنه يهيج الشعب . ويعلم في كل مكان . مبتدئا من الجليل
إلى هنا » .

أليس الإنسان الذي يحمل هذه المبادئ ، ويقدم رأسه وحياته ثمناً
متواضعاً لها — رسول حضارة خلقية جديدة في أيامه تلك التي كاد الناس
فيها ينسون ما هي الفضيلة ..؟؟

وانظروا .. إن الدين يلحون في طلب صلبه وإعدامه هم الكهنة ..
رعاة مدينة آفلة أفسدها أصحابها وذووها .. هم رجال الدين يطالبون
برأس من جاء يحدد للدين ضوئه الخابي ، وشبابه الضامر . في تعاليم
جديدة ..

احفظوا هذه العبرة ، واذكروها ؛ كلما حرصكم على عداوة الفكر دجال ..
إن « ييلاطس » يقول للكهنة : « كيف أقتله ، وأنا لم أجد فيه
علة واحدة . » ..

فيترا كضون كخنازير تساق إلى اللذبح .. ويصرخون :

— « اصلبه .. اصلبه .. إن أطلقته ؛ فلست محباً لقيصر » . ١١ .
باسم الدين دفع جسد المسيح إلى العذاب والموت .. وبكلمة من
رجال الدين وكهننته تماماً ، كما حدث لـ « جان دارك » وكما حدث لغيرها
من قبل ومن بعد .. وكما يحدث الآن بصورة مخففة عندما يقف بعض
المخلصين ليفصموا الأجزاء الميتة من ديانة قادمة . وليرصفوا بتضحياتهم
العذبة طريق التقدم البار .

ونعادر المسيح لمحمد ...

ألم يكن أيضاً رسول التقدم والمستقبل ؟؟ ذلك العظيم الفذ الذي
أعلن ملء عزمه و يقينه ، الأله الواحد .. الذي ليس هو من خشب ،
ولا من ذهب ، ولا من حجارة . ، والذي ليس له قاعة عرش . وليس
له في الأرض كلها حامل أختام « ١١ » والذي ليس سوى إرادة واعية
منبثة في السكون .

اممعوه وهو يسأل من أصحابه : يا رسول الله كيف رأيت ربك ..؟؟

فيجيبهم : نور أنى أراه . ١١ .

أى تحرير للعقل . ؟ أى إفساح للمعرفة . ؟

ثم أى تقديس للمدينة والمستقبل ، حين يقول عليه الصلاة والسلام .
« سيساق منكم إلى العذاب يوم القيامة أناس .. وأنهم لأشفع لهم ..
فينهاني ربي ويقول لى : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك .. لقد كانوا
يمشون القهقري على أعقابهم .. فأقول : سحقاً سحقاً ...

لأن الإسلام اختصر في هذا الحديث وحده .. هذا الحديث ولا شيء
معه .. لكفل له البقاء ما دام هناك حياة . فهذا هو دستور الحياة

الحال : لا تسبروا القهقري ، فليس وراءكم سوى أرض منهوكة منزوفة .
ولكن امضوا إلى الأمام . . . وإلى الأمام دوماً حيث «الانهاى» فى انتظاركم . .
— كانت الأديان إذن تمثل مدنيات أخلاقية فى أوانها . .

ترى ، هل لا تزال كذلك ؟؟

أخشى إذا قلت : نعم ، أن أكون قد خدعتكم . . وإذا قلت لا : ،
أن أكون قد كذبتكم . فالموضوع — فى رأينا — أضخم من أن يفصل
فيه بكلمات سريعة وعجلى . . وأنتم تعلمون أننا نعقد هذا الفصل من
الكتاب لا لتحدث عن الدين ، بل عن الأخلاق الدينية . . وهى كما
سترون الآن ، شىء مختلف عن الدين تماماً .

أما الدين ، كوحى ، ومنهاج أساسى يريد أن يظل ممسكاً ببعض
الزمام . ، فأنا متفق مع نفسى أن يكون لى فى هذا الموضوع بحث خاص
أرجو الله أن يوفقنى إليه . ويجمعنى بالحقيقة خلاله . . أما هنا فحسبنا
أن ندير خواطرننا على الأخلاق الدينية كمشكلة من مشاكل السلوك
الإنسانى .

والآن ننتقل إلى نقطة تالية ، لننظر . هل الأخلاق الدينية هى الدين .

أم لا . . ولماذا . . ؟؟

الذهاب إلى الدينية غير الدين :

سنبدأ حديثنا هذا ملاحظين أن البيئات التى بدأت فيها وانطلقت .
منها ، اليهودية ، والمسيحية ، والإسلام — كانت بيئات متخلفة تتمتع بحظ
كبير واف من الجهل ، والجمود ، والعزلة . . فلم يكن من الطبيعى «

والأمر كذلك أن يختص الدين بدعوته ، العقيدة وحدها . . بل لا بد من أن يعاون هؤلاء العزل من المعرفة ، ومن العزم ، على ترقية أحوالهم ، وتهذيب سلوكهم . ومن هنا كان الدين يعنى بالعقيدة التي جاء يئسها . ، وبمصلح الجماعة المعيشية . ، ثم بأخلاقها وسلوكها ..

ولنترك العقيدة جانباً ، لنرى ظاهرة قيمة . هي أن كل دين من الأديان الثلاثة ، كان يعالج مصلح الجماعة التي ظهر فيها ، وأخلاقها بأسلوب ملائم لظروف الجماعة وعرفها ...

وقبل أن نستخلص من هذه الظاهرة نتيجة ما ، دعونا أنضرب لها مثلاً .

كان لنساء بني إسرائيل في الدهر الأول عادة شاذة يستعملنها في العراق فكانت الواحدة منهن إذا رأت رجلاً يشتجر مع أخيها ، أو زوجها ، أو ابنها ، تهب لنجدته . فتهاجم على خصمها ، وتقبض يدها في ضغط على « خصيته » حتى يهلك ، أو يستسلم ...؟؟

فكان لا بد أن يهذب الدين هذا السلوك الشاذ الفاسد ، فكانت الآية الحادية عشرة من الأصحاح الخامس والعشرين في سفر التثنية . والتي تقول :

— « إذا تخاصم رجلان . بعضهما بعضاً . رجل وأخوه ، وتقدمت امرأة أحدهما لكي تخلص رجلها من يد ضاربه ومدت يدها وأمسكت بعورته (؟) فاقطع يدها ولا تشفق عينك » ...

وأيضاً كانت ظروف إسرائيل ، ومغامراتهم الحربية « في أرض سيحون ملك الأموريين ، وأرض عوج ملك باشان » كانت ظروفهم

فى تلك الأيام تدعوهم للتسكّر والانطواء على أنفسهم . وخلق مجتمع
منصرى لا يفتح بابه لسواهم . . فجاءت تعاليم موسى عليه السلام من
المبالة بحيث تصوغ سلوك الناس هناك وفق هذه الحاجة فقال فى الآيات
الأولى من الأصحاح المذكور :

« إذا سكن إخوة معاً ومات واحد منهم وليس له ابن ، فلا تصر
امراً لليت إلى خارج لرجل أجنبي . .

« أخوزوجها يدخل عليها ، ويتخذها لنفسه زوجة ، ويقوم لها
بواجب أخى الزوج . . والبكر الذى تلده يقوم باسم أخيه لليت
لثلاث يحمى اسمه من إسرائيل . .

« وإذا لم يرض الرجل أن يأخذ امرأة أخيه ، تصعد امرأة أخيه
إلى الباب ، إلى الشيوخ . وتقول : قد أبى أخوزوجى أن يقيم لأخيه
اسماً فى إسرائيل . لم يشأ أن يقوم لى بواجب أخى الزوج . .

« فيدعوه شيوخ مدينته ، ويتكلمون معه . فأن أصر ، وقال
لا أرضى أن أتخذها ، تتقدم امرأة أخيه إليه أمام أعين الشيوخ ، وتخلع
نعله من رجله وتبصق فى وجهه ، وتصيح وتقول ، هكذا يفعل بالرجل
الذى لا يبني بيت أخيه؛ فيدعى اسمه فى إسرائيل بيت مخلوع النعل . . ١١

أرأيتم؟؟ أيكم يود أن يكون مخلوع النعل؟؟
إن عيسى لم يفعل هذا ، ولم يأمر به .. ومحمد أيضاً .. فلماذا؟؟ لأن
ظروف البيئة التى ظهر فيها لم تسكن بحاجة إليه .

ومثل آخر ، قد يكون أكثر إيضاحاً .. فالتوراة ترسم أخلاق الحرب في قسوة لا يحتملها ضمير بشر . ١١
فانظر ما ذا كانت تقول لليهود وهم يحاربون الحثيين ، والأموريين ،
والكنعانيين :

— « .. تهدمون مذابحهم ، وتكسرون أنصابهم ، وتقطعون
شواربهم ، وتحرقون تماثيلهم بالنار ..
« لا تقطع لهم عهداً ، ولا تشفق عليهم ..
وتأمرهم أن يدمروا في « أريحا » كل شيء ، ويقتلوا جميع ما فيها ،
ومن فيها من إنسان وحيوان وطير ..
فهل من الخير ، أن ننأى اليوم بأخلاق الحرب هذه ، لأنها كانت
يوماً ما أخلاقاً دينية ، ووصايا رسول ، وكتاب مقدس .. ؟؟
فإذا أردنا مثلاً من تعاليم المسيح وجدنا شيئاً مغايراً .. إن الظروف
التي كانت تجعل سلفه موسى يوجب كل شيء حق الكلمات ناراً وسعيراً ،
لا وجود لها ، وطبيعة الداعي هنا وهو المسيح ، مختلفة عن طبيعة الداعي
هناك ، وهو موسى ..

والنكيف الأخلاقى للسلوك كان في أيام موسى مشعباً بروح الحق
والمقت والمغالة ، أما هنا « فباركوا لاعنيكم وأحبوا مبغضكم » .
من أجل هذا نلتقي داخل إهاب يسوع بأشكال عذب رقيق ،
أقصى ما تبلغه انفعالاته من عنف وحدة ، لا يتمثل في غير قوله « يا أولاد
الأفاعي » ١١ ..

نلتقي بالمسيح وهو يفتح ملكوت الله « للخطائين والزواني » ..

هل تتصورون هذا ؟؟ نعم ، ففي موعظته لحجاج الهيكل وقف يقول :

— الحق أقول لكم ، إن الخطائين والزواني يسبقونكم إلى ملكوت الله ، لأن يحيى جاءكم بالحق ؛ فلم تؤمنوا له ..

ومع هذا ، فلا نستطيع أن نجعل الأخلاق الدينية في شريعة المسيح ، أخلاقاً لعصرنا هذا ، أو على الأقل ، لانستطيع أن نتخذ بعضها كذلك .. إنه يرى النظر إلى وجه المرأة والفتاة ، التي هي اليوم زميلتك في الجامعة ، أو في العمل ، أو في الطريق .. يرى النظرة الشتهية إليها زنا .. « فأن كانت عينك اليمنى تعثر فاقطعها » .. ١ ..

« وإن كانت يدك اليمنى تعثر فاقطعها » .. ١١ ..

وعثرة العين النظر ، وعثرة العين في هذا المقام اللبس ونخشى أن تكون للمصاغة ..

ولا تزوج امرأة مطلقة ، ولو أعجبتك ، لأن « من يزوج مطلقة فإنه يزني » .. ١١ ..

« ومن لطمك على خدك الأيمن ، فحول له الآخر أيضا . ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فأترك له الرداء أيضا » .. ١١ ..

والحياة عبث ، ومباهجها لغو ، والمال شر والأنسان لا يقدر أن يخدم الله والمال ..

« لذلك أقول لكم لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ، ولا لأجسادكم بما تلبسون » .

والمستقبل فناء وعدم .. فاطلبوا « ملكوت الله وبره ، ولا تهتموا

للغد . لأن الغد يهتم بما لنفسه ويكفى اليوم شره » .. ١١
وأنعم الحياة ، وتيسيرات الحضارة ترف يحرم أصحابه من الجنة ومن
ملكوت السماء فمن كان يريد الفردوس « نخبز الشعير والنوم في المزابيل
مع الكلاب كثير » .. ١١

أجل ، هكذا يقول المسيح ، وهكذا يريد .. فهل تسمح ظروفنا
المائلة ، ونمونا العقلي والاجتماعي لمثل هذه الأخلاق الدينية أن تكون
واقعية . وأن يصاغ منها اليوم سلوك حي . : ١٢

إن الاقتصاد والادخار من يوم نحمد فيه ، ليوم قد لا نحمد فيه .. يقف
على رأس فضائل عصرنا . بل ضروراته .. فهل نأخذ بهذه الفضيلة
أم نطرحها ونحمل فضيلة « العراء » التي يدعوننا إليها المسيح فيقول :
« لا تقتنوا ذهباً ، ولا فضة ، ولا نحاساً في مناطقكم ، ولا مزوداً
للطريق ولا ثوبين ، ولا أحذية ، ولا عصا » .. ١٣

إن المسيح وحده بما أودعه الله فيه من شموخ الروح ، وصلابة
الأرادة ، وربانية الرغبة .. هو وحده يستطيع أن يصوغ سلوكه وفق
تعاليمه هذه .. أما بقية الناس ، فلا ..

ونعادر المسيح إلى محمد عليه السلام لنأخذ أيضاً منه مثلاً ..
والحق أن الرسول أكثر واقعية .. والحق أيضاً أنه كما وصفه ربه
« على خلق عظيم » شأن إخوانه المرسلين جميعاً الذين اصطفاهم الله
واختارهم . بيد أن هذا لا ينفي أن بين تعاليمه أخلاقاً كانت تلائم
روح العصر الذي ذهب . وهى اليوم أبعد ما تكون عن ملاءمة عصرنا
ونحن نبادر ، فنحذر الدين قد ينكرون علينا وضع تباين العصور

موضع الاعتبار ، نعم نخذرم ، لأنهم بأنكارهم هذا يزفون أنفسهم إلى موقف ذميم لا يطيقون تبعاته .

ذلك أننا سنسألهم : إذا لم يكن لاختلاف الأزمنة ، وتباين العصور شأن ؟ فلماذا أرسل الله موسى ، ولم يكتف بالذين سبقوه من الأنبياء والمرسلين . . ؟ ولماذا جاء المسيح بعد موسى مكلا ناموسه ومنهاجه . . ؟ ثم لماذا لم يكتف الله بهذا ؟ فأرسل محمدا . . ؟ ؟

أليس ذلك احتراما من الله ذاته للشيء الذى تنكبون علينا احترامه . وهو تباين الزمان والعصر . . وبكلمة واحدة — التطور . . ؟ ؟

ولقد تسألون بدوركم : لماذا لم يرسل الله بعد محمد أحدا . . ؟ ؟ وعلى الرغم من أن هذا السؤال لا يفيدكم فيما نحن بصدده ، نجيحكم قائلين : لسبب بسيط جدا . هو أن العقل الإنسانى ، والحضارة البشرية ، بلغا من السموق والتفوق ما يجعلهما جديرين بالسير وحدهما مكتنفين من التجربة الدينية بما حققه موسى وعيسى ومحمد ، وإخوانهم الذين سبقوهم بأيمان .

لسائل أن يسأل ويقول : إن الدين يدعو لمكارم الأخلاق جميعا ، مثل الصدق والأمانة ، والشجاعة ، والعفة ، والوفاء ، وغير هذه من الفضائل . ، وهى كلها أخلاق دينية . . فهل نفهم من حديثك عن الأخلاق الدينية ، أن يتخلى الناس عن الصدق ، والعفة ، والشجاعة ، والأمانة ، وبقية الفضائل التى حث الدين جميعه عليها . . ؟ ؟

وجوابنا ، أن الصدق والأمانة والشجاعة إلى آخر ما ذكرنا ، ليست أخلاقا دينية . . بل أخلاقا إنسانية . . عرفها الإنسان قبل أن يعرف

الدين . وعلى أرضنا وفي عصرنا هذا ملايين من البشر لا دين لهم . ومع هذا فهم يعلمون أن الصدق والأمانة والعفة والسخاء فضائل . ولو أننا أخذنا مائة رضيع ، ونشأناهم بعيداً عن المجتمع الإنساني بمؤثراته من دين ومعرفة ، لتعلموا عن طريق التجربة جدوى هذه الفضائل وحتميتها . فدور الدين إذن في هذه المسئلة لم يجاوز الحث والتزكية .. وهو دور عظيم جد عظيم . أجل ، إن الوحي لا يثبت للأفعال قيمتها ، بل يخير عنها فقط .. ثم إننا نلح في أن تفهم وجهة نظرنا في الموضوع على وجهها الصحيح فنحن لا نرفض الأخلاق الدينية ، بل نحدد صلتها بالدين . حتى إذا علمنا أنها ليست من عقائده التي يلحد منكرها ، زالت وطأتها المقدسة عنا ، وبهذا نستطيع أن نتقبل منها ما يسير العصر ، وننحى ما استنفذ غرضه ، وفقد صلاحيته .

وكذلك ، لا نتحدث عن مفردات الفضائل كالصدق ، والشجاعة والأمانة .. بل نحاول نظرة أكثر عمقاً ، وأبعد غوراً . أجل ، إن الذي يهمننا قبل سواء ، هي المعايير الخلقية التي تنتظم في اهتمام وعناية — الباعث الأخلاقي .. والوسيلة الخلقية .. فالأخلاق الدينية مثلاً — قد ترى الطريق إلى فضيلة العفة ، الانفصال فلا ترى المرأة رجلاً ، ولا يراها رجل .. ولربما كانت هذه الوسيلة أكثر إجداء من غيرها في العصور السالفة . أما اليوم ؛ فأخلاق المدنية ترى ، بل تؤكد ، أن الوسيلة المجدية لعفة صادقة ودائمة هي ، الاختلاط ... الاختلاط المحادف إلى إنشاء زمالة مؤنسة فاضلة بين الجنسين ، المرأة والرجل ..

فنبأى النظرتين نأخذ .. ؟

إن هذا المثال يكشف عن ضرورة الاعتماد على أخلاق المدنية ، سيما وقد رأينا أن الأخلاق الدينية كانت تستلهم احتياجات البيئة ، وظروفها واستعدادها .. فلماذا نحظر اليوم على أنفسنا ذلك الذى أيسر بالأمس لغيرنا ؟ .

لفهم هذا جيداً ، . إننا لا نستطيع أن نكون أخلاقيين حق نعيش في زماننا .. .

وإن الدين لا يعنيه إلا أن يعيش الناس عيشة صالحة . وأن يرتفعوا بأنفسهم ، وبفضائلهم إلى الكمال اليسور .. أما وسيلتهم لهذا ؛ فلا يمكن أبداً أن تتحجر في نص ، أو أن تحتبس في منهاج .

إن الدين ينشد رعاية شاملة للخير ، وعزواً دائماً عن الشر .

ولقد وضعت المسيحية ذلك المبدأ حين قالت :

— « لا يغلبنك الشر ، بل اغلب الشر بالخير » ووقف الإسلام نفس الموقف حين قال :

— « خالق الناس بخلق حسن ، فأكل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً »

وعلينا نحن . وطى كل جيل من الناس أن يستمد من ظروف تطوره ، وإمكانيات حضارته ، الوسائل التى يغالب بها الشر ، ويخالق الآخرين بأحسن الأخلاق ،

وعندئذ نحقق مشيئة الدين ، وإن لم نحقق مشيئة الأخلاق الدينية ..
فالأخلاق فى الدين مبداء ، وفكرة .. وهى فى الأخلاق الدينية سلوك ومنهج .

فإذا أراد الدين عفة . . وحددت الأخلاق الدينية طريقها بالفرار من المرأة ، وإلزامها قعر دارها . . فإن موقفنا يمثل في أننا ننفذ مشيئة الدين ؛ فنؤثر العفة . . ثم نختار الوسيلة الناجعة ، والملائمة لسنى تطورنا وتقدمنا وتجاربنا . وهنا نجد أنفسنا معرضين عن الأخلاق الدينية باسم الواجب ، وباسم الفضيلة ، بل وباسم الدين ذاته . . وسائر في زمالة الأخلاق الحضارية التي امتحنت الأشياء وقلبت وجوه النظر ، ثم جاءتنا تعلن في ثقة أن الانفصال بين الجنسين أقرب الطرق لكافة الرذائل الجنسية التي عرفها الإنسان من عهد الغابة حتى اليوم . . وأن الاختلاط سبيل قويم لفضائل الجنس ، وفضائل النفس (١) .

وهنا يتقدم إلينا سؤال آخر يقول :

— إذا أخذنا بوجهة نظرك التي سلفت ، فإذا يكون موقفنا من الوحي الذي حدد الوسائل واختار البواعث . ؟ ؟

وبعبارة أخرى : إن الدين هو الذي اختار الانفصال بين الجنسين كوسيلة للعفة والبعد عن مواطن الزلل والرذيلة . فإذا آثرنا اليوم وسيلة مغيرة ومضادة لتلك التي اختارها الدين ونزل بها الوحي . ألا نكون مهرطقين وضلالا ؟ ؟

والدين أيضاً اعتبر الختان من فضائل العادة للمهدة لفضيلة العفة بالذات . . فإذا رأت أخلاق المدنية العكس ، وآثرناها . . ألا نكون عصاة مذنبين ؟ ؟

(١) يراجع ما كتبناه بإفاضة وإسهاب عن المجتمع الانفصالي والمجتمع الاختلاطي وعن الاختلاط والتربية الجنسية في كتابنا « هذا . . أو الطوفان » .

ونجيب ، بأن الأخلاق الدينية تستمد غذاءها من مصادر ثلاثة .
 - أولها - ، الدين الصحيح . أى التعاليم الصادقة التى نادى بها
 الرسول ، ولم تنلها يد التحريف والتزييف . .
 - ثانياً - ، التعاليم المدخولة المدسوسة على الدين وليست منه .
 وكلنا نعرف أن هناك عشرات الآلاف من الأحاديث المكذوبة الموضوعة .
 نسبت إلى رسول الله عليه السلام زورا وبهتاناً . .
 - ثالثاً - ، التقاليد التى اختلطت بالحركة الدينية خلال تطورها
 وفتوحاتها ، ودخول الأمم والجماعات فيها ، سواء فى المسيحية أو فى الإسلام . .
 فأما مصدرها الأول ؛ فهو وحده الجدير باحترامنا . وموقفنا منه
 ينبغى أن ينطوى على ما يستحقه من إصغاء وتوقير .
 كيف . . ؟ ، وما السبيل . . ؟ ؟
 قلنا من قبل ، إن ما يريده الدين بأصرار وحسم ، هو مزاملة الخير ،
 ومقاطعة الشر . . وقلنا إن فى الدين جانباً لا يتغير . وكل تبدل فيه
 يعتبر تسريحاً للدين وإنهاء له . . ذلك هو جانب العقيدة وما يلتحم بها
 من فرائض العبادات . وفى الدين جانب آخر يخضع للتعديل والتطوير ،
 هو جانب الفقه الذى ينظم للناس معيشتهم ، وسلوكهم . .
 ولقد حدث كما ذكرنا من قبل ، أن الله ذاته غير فى القسم الثانى
 وبدل ، وهو العليم الخبير الذى يعلم ما كان وما سيكون . . والذى ليس
 بحاجة إلى أن يضع علمه موضع التجربة والاختبار .
 أليس ذلك أذ أن منه — سبحانه — إلى الناس كي يحسنوا تكيف
 الشريعة وفق ظروفهم ، ومصالحهم ، واستعدادهم ؟ ؟

أجل ، الأمر كذلك حقا . ولقد رأينا من كبار علماء الأسلام
وأكثرهم ورعا وتقوى من يقول : إذا تعارض النص من قرآن وسنة ،
مع المصلحة ، قدمت المصلحة على النص .. لأن النصوص إنما جاءت لرعاية
المصالح لا لتعطيلها . « .. ١١

إذن ، فموقفنا من الأخلاق الدينية التي تركز على نص ديني صحيح
هو تفسير النص وتكييف وجهته بحيث يتواءم مع ضروراتنا التي يكشف
العلم والتطور عن حقيقتها ..

أما الأخلاق الدينية التي تستمد وجودها من المصدرين الآخرين —
الخرافة ، والتقاليد .. فنن البداة أن ندرك مدى ما نسديه للدين ،
وللفضيلة من صنيع حين نحطمها ، ونسحقها ، ثم نذروها في الهواء ..
مرة أخرى أقول لكم : إن الدين يهتم بالموضوع لا بالشكل ، وبالمبدأ
لا بالتفاصيل ، خاصة حين يكون الأمر متصلا بشئون المجتمع والحياة ..

هذا هو المسيح يسأله رجل وهو يلقي موعظته :

— يا سيد ، قل لأخي يقاسمى الميراث .. فيجيبه يسوع :

— يا أنسان ، من أقامنى عليك قاضيا ، وقاسما .. ؟؟

وهذا هو رسول الله محمد ، يقول لأمتة :

— « إذا حدثتكم عن الله . فأنى لا أ كذب على ربي . وإذا حدثتكم

بشيء من شئون الدنيا ، فأنتم أعلم بشئون دنياكم » . .

والآن ، وقد نزعنا عن « الأخلاق الدينية » قداستها نريد أن نعرف
من خصائصها ما يجعلها جديرة بأن تترك مكانها — مشكورة — لأخلاق
أخرى جديدة ، أخلاق العلم ، والمدنية :

فصائل الأهل والدينية . .

• الأخلاق الدينية أمر مطلق ..

الأمر المطلق ، ليست هي مالا يناقش فحسب .. بل هي أيضا التي تدرم في غيبة أصحاب المصلحة الأولى في وضعها ..

فالدولة الفاشية ، أمر مطلق . بمعنى أن أوامرها فوق النقاش وإبداء الرأي . . . وبمعنى أن الذين يصطنعون هذه الأوامر ويرمونهم ، ليسوا أصحاب الحق في إبرامها ، وهم أفراد الشعب وممثلوه في برلمان حر مرند . . .

والأخلاق الدينية ، كالفاشية ، أمر مطلق لا يناقش. وأيضاً لم يستشر فيه صاحب الحق الأول والصلحة الأولى - وهو هنا ، الطبيعة الإنسانية .
فلاطبيعة الانسانية حقوقها التي لا ينبغي أن تغفل أبداً عندما يراد انتهاج خطة لسلوك أصحابها (١) .

غير أن الأخلاق الدينية لم تعبأ بالإنسان ، ولا بطبيعته .
وأكد أسمع مهمة قوم يقولون : أليس الله خالق الإنسان ومصور
طبيعته ، وهو أعلم بها وباحتياجاتها وبمصالحها ؟؟
وأقول لهم : نعم ، ولكن لا تنسوا ما قلناه منذ قريب ، من أن
الأخلاق الدينية بالمفهوم الذي ذكرنا ، ليست من عند الله . . ولكنها

تكلّمنا عن حقوق الطبيعة الإنسانية واحتياجاتها في فصل « طبيعتنا الحرة ..
أعلم » كتاب « هذا .. أو الطوفان » .

ظاهرة اجتماعية تكونت خلال الأزمان من عناصر شتى..، وحين نناقشها ،
فنحن لا نناقش الله . . .

نعود ؛ فنقول : إنها أمر مطلق ، تعتمد على الأثرام الناجز . وأخلاق
هذا شأنها لا تكون عوناً على الفضيلة والخير . . لماذا ؟؟ ، لأن الأثرام
والأكراه ، ينالان من الإرادة الانسانية حتى يوهنها . . ونحن نعلم ،
أو ينبغي أن نعلم أن نصيينا من الفضيلة ، مساو لنصيينا من الشعور بقوة
إرادتنا ، وكما يقول العلامة « جويو » — « إننا حين نقوم بواجب
خلقى ، لا نفعل أكثر من الكشف عن حدود إرادتنا ، وقوتنا » .
إذن ، فكل تعويق للأرادة ، إساءة للفضيلة ذاتها ، والأثرام القاهر
تعويق ، أى تعويق . . . !

ولقد يسألنا سائل : ألم تدع للواجب كعباث وقيمة . . ؟ . وأليس
الواجب إلزاما . . ؟

ونجيب بأن الواجب الذى دعونا إليه ، هو الواجب الأخلاقى .
فالأثرام سيكون أخلاقيا مثله . لأنه منطلق من الأرادة ، لا متسلط
عليها . . ثم إن الواجب الأخلاقى ليس أمرا مطلقا مقدسا . بل هو
فضيلة متطورة منبعثة من مدركات العصر ، وليس من أقاصى الغيب . . .
ومثل هذا ، يقال عن الأثرام الطبيعى الذى ينطلق من طبيعتنا ،
ويدفعنا للواجب . . إنه هو الآخر مختلف عن الأثرام الهابط علينا
من الأخلاق الدينية . لأنه ، وهو جزء من طبيعتنا ، لن يكون مسيطرا
عليها . بل معناها . . .

ولكى يستبين الفارق أضرب لكم مثلا .

عندما تغزونا دولة أجنبية ، فأننا نعتبر كل أوامرها وإلزاماتها
تسلطا يستحق التمرد . . .

فإذا قالت هذه الدولة ، لماذا لا تطيعون أوامرى كما تطيعون أوامر
دولتكم ؟ .. يكون جوابنا : أن أوامر دولتنا ، أوامرنا نحن . لأنها منا ،
وإلينا . . أما أنت ، فقوة دخيلة متسلطة بغير حق . .

كذلك الإلزام المنبعث من طبيعتنا ، هو جزء منها ، جزء من دولة
هى نحن ، ونحن هى . . فلا يكون وطأة ثقيله على الإرادة . بل منها
لها بخلاف ذلك القادم من خارج ، فإنه يعطلها ، ويند لها ..

فإذا سئلنا : أليست أخلاق المدنية إلزاما بسلوك معين . . ؟ أكلنا
السائل على نفس الإجابة السالفة ، وزدناه بيانا قائلين : ان أخلاق
المدنية ، ليست أمرا مطلقا . وايست لها قداسة لاهوتية تصد الناس
عن مناقشتها ، وتطويرها . . بل هى وليدة العصر ، وثمره التجربة
والعقل .

وليس يشفع للأخلاق الدينية ما قد نحسبه احتراماً للعقل تبذله
وتبديه . . فالدعوة إلى تحكيم العقل ، وإلى التفكير الحر ، غير مجدية
شيئا إذا كانت تنطوى على حرماننا من وسائل تحقيقها . .
وهل الأخلاق الدينية كذلك . .

نعم ، فهى باعتمادها على التحريم الدينى المقدس تسلبنى حق استعمال
العقل ، وفرصة التفكير الحر . . وهذا ينقلنا إلى خاصية أخرى
من خصائصها . .

• التحريم والتجريم ..

تعتمد الأخلاق الدينية على التحريم والتجريم اعتماداً غير صالح . .
 فهي تحرم ما تشاء من ألوان السلوك . ثم تجرّم في غلظة من يرتكبون
 محظوراتها ، وتسلّسكهم في عداد المجرمين . . ١١
 وإذا شئنا ضرب مثل يزيدنا اقتناعاً بوجود فارق شاسع بين الدين ،
 والأخلاق الدينية . ؛ فهذه مناسبة طيبة لالحث المنشود . .
 . فالأخلاق الدينية ، تتخذ من التحريم للتواصل سوطاً تردع به الناس
 عن الرذيلة . وإسرافها في التحريم مصحوب دائماً بتضخيم شأن الخطيئة . .
 وهذا شيء نلاحظه ، عند كل دعاة الأخلاق الدينية كافة من وعاظ ،
 وأئمة ، وكتاب ، ومؤلفين ، وشيوخ طرق . .

فهل الدين كذلك . . ؟

أبداً . بل هو على النقيض عند من يحسن فهمه .
 إن رجلاً يجيء للرسول هالوعاً مفزعاً . من أجل ذنب ارتكبه .
 فيسأله الرسول : هل شهدت معنا الصلاة . . ؟ فيقول : نعم . .
 فيقول له الرسول : إذن غفر الله لك . إن الحسنات يذهبن السيئات . ١١
 بل أكثر من هذا يقول : « والذى نفس محمد بيده لو لم تذبوا
 لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون ؛ فيغفر لهم » . . ١١
 ماذا يفيد التحريم ما دام ليس له على بواعثنا الأخلاقية سلطان . . ؟
 وماذا يفيد تجريمنا ، وتشويه أنفسنا أمام أنفسنا ، سوى الشعور
 للقيت اللذل باحتقار ذواتنا ، وسوى إشعال حرب أهلية بين المرء ونفسه

١٠. أسلحتها اللوم ، والتفريع واليأس من التفوق والاكتمال . . . ؟
 فهذا هو الطريق إلى مكارم الأخلاق . ١١١
 على أن الأنصاف يقتضينا القول بأن الأخلاق الدينية في مسألة التحريم
 هذه ، تعتمد على الدين في كثير من مظاهره - نعى مظاهر التحريم . .
 بيد أنها مسئولة ، أودعاتها هم المسئولون عن عدم توجيه النصوص
 المحرمة وجهة ترفع وطأتها عن الفضيلة والأخلاق ، وتمنع الخلط بين المسئلة
 الأخلاقية ، وغيرها من أسباب ذلك التحريم . .
 ونضرب لهذا مثلاً . .

ن الدين يحرم أكل لحم الخنزير . ويحرم ترك الصلاة . . ويحرم
 التختم بالذهب على الرجال . . ويحرم شرب الخمر ، قليلها وكثيرها . .
 وتبجى الأخلاق الدينية ؛ فتعطى هذا الحظر مفهوماً أخلاقياً ، وعلة
 أخلاقية . فتسبى إلى قضية الأخلاق إساءة كبيرة . .

ما علاقة لحم الخنزير بالفضيلة . . ؟
 أليس يمكن أن يأكله إنسان في الصباح ، وفي المساء . ثم يكون
 متحلياً بمكارم الأخلاق . صادقاً ، شجاعاً ، أميناً ، مستقيماً . . ؟
 وأليس بين تارك الصلاة أناس فضلاء هم إلى الله والفضيلة أقرب
 من بعض الذين يعانون الصلاة . . ؟
 والخمر . . ؟

إن الأسراف في تعاطيها إلى حد العريضة ، هو الذى يجعل المسرف
 غير أخلاقى . . أما الشرب الهين ، والتعاطى الوئيد . ما صلته بالأخلاق ؟
 لا تحسبوا أننى أحرض على ترك الصلاة ، وتعاطى الخمر ، والتهايم

شرائع الخنزير . . كما أن موضوع البحث ليس تحريم هذه الأشياء ،
أو عدم تحريمها . . بل هو الكشف عن العيب الذي تقتضيه الأخلاق
الدينية حين تعطي كل تحريم ديني علة أخلاقية ، ومفهوماً أخلاقياً . .
وهو عيب نستطيع أن نلح آثاره وعواقبه في رأينا العام الذي يقيس
أخلاق الناس بهذه التحريمات ، مما يسبب له ارتكاساً وخيماً في أحكامه
الفجة على الناس . .

كان « أحمد ماهر » سياسياً نظيفاً ، وأخلاقياً ممتازاً . . ومع
هذا ؛ فقد استطاع خصومه السياسيون إقناع العامة والجاهل ، بأنه
فاسد ومردول .

أتدرون لماذا . . ؟ ؟

لأنه كان يشرب خمرآ . . ويراهن على الخيل في حلبة السباق . .
وفي هذه المثلبة التافهة أغرقت فضائله الجليلة التي ينوء بحملها أولو
العزم من الرجال .

وفي كأس خمره الصغيرة ، تلاشت شجاعته الأديبة ، وإخلاصه الوطني
ونزاهته ، وحسن بلائه ، وذكائه المتقد ، وإيمانه العميق .

أجل ، نسي العظمة كل هذا ، لرجل لا يمر طرازه بالحياة ،
إلا قليلاً . ولم يذكروا له . وعنه ، إلا أنه يشرب خمرآ . . وينبش حلبة
السباق (١١١) :

إن الأخلاق الدينية لا تعطى مفاهيم صحيحة متطورة للفضيلة ، والسلوك
القويم . وهذا يجعلها خطراً عليهما . .

• إرهابية الباعث ؛ ورجعية الوسيلة :

وثالث خصائصها أنها تعتمد على باعث غير إنسانى ، وتهتدى بوسيلة غير متطورة ..

نحن ، نعم ، أن أهم عناصر الفضيلة ، هو الباعث الذى يحفزنا إليها .. ولقد قلنا من قبل ، إن أعمالنا لا توصف بالحسن ، ولا بالقبح إلا بتجوزا . والذى ينعت بهما حقيقة هو الباعث على العمل . وضربنا لهذا مثلاً — القتل .. فهو جريمة إذا كان الباعث عليه العدوان الشخصى للسلب ، أو الانتقام — وهو فضيلة إذا كان باعته الدفاع عن وطن ، أو حياة ..

وفى التربية الحديثة التى تقدمها لنا أخلاق المدنية والعصر ، نرى اهتماماً واعياً بتطهير الباعث من الدعر والخوف .. بل ومن الرغبة أيضاً .. والاتجاه به نحو الواجب .. والأخلاق الدينية لا تستطيع أن تهبنا عوناً فى هذا السبيل .

إن باعها يتمثل فى أمرين ..

الرجاء فى ثواب الله .. والخوف من عقابه ..

وطبيعة الناس أن ينفعلوا بالخوف أكثر مما ينفعلون بالرجاء ، الأمر الذى تحاول التربية الحديثة أن تصل إلى نقيضه ، والذى حققت فيه نجاحاً مبدئياً يبشر بنفوز عظيم .. ومن قديم الزمان ، حيث كانت الأخلاق الدينية تعمل فى الميدان وحدها . وحيث الناس القدامى يخافون أكثر مما يرجون .. ذهبت الأخلاق الدينية تصول وتجول مركزة جل اهتمامها فى التخويف الشديد حتى صار هو باعها للفضل ، وحافزها المحزب .

ولا بد من الاعتراف بأنها استمدت معظم خاماتها من الكتاب المقدس في المسيحية ، ومن القرآن والسنة في الإسلام .
ففى الكتاب المقدس نلتقى بآيات النذير والرعب .

— « ها أنذا ، جاعل كلالى فى فلك ناراً ، وهذا الشعب خطباً ،
ختأ كلهم .. ها أنذا أجلب عليكم أمة . كلهم جبارة يأكلون حصادك
وخبزك الذى يأكله بنوك وبنائك يأكلون غنمك وبقرك . يأكلون
جفتك وتينتك . يهلكون بالسيف مدنك الحصينة ... إياى لا تخشون
يقول الرب ، ألا ترتعدون من وجهى .. »

إن التخويف هنا أقسى من التخويف بعذاب الآخرة لأنه آت فى
يوم قريب ..

« على بيت هكاريم ارفعوا علم نار ، لأن الشر أشرف من الشمال
وكسر عظيم ، الجميلة اللطيفة ابنة صهيون أهلكها ...
« الأشرار يبادون جميعاً ؛ وعقب الأشرار ينقطع » ..
« ويل لك يا كورزين .. ويل لك يا بيت صيدا ..
« وأنت يا كفر ناحوم المرتفعة إلى السماء . ستهبطين فى الهاوية ...
« .. قد اقترب منكم ملكوت الله . وأقول لكم إنه سيكون لسدوم
فى ذلك اليوم حالة أكثر احتمالاً مما لتلك المدينة » .

وفى القرآن نلتقى بآيات التخويف تسكاد تتأجج ..
« .. وذرنى والمكذبين أولى النعمة ؛ ومهلهم قليلاً .. إن لدينا
أنسكالا وجحيماً . وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً » ..
« كلما نصبت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب » ..

« إن زلزلة الساعة شيء عظيم . . تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون » . .

« خذوه فغلوه ، ثم الجحيم صلوه ، ثم في سلسلة ذرعتها سبعون ذراعا فاسلكوه » . .

« إن شجرة الزقوم ، طعام الأثيم . كالمهل يغلى في البطون . كغلي الجحيم . . خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم . ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الجحيم » . .

« من ورائه جهنم ، ويسقى من ماء صديد » . . ؟؟

« قوا أنفسكم وأهليكم نارا . ، وقودها الناس والحجارة . عليها ملائكة غلاظ شداد » . .

بعد عرض هذه الشواهد ، نعود لحديثنا قائلين إن الأخلاق الدينية تستمد بعض ترهيبها من الكتاب المقدس ومن القرآن . . ولكنها تقف من هذه النصوص موقفاً انتهازياً باطلاً . .

فالكتاب المقدس من ألفى عام ، أو أكثر ، لم يكن يستطيع أن يتفاهم مع تلك البشرية القديمة المتخلفة التي عاش بينها بغير أن يندرها ويرهبها ويخوفها بطش الله . .

لم يكن تمت من الثقافة ، ومن التربية ، ومن التقدم الإنساني مثل الذي معنا اليوم مما يمكن أن يغنى عن التوسل بالزجر والتخويف . ، ومثل هذا يقال عن القرآن . . فتآيات التخويف فيهما . الكتاب المقدس والقرآن ، ذات مفهوم مجازي ودلالة وقتية . .

وإذا سألتني سائل : أتريد أن تخذف آيات العذاب من القرآن ،
وتستبعدها . . ؟؟

أجيبه : عفا الله عنك ، ما لهذا قصدنا . وإنما نقول إن دلالة هذه
الآيات مجازية تصويرية . تريد أن تحمل الناس الذين يخافون ولا يخجلون ،
على طاعة الله ، وترك السوء . .

وإنما لنعلم أن في القرآن آيات نسخ حكمها ، ونفذ غرضها . .
ومع هذا فهي باقية لمجرد التلاوة دون أن يكون لها حكم نافذ ، أى حكم . .
فآيات العذاب باقية للتلاوة ، وللتأريخ . تصور لنا حال مرحلة من
تطورنا الإنساني كان الخوف فيها هو المعراج الذي يصعد بالناس
إلى الكمال . .

أما أن نعتمد على التفريع الشديد ، والتخويف للمدمم في محاولتنا
الأخلاقية اليوم ، كما تفعل الأخلاق الدينية فعلا ، فعمل غير صالح ، بقدر
ما هو غير ديني .

من هذا الذي قال : « ما أرسلت نعمة ، بل أرسلت رحمة » ؟ ؟

والقائل « إني أريد رحمة لا ذبيحة » ؟؟..

أليس هو المسيح . . ؟

ومن قال أيضا « إنما أنا رحمة مهداة » ؟ ؟ . . ؟

أليس هو محمد . . ؟

أجل ، إن آيات العذاب التي يتوسل بها دعاة الأخلاق الدينية اليوم
لستعمل استعمالا ظالماً . وتسخر لمعركة لم تستشر فيها .

ولقد اعتمد عليها الدين في ذلك الزمن البعيد . يوم لم يكن منها بد . .

ومع هذا ، فقد كان يستعملها في جذر ورفق . .
 هذا هو رسول الله عليه السلام ، ببصر أما تضم طفلها إلى صدرها .
 فيسأل أصحابه الذين معه قائلاً : — أترون هذه الأم طارحة ولدها
 في النار . ؟ ؟
 فإذا أجابوه ، كلا ، يا رسول الله . .
 قال لهم : « والذى نفسى بيده . إن الله لأرحم بعبده المؤمن من
 هذه بولدها . . »
 أى إنه لن يطرح إنساناً واحداً في النار . . أى اطمئنوا ، ليس
 أمامكم نار ، ولا غسلين ، ولا مقامين من حديد . . . ١١
 وهناك أبلغ من هذا دلالة على ما نقول : فذات يوم أُسِرَّ إلى معاذ
 حديثاً ، فقال معاذ ووجهه يتهلل بشراً :
 — ألا أبشركم يا رسول الله . ؟ ؟
 — فأجابه عليه السلام : لا يا معاذ . حق لا يتكلموا . .
 وتأملوا كلمة « لا يتكلموا » تدركوا كل شيء . . .
 أما هذا الذى أسره الرسول لمعاذ . فهو « يا معاذ بن جبل . من
 مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة » .
 ألا إن جميع الناس ليعتدون غير مشركين بالله شيئاً وإن بدا لنا .
 بل وإن بدا لهم أنفسهم أنهم مشركون . ١١
 إن استعمال الخوف كباعث في عصرنا هذا ، يعتبر عملاً غير إنسانى . .
 مما مجرد الأخلاق الدينية من إنسانيتها . .
 فإذا غادرنا الباعث إلى الوسيلة ، وجدنا رجعية ضارة معتاقة . .

بم تتوسل الأخلاق الدينية للفضيلة . ٢٢
إنها تتوسل بذات الوسائل التي كانت منذ ألفين من الأعوام . . ١١
إن الله لم يكتف بموسى فبعث المسيح يكمل الناموس . . ثم لم يكتف
بالمسيح فبعث محمدا في أثره مجددا وهاديا إلى طريق جديد . .
أزید نحن اليوم أن نسیر علی المنهج الذي أكلته القرون
والدهور . . ٢٢

أجل ، هذا ما تريده الأخلاق الدينية . . وهى هنا أيضا تستغل
الآيات المقدسة استغلالا رجعيا جاهلا . .
فالكاتب المقدس مثلا يرى من آداب السلوك أن تغطى المرأة
شعرها فيقول :

— « إن كانت المرأة لا تغطى ؛ فليقص شعرها » ويقول « حسن
للرجل ، ألا يمس امرأة » .
ويرى القرآن مثل ذلك فيقول :
« يا أيها النبي قل لأزواجك ، وبناتك ، ونساء المؤمنين يدنين عليهن
من جلابيبهن » .

ويقول الرسول : « إن المرأة إذا بلغت المحيض ، لم يحل أن يظهر
منها إلا هذا . . وهذا . . مشيرا إلى الوجه والكفين . . » .
وتتجاهل الأخلاق الدينية ، أن هذا تشريع خاص بمسائل اجتماعية ،
وليس ملتحما بالعقيدة . .

وتتجاهل أيضا ، أن الرسول قال « أنتم أعلم بشئون دنياكم »
فتوغل في التشبث بنفس التفاصيل والوسائل التي كانت تصلح لزمان

غير زماننا ولقد أوقعها هذا في مأزق وبيل ، وأوقع معها ضحاياها . .
 وذلك المأزق هو : حصرها المشكلة الأخلاقية في الجنس . . .
 أجل ، إن الأخلاق الدينية لتتفعل بالجنس انفعالا مرييا . وتبالغ
 في تصويره مبالغة تدفع حتما إلى الولوغ في رذائله . وإنك لترى للمرأة
 في بلادنا - بلاد الشرق العربي كله - مخلوقا عجيبا . لا ينبغي لمسه ،
 ولا النظر إليه ، ولا إفساح المجالس له ، ولا الاقتراب منه . . .
 مع أن العقل الإنساني قد انتهى نهاية سعيدة ، إلى أن خير الفضائل
 وأزكاها ، هي التي تترعرع في مجتمع زالت فواصل الجنس منه ، وتنفوق
 على مركبات النقص التي ملأته بها الأخلاق الدينية . .
 لا تستطيع الأخلاق الدينية إذن أن تهدي للفضيلة . ما دامت تعتمد
 على الأرهاب وتتوسل بالرجعية فهي استبداد ، والأخلاق حرية . . وهي
 جمود ، والفضيلة متطورة . .
 وإرهاها هذا ، ورجعيتها تلك يزجيان لها نقيصة أخرى تمثل
 شر خصائصها . .

• التعصب ، والانطواء . .

رأينا في الفصل الأول من هذا الكتاب كيف يحمي التعصب ثمرة
 حتمية لطغيان الحكومة . وقلنا هناك ، إنه يحمي كذلك نتيجة لازمة
 لطغيان التقاليد والخرافة . ووعدنا بالحديث عن هذا في فصل قادم
 والآن قد جاء أوان الوفاء . .
 الأخلاق الدينية بطبيعتها تكوينها وفلسفتها لا تستطيع إلا أن تكون

متعصبة . لأنها مرتبطة بالماضى ، وكل ارتباط بالماضى وبالغيب وإهماله
ما عداهما من مصدر وسبب . أمر يفضى قطعاً إلى التعصب . وأخلاق
متعصبة ، لا يمكن أن تكون فاضلة ، ولا طريقاً للفضيلة . .
فالتعصب كذب ، وظلم . . كذب ، لأنك بتعصبك تزعم أن وجهة
نظرك ، هى وحدها الحق الذى يجب أن يذعن الناس له . .
وظلم ، لأنك بتعصبك تتحكم فى تفكير الآخرين ، وفى مصيرهم .
وتعطى نفسك حقاً لم يعطه الله سبحانه لنفسه . . حق حبس المستقبل ،
ومنع الغد من الانبثاق ؛ والحجر على الحقيقة الوافدة المقبلة . . ١٢
إن التعصب يسلب ضحاياها أجل الفضائل الإنسانية ، وأزكاها . .
فهو يسلبهم فضيلة الصدق . لأنهم يعمنون فى الكذب والزور .
إذ يزعمون بتعصبهم ، أنهم وحدهم الذين يعرفون . . .
ويسلبهم فضيلة الثقة بالنفس ، لأن الذى لا يثق بغيره ، عاجز عن
أن يثق بنفسه . . ولأن التعصب فى الواقع دمار يغطى به التعصب صريه
العقلى ، والأخلاقي . ويستتر به ضعفه المستقر فى أعماقه . .
وهو يسلب ضحاياها أيضاً فضيلة الأمانة ، لأن الأمانة هى قدرتك
على صيانة حق الغير . . وحين تتعصب لرأيتك وحده ، ومصالحك وحدها ،
فإنك بتعصبك هذا ، تعنى نفسك نهائياً من جمعات الرعاية المطلوبة منك
لحقوق الآخرين . . حقوقهم فى اختيار الفكرة ، والرأى ، والنهج . . .
وهو يسلبهم كذلك فضيلتي التسامح والحب . لأن الحب والتسامح ،
يقتضيان فهماً ، والتعصب جهل . . يقتضيان مشاركة ، والتعصب
انطواء . . يقتضيان سلاماً ، والتعصب حقد واضطراب . . ١٣

وهو يسلبهم فضيلة العدل . . لأن العدل هو أن تضع نفسك مكان
الآخر ، ثم تكون حكمك . والمتعصب لا يغادر نفسه ، ولا يبصر سواها .
ومن ثم ، فهو عاجز عن الحس الصادق ، والنظر الثاقب ، والحكم العادل . .
وهو يسلبهم فضيلة الرحمة . . لأنه — أى التعصب — يمثل في
حقيقته أقصى مظاهر القسوة على النفس . . ١١ °

أجل ، إن المتعصب قاس على نفسه ، يعمى في القسوة والتشفي .
وحين نتعمق المتعصبين ، نجد كلا منهم يتعصب للرأى ، أو للوضع الذى
يستر نقصا فيه . ويوارى سوءا له . وهو فى « لاشعوره » مبغض
للعاهات نفسه ، ناظم عليها نظير اقترافها النقص ، هنا يختار عقلاه الكامن
والواعى نقطة التقاء يعبران خلالها عن تناقضهما . . فيكون التعصب
معبرا عن احتقار « اللاشعور » لنفس المتعصب وذاته . ويكون فى نفس
الوقت تعبيرا عن رغبة الشعور فى ستر العاهة النفسية ، ومواراة النقص . .
فكيف يستطيع قاس على نفسه مذل لها ، أن يهب الآخرين
الرحمة والرفق . . ؟ ؟

والتعصب كذلك ، يسلب ضحايا فضيلة الشجاعة . لأنه يمثل جزع
العقل الباطن من الرأى المغاير وجبنه حياله ، وعجزه عن ملاقاته
ومواجهته . . ولعلنا بقليل من الفطنة نستطيع أن نرى أكثر المناضلين
جبنًا وهلعا ، هم أولئك المتعصبين . . الذين لا يبتعثون عن إيمان فيه ضوء
المعرفة . . بل عن تعصب فيه ظلام الجهالة . .

واقعد صدق « فون باين » حين قال فى مذكراته التى نشرها بعد
الحرب الأخيرة إن الألمان لم تهزمهم القوات المسلحة التى لقيتهم فى ميادين

الحرب . . وإنما هزمتهم قوى الظلام التي هاجتهم من داخل أنفسهم ،
والتي هي . . التعصب الذي راضتهم عليه النازية في غير شفقة وفي غير
فهم . . . !

فهل يستطيع أحد أن يخبرنا ، كيف تستطيع الأخلاق الدينية التي
تتعصب للتقديم وللخرافة . أن تهدينا إلى فضيلة وخلق . . ؟؟

عندما كان « برنارد شو » يكتب ويقول : « إن أبانا الذي
في السموات يعطينا خبزنا . ، ولكنه لا يجرى على طريقة الحبارين
في أوقات التوزيع » . . ١٢

أو يقول « خير للإنسان أن يخطئ مع روح القدس ، من أن
يخطئ مع المال » . .

أو يقول « حاذر من الإنسان الذي وضع إلهه في السماء » . . ١٣
عندما كان يقول هذا ، لم يكن أحد يتميز من الغيظ سوى دعاة
الأخلاق الدينية . وهو لم يكن يكتب مثل ذلك إلا ليجهز نهائياً على
ضراوة التعصب الديني . . وليضع الفهم للروح للأشياء ، مكان التزمّت
الكثيب . .

من أجل هذا ، كان أثره في أخلاق أمته . أمراً غير منكور . .
ونحن لا نريد أن نستفز الأخلاق الدينية في بلادنا بمثل كلمات « شو »
وأسلوبه . . وحسبنا فقط أن نناقشها بمنطق الدين نفسه ، الدين الذي
تظلمه ، وتشوّهه وتفسد ما بينه وبين الناس . .

والتعصب يفيء على الخلق الديني انطوائية كالحة ، لأنه يحصر الإنسان.

داخل نفسه، وداخل خطاياه .. والأخلاق الدينية لهذا عاجزة عن بث حياة اجتماعية خلاقة ..

إنها تلحق بنا في الكنائس والمساجد ، حيث يمكن أن نحاول حياة اجتماعية عابرة ، فتفرض سلوكاً معيناً يجعل الفرصة تغلت .. ولهذا فأن اجتماعات المعابد شكلية ، لا موضوعية ، وبعبير أكثر صحة - دينية ، لا أخلاقية ..

أليست تطالبنا بالصمت التام في الكنيسة ، وفي المسجد ؟ ؟
أليست نكلفنا بأوضاع معينة ، وطقوس معينة ، وهدوء خاص ؟ ؟
إن الحكمة تتكون في العزلة .. أما الأخلاق كما يقول الفيلسوف « كانت » فتتكون في ضوضاء الحياة .. ومن هنا تصلح الكنيسة والمسجد لتخريج حكماء ، وحكماء لا غير .. ؟ ؟
ثم إن الأخلاق الدينية تقوم على احتقار الشر ، وتدعو لمقاطعة الشرير كعلاج خلقى .. فكيف تكون اجتماعية إذن ، وهى تشجع القطيعة ، وتثيب عليها .. ؟ ؟

وننتقل الآن إلى خاصية أخرى من خصائصها .

• الجبرية ، والوعظية ..

رابطنا الأخلاق الدينية بمفهوم قدرى ، يفضى بنا أحيانا إلى تبرير الظلم فنقول « لا يقع في ملكة إلا ما يريد » .. وهى إذ تحس ضعفها أمام قوى التطور والعقل ، تتخذ موقفاً لا هوتياً صامتا ، وتترفع إلى الجبرية المطلقة التى تكف بفلسفتها المضارة قوى الشئى والمحاولة عن العمل ..

فالأخلاق الدينية تمنعنا بأننا مجبورون على سلوك معين . . وأى سلوك آخر سواء مهما يحقق من فضائل وسعادة ، ليس منها ولا من الأخلاق في شيء . . لماذا . . ؟ لأن الطريق الواحد الأحد المفضى للفضيلة هو الذى رسمه الأخلاق الدينية دون سواء

وقصر حيلتها يدفعها إلى الوعظ . فى وعظية ، بمعنى أن الموعظة الزاجرة الراجعة هى وسيلة لتقويم السلوك . . أما دراسة النفس الإنسانية دراسة تجريبية . واعتبار الخطيئة ، عاطفة ضلت طريقها . . والمرضى الخلقى ، عقدة تعالج بمعالجة ظروف نشوئها . . ووضع الإنسان تحت مجهر العلم ، لا لسان الواعظ . . كل هذه معانيات لا تعترف بها الأخلاق الدينية ، ولا تعتمد عليها

ترى ماذا تستطيع الموعظة أن تفعل بطبيعتنا . . ؟ ؟
لا شيء سوى التخدير المؤقت . . وعلى أرض تاريخنا الإنسانى نبصر ركاماً لا ينتهى لضحايا الرذيلة والشر الذين أغرقوا فى طوفان من الموعظة الخلقية العاجزة . .

وهذا يشير فى صدى إلى عجز الأخلاق الدينية يوم كانت ظروف القوة والصلاحية تملأ يمينها ، فكيف ، وهى اليوم تعاني مطاردة وإخفاكاً يزيدانها عجزاً . . ؟ ؟

الحق أن الأخلاق الدينية فاشلة فى أداء رسالة خلقية صحيحة . وهى بعيدة عن إدراك أى غرض أخلاقى ، بقدر بعدها عن الرسائل الفعالة اللازمة لبلوغ مثل هذا الغرض الرفيع . .
ولعلنا لو قمنا بعمل إحصاء بين الطوائف التى تخضع للأخلاق . .

الدينية ، وغيرها من الطوائف التي لا تخضع لها . ، لوجدنا الرذيلة بين الأولين ، أكثر منها بين الآخرين . .

وإن كتاب « الأحصاءات الصحية والحيوية » لعام — ١٩٤٩ —
ليقدم لنا إحصاء طريفة . .

فنحن نعتبر الأسراف في الطلاق رذيلة . لأنه يفضى إلى تدمير خلق كبير ، خاصة في الحالات التي يكون فيها مصحوباً بطفولة يشرذم الطلاق أمها . ويهدد مستقبلها . .

وفي الكتاب المذكور وهو كتاب إحصاء حكومي . . وجدت نسبة الطلاق بين رجال الدين ، والوعاظ ، والفقهاء ، وخدم المساجد ، والمأذونين ، والمتعبدين « ٤٥ ٪ » .

بينما وجدت بين غيرهم من الأدباء ، وعلماء الفلك ، والطبيعة ، والكيميائيين ، والخبراء ، والزراعيين بنسبة « ٢٥ ٪ » . . . ١١٠٠

هل يمكن أن نعتبر الأخلاق الدينية واجبا أخلاقيا . . ؟؟
كلا . ، فهي واجب مطلق ، كما ذكرنا وأوضحنا . والواجب المطلق لا يكون أخلاقيا بحال . إذا هو يحمل من دواعي الشر أضعاف ما ذكرناه في حديثنا عن خواص الأخلاق الدينية . .

وبعد ، فلعل من الخير أن نؤكد مرة أخرى أن هجومنا هذا على الأخلاق لا يعنى الهجوم على الدين ذاته . .

وإننا لنقول هذا ، صادقين ، لاختافين فنحن لا نتجاهل تلك المكارم السامية الرفيعة التي يدعو إليها الدين . . ونجدد من المشقة والحرج أمام الحقيقة ، إنكار ما للدين من دور بليغ في تمكين النفس

الانسانية من رحلتها الفوقية الصاعدة .
كيف نصم آذاننا عن الكتاب المقدس وهو يقول : ضمن
وصاياہ الخلقية .

-- « لا تغرم الأشرار ، ولا تحسد عمال الإثم . فانهم مثل الحشيش ،
سريعا يقطعون .. ومثل العشب الأخضر ، يذبلون » .. « اسكن الأرض
وارع الأمانة ومنفعة الأرض للجميع » ١١٩ ..
« اطرخوا عنكم الكذب ، وتكلموا بالصدق .. » اغضبوا ،
ولا تخطئوا .. لا تغرب الشمس على غيظكم ، .. وكونوا لطفاء بعضكم
نحو بعض . شفوئين ، متسامحين » ..

« كونوا رجالا .. تقووا .. لتصر كل أموركم في محبة » ..
« المحبة تتأني ، وترفق .. المحبة لا تتفاخر ، ولا تنتفخ ، ولا تقبح ،
ولا تمتد ، ولا تظن السوء . ولا تفرح بالإثم . بل تفرح بالحق » ١٢٠ ..
وأیضا ، كيف نصم السمع عن القرآن وهو يقول :
« ... وبالوالدين إحساناً وبذی القربى والميتاى والمساكين والجار
ذی القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبیل وما ملکت
أیمانکم إن الله لا یحب من كان مختالا نفورا » .

« يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتهم ، فلا تناجوا بالإثم والعدوان » ..
« ادفع بالتي هي أحسن ، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه
وليّ حمیم » .

« وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ...
وقولوا للناس حسناً ... »

« من قتل نفسا بغير نفس ، أوفساد في الأرض ، فكأنما قتل الناس جميعا . ومن أحياها . فكأنما أحيا الناس جميعا » . .

« ولا تصعر خدك للناس ، ولا تمش في الأرض مرحا . إن الله لا يحب كل غثال نفور » . « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » . « وإذا قلتم ، فاعدلوا ، ولو كان ذا قربى » . . « وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » .

« وأوفوا الكيل واليزان بالقسط ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا في الأرض مفسدين » .

« ولا تطيعوا أمر المسرفين . . الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون » . .

« ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط » . « ولا تطع كل حلاف مهين . هماز ، مشاء بنميم ، مناع للخير معتد أثيم » . .

« اجتنبوا كثيراً من الظن . إن بعض الظن إثم » . .

ولا تجسسوا . . .

ولا يغتب بعضكم بعضاً » .

« ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون » .

« ولا تكرر هوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا » . .

« وكلوا . . واشربوا . . ولا تسرفوا . . إنه لا يحب للمسرفين » . .

أفيسطيع إنسان منصف أمام هذه التوجيهات الخلقية الرفيعة التي عرضنا بعضها من الكتاب المقدس ومن القرآن ، أن يقول ليس في الدين أخلاق . ؟ ؟

لا . . غير أنه يستطيع أن يقول إن الأخلاق الدينية بمفهومها الذي شرحناه ، قد ظلمت الدين وظلمت الأخلاق ، وإن الدين وهو ينشد هذه الفضائل ، لا يلزم الناس بوسائل معينة محددة لبلوغها . .

ونحن مصممون على أن النهج الذي تقدمه المدنية اليوم ، هو على الرغم مما يلابسه من أخطاء ، النهج الأفضل بل الأوحى لتعلية السلوك والأخلاق . . فلماذا نحذرنا ونخشاه . ؟ ؟ ألا إنه كما وقف رسول الله يعلن ، أنه لبنة في بيت الفضيلة والخير . .

وكما وقف المسيح من قبله معلنا ، أنه ما جاء لينقض الناموس . بل ليكمله . .

فأن المدنية تستطيع أن تقول مثل هذا اليوم . . . أنها لا تهدم . بل تبني . . إنها تواصل الرحف الطويل نحو اللانهاى . . وفي موضوع الأخلاق* ، كما في سواء نستطيع أن نضع أيدينا في يدها ونمضى . . .

والآن ، وقبل أن نتحدث عن المدنية كرائد ودليل ، أريد أن أقول لكم : إن للأخلاق الدينية في جذر قلوب الرجال وفي أقصى وجداننا المؤمن قاعدة تركز عليها . ولا بد لكي نخلص من وطأتها المرهقة ، أن نصفي قاعدتها ومستقرها . .

هذه القاعدة تتمثل في ولائنا العميق للتقاليد ، وفي إيماننا الساذج بالقدر .

إن ولاءنا ذاك . وإيماننا هذا يمهّدان طريق نفوسنا لكافة
الجرفات التي تأتينا منتحلة اسم الدين وصفته . وفي مقدمتها — خرافة
الأخلاق الدينية . .

فلذا كل آلهتنا . . ولتحرر من القدر . .

هل أتاكم نبأ القوم الذين كانوا يصنعون من الحلوى آلهة يعبدونها ،
فاذا جاعوا أكلوها ؟ ؟
إن هؤلاء الشجعان قد قاموا بتجربة طيبة لنا . وحبذا لو انتفعنا بها
وحاكيها . ، وآلهتنا التي حان قطافه وسها هي التقاليد . .
أجل ، لقد صنعناها ، وأقمناها ، ثم أذعنّا لها في إخبات منكر ،
وتقديس مرذول .
ولطالما أسأل نفسي :

لماذا لا نأكل في الجفان الذي كان يأكل فيها آباؤنا البعيدون جداً ؟ ؟
لماذا لا ننام في المزود التي كانوا ينامون فيها واضعين ساقاً فوق ساق ،
كأنهم على عرش عظيم . . ؟ ؟ ؟
لماذا لا نتمنل بأقدامنا بعد الطعام ، نجفف بها دسم أفواهنا ،
وأيدينا ، كما كانوا يفعلون ؟ ؟ .

إن التقاليد التي خلفوها لنا ، دينية واجتماعية ، تستحق منا عزوفاً .
فهذا العزوف الذي منحناه لعاداتهم في المأكل والملبس والحياة .
ترى هل ننادي بهدم العادات والتقاليد هدمًا تامًا . . ؟ ؟ كلا ،
فالعادات والتقاليد لا تنال منها على هذه الصورة قوة . . وليس من

المصلحة أن تبديد . . فهي تمثل ضرورة من ضرورات التقدم ذاته :
إذ تقوم بوظيفة « مانعة الاصطدام » . . أجل إنها « الفرامل » التي
تأخذ قافلة المدنية عن الاندفاع المميت . .

بيد أنها تنقلب إلى « مانعة تقدم » حين تتجاوز حدها . . وهي
لا تتجاوز حدها بذاتها . بل بأسرافنا نحن في الولاء لها وتقديسها . .
منذ عام ، وتحت عنوان « ماتت الخرافة . تحيا الحقيقة » كتبت
أساءل : كيف تاهت جماهيرنا في زحمة الحياة ، وكيف زاغ نهاها ؟
كيف وقف نموها دهرًا طويلا ، وتعطلت ملكاتها حتى كادت تبديد ؟
كيف كانت تتقبل مساوئ حياتها ، وحكامها ، كأنها الصالحات
البقيات . ؟

كيف ألفت عصاها ، وأناخت كبرياءها حتى سامها كل مفلس ،
وحق تسنمت ظهورها الغربان . ؟

ما الذي أسس قيادها . ، وأخفى ظهرها للهناء والخذلان . ؟
ماذا جعلها تجفل ، والعالم يقوالب . . وتحاذر ، والدنيا تحاطر . . ؟؟
ولماذا جعلت شعارها : حسي . . وجميع ما حولها ، ومن حولها
يطلبون المزيد . . ؟ ؟

وقلت إن هناك كلمة واحدة يتلخص فيها الجواب هي : التزييف . .
تزييف الحقائق . ، تزييف القيم . ، تزييف الحياة . . ! !
وهذا حق ؟ فوراء كثير من الهزائم الماحقة التي شيعت إلى الفناء
دولا ، وحضارات . كان التزييف يقود المعركة في عنفوان وخبت

ولم يبق من تلك الحضارات سوى التي قامت على احترام الحياة ،
واستشرف حقائقها المضيئة .

وأيضاً لم يبق من الدول والجماعات ما هو حي وناض في التاريخ سوى
تلك التي حصرت اهتمامها في نشدان الحقيقة ، وربطت وعيها وسلوكها
بكل ما حسبته فاضلاً وحقاً .

أما بقية الحضارات ، والفلسفات ، والجماعات فقد ذهبت في سياق
النسيان والافتراض . مخلفة العبرة للذين تسول لهم أهواؤهم أن يسكنوا
مثل ديارها ، ويركبوا مثل عثارها . .

ترى هل تسطع الحقيقة في سماء ملبدة بغيوم التقاليد ، والبلب ، والتعفن . . ؟
أبداً . . ومن ثم ، يسطع ضوء آخر صناعي خداع . . هو ضوء
التزييف الذي يزجيه حرصنا على التقاليد ، ولولاؤنا المطلق لها ولسدتها:
النفيعين . .

وإننا لن نستطيع الخلاص من الأخلاق الدينية إلا بالخلاص من وطأة:
التقاليد وضراوتها . هذه الضراوة التي تسلب ضحاياها نور العقل وجسارة:
العزم ، وذكاء الفؤاد .

إن التقاليد وثن يقوم على حراسة الخرافة والباطل . . وتعوق تحولنا
المحتوم إلى سلوك المدنية وأخلاقها . وهي تستعين على استبقاء سلطانها
ونفوذها بمضى اللمدة أولاً . . وبأيها منا أنها مشيئة الله وقدره المكتوب ثانياً .
وفي هذه للسئلة كما في غيرها يظهر لنا فارق جلي بين الدين والأخلاق.
الدينية . . فالأخلاق الدينية تتخذ من التقاليد القديمة قاعدة تستقر فوقها ،
ومن ثم فهي حريصة على بقائها ملقية في روع الناس دائماً أنها مقدسة .

وباقية . . بيد أن الدين يدمم على التقاليد بسخريته القاتلة فكيف تحدث القرآن عن الدين « قالوا إنا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون » « إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون » . . . ١١ . .
وأيضا يظهر فارق آخر يزيدنا اقتناعا بأن الأخلاق الدينية ليست هي الدين . وذلك في مسألة القدر .

هل هناك قدر يسوقنا دون أن يكون لنا إرادة واختيار . . ؟
إن القدر مشكلة لعبت ، ولا تزال تلعب في حياة الناس دورا كبيرا . .
وكل امرئ منا تصادفه تلك الحالة التي نحس فيها كأن قوة غريبة عنا ،
تدخلت بيننا وبين محاولاتنا لتغيير أسباب نجاحها ، فتخفق . أو أسباب
إخفاقها فتنجح . . وعلى أية حال ؛ فلا يزال هناك قوانين كثيرة لم تكتشف
بعد . فإذا كان لهذا الذي نحسه ونسميه قدرا ، قانون يزيجه ، فسيظهر
يوما ما . . وحتى يظهر فأن واجبنا أن نمضي في الحياة كما لو كنا وحدنا .
والدفة في أيدينا . .

لقد سئل رسول الله عليه السلام من أصحابه الذين قالوا له :
يا رسول الله . أ رأيت أشياء تتداوى بها . هل ترد من قدر الله شيئا . . ؟؟
فأجابهم : هي من قدر الله . .

وهذا الحديث لفظة بليغة تشير إلى أن الأسباب البفضية إلى عللها ،
والمقدمات السائرة نحو نتائجها هي نفسها - قدر الله . . وليس القدر
عبثا يلغو ، ولا لغوا يعث . .

على أن الذي يعيننا هنا ، هو نفي القدر الأخلاقي . .
فنحن نعتقد أن تمت إلزاما قاهراً إلهياً يحكم علينا بالردى وسوء

المصير . ويدفعنا إلى الرذيلة مكرهين . وهو اعتقاد باطل لا يتواءم مع أبسط مبادئ التفكير . .

صحيح أن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء . .
أليست هذه هي الآية التي نستمد منها عقيدتنا في القدر الأخلاقي...؟؟
حسن . . ولماذا نهمل آية أخرى تقول :
« فلما زاغوا . . أزاع الله قلوبهم » ؟؟
أى أن الناس هم الذين يخلقون الزيغ ويبدأون به مختارين . .
فيسلمهم الله لزيغهم الذي صنعوه . .

إن الدين في ساعات صحوه ويقظته ، لينفي القدر الأخلاقي نفيًا قاطعًا ..
هذا هو الكتاب المقدس يقول على لسان الله عز وجل .
— « وضعت أمامك طريقين . طريق الحياة وطريق الموت . .
اختر الحياة لكي تحيا » ١١ . .

« ها أنذا ، قد وضعت أمامكم البركة واللعنة . . فاختروا البركة
لتعيشوا مباركين . وإن اخترتم اللعنة تكونوا ملعونين » ١١ . .
والقرآن يقول :

« واسكنوا مختلفوا . فمنهم من آمن . ومنهم من كفر » . « وما ربك
بظلام للعبيد » . .

« هذا صراط ربك مستقيما . قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون »
« إن الله لا يظلم الناس شيئا ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون » . .
« ولا يرضى لعباده الكفر » . .
« ويزيد الله الذين اهتدوا . هدي » . . .

أما الآيات الأخرى مثل :

— « إن الدين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ، ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم » .

« ومن يضل الله فما له من هاد » . .

« فريقاً هدى ، وفريقاً حق عليهم الضلالة » . .

كل هذه الآيات ذات مفهوم مجازى لا يعنيه الله وإنما يرمز به إلى استغناؤه عن أولئك الذين يعصون تعاليمه ويخرجون عليها وإلا فكيف نتصور إنساناً عاقلاً وعادلاً فضلاً عن إله عظيم كامل ، يربط يديك ورجليك بالسلاسل والحبال ثم يلقيك في اليم الصاحب ويقول لك ، اسبح يا عبدي . . . ! ! !

إن الأخلاق الدينية — لا الدين — هى التى تحاول إقناعنا بأن مصيرنا الأخلاقى محتزن فينا بطريقة إلهية صارمة . .

إذن ، فم دعوة الرسل والمصلحين . . ؟ وكيف أمضى للخير .

والله — بهذا الزعم — قد كتب على الرذيلة والشر ؟ ؟

إن الله قد كلفنا بفعل الفضيلة والخير . . والتكليف يقتضى قدرة

على العمل . .

هذه أبجديات لامراء فيها . . فهل أكون قادراً على العمل . إذا كان

الله ذاته سيرغمنى على سلوك معين . . ؟ هل أكون قادراً على الفضيلة

إذا كان الله بكل قوته ومشيتة ونفوذه سيرغمنى على الرذيلة . وهل

أكون مسئولاً أدنى مسئولية عن الرذيلة إذا كان كل دورى فيها أننى

أنفذ مشيئة الله وقدرته . . ؟ ؟

إننا نعمل بقدرة من الله فقط ، وليس بأكرام منه . . أى أن الله وهبنا الأماكن التي نستطيع أن ننشئ بها لأنفسنا وحدها ، وبأنفسنا وحدها . فضائل الحق ، والخير ، والجمال . .

لقد وهبنا الله عقلاً نميز به ، ونعرف الطيب والخبيث . وأعطانا قدرة حرة نأتي بها أعمالنا ، في الخير وفي الشر على حد سواء .

والدين روجوا لفكرة الأخلاق الدينية عن القدر ، هم أولئك الطغاة الذين مروا بأرضنا وتوسلوا بها على مدى القرون لتخديرنا وبث روح الاستسلام في عزمننا . . . ١١

أما الله فبريء من هذا . . إنه يمكن جميع الكائنات من السير في نطاق قوانينها الطبيعية . . وهو يساعد إرادتنا بتركها حرة ، وليس بتكليفها . ثم إن مسائل السلوك تكشفت اليوم بواسطة العلم . ولم نعد نرى في زواياها شياطين توسوس لنا ، ولا قدرأ يضلنا .

ولعل من الخير أن نستشهد هنا بكلمة لرجل فاضل جمع إلى غزارة علمه ، رحابة إيمانه بالله القدير . ذلكم هو « هادفيلد » يقول :

« نحن لا نزال نتحدث عن الغواية على اعتبار أنها آتية من الخارج ، في حين أنه لا يمكن أن يكون لأية غواية أقل أثر ما لم تنجذب إليها رغبة من رغباتنا الداخلية التي تقمعها في العادة . .

« إننا لا نستغوي عن طريق ما في العالم الخارجي من متع وملذات ومغريات الأبالة والشياطين ، وإنما نستغوي عن طريق أنفسنا . .

« وقدما لام آدم حواء ، ولامت حواء الشيطان . . ولكن الله لم ينخدع بهذا . بل أخرجهما من الجنة . . . (٢)

« إنهما لم يحيطا علما بالمبدأ النفسى الداخلى ؛ فليست المسئلة فى علاج المصاب بانحراف خلقى مسألة إزالة غوايته ، بل إزالة رغبته » . .
 ألا إنه ليس هناك من يحل محلنا ، لننجو نحن من تبعات أعمالنا . .
 لا القدر ولا الشياطين . . ولو أن طرح المسئولية من اليسر كما يتصور المتعلمون بالقدر ، لفسدت السماوات ، والأرض ، وما فيهن . . فلنواجه أنفسنا فى شجاعة وفهم ، وما دامت الأخلاق الدينية قد اضطربت فى يدها الموازين ولم تعد صالحة لمهمتها كرائد ودليل ، فلنبحث عن دليل سواها .

الطريقة ، هى الدليل . .

نخلص مما تقدم إلى أن المدنية هى اليوم دليل الناس إلى المستقبل الذى يوعدون . . لأن الأديان نفسها ، لم يكتب لها الفوز إلا لأنها كانت - كما أسلفنا - تمثل خطوة تقدمية فى موكب التاريخ . . ولأن المدنية هى التى تستطيع أن تقود عاداتنا ، ومعتقداتنا ، وتقاليدها إلى أعلى . .
 إن المسئلة الأخلاقية فى بلادنا محفوفة بالمصاعب . ولا شئ سوى المدنية بتفكيرها الجريء ، وتجربتها الرشيدة ، واستشرافها الواعى ، يستطيع أن يعاوننا ويمهد لنا الطريق . .
 ذلك أنها فى كل نقلة من ثقلها ، تمثل الحقيقة الجديدة التى تبرز إلى النور ، داعية الناس ، أن يعيدوا النظر فى قواعد حياتهم وتقاليدهم ، وعرفهم ، ليرتفعوا إلى مستوى الدورة التالية ، من دورات تطورهم « الحزوني » الصاعد . .
 ولقد يبدو لبعضنا أن يسأل : أين أخلاق المدنية التى تدعوننا إليها ؟ . .

إن المدينة اليوم تصطلى بنارها . . والفضيلة فيها قد تحولت إلى عنوان
ضخم ، أو إهاب فضفاض لرذائل شتى ، وموبقات كثيرة . .
لقد رفعت المدينة للناس وثناً خبيثاً ، اسمه النجاح . . وإنا لنرى
طقوس العبادة والتقرب لهذا الأله المارق . . فهي الخداع ، والنفاق ،
والدجل ، والاحتيال ، والكذب ، والغش ، والصلف ، والطغيان . .
وإلى هنا . . أتفق اتفاقاً تاماً مع الدين ميزجون هذا الاعتراض
ثم أخالفهم في أن تكون هذه هي المدينة . . .
إن المدينة توصينا بالنجاح حقاً ولكنها لم تنصبه وثناً ولا إلهاً . .
بل نحن الدين جعلناه كذلك . .

إننا نحمل في أعماقنا روااسب تدفعنا كارهين إلى البحث عن إله
أو قيصر . . والدهر الطويل الذي قضيناه نحن بني الانسان في رحى
الآلهة الكثيرة التي شهدناها تاريخنا ، لا تزال بصماته على وعينا . .
وهذه البصمات الدافعة هي المسئولة عن الأوثان النصوبة في عصرنا هذا .
سواء كانت النجاح ، أو شيئاً آخر معه . .

وطى أية حال ؟ فمن الخير أن نبدأ بالاتفاق على مفهوم المدينة . .

فما هي . . ، وما مفهومها . . ؟؟

إنها ، حركة التاريخ . . .

— هي خط التقدم الناتجة في وعى نحو مصير أفضل — دائماً —

للانسان ، وللمادة ، وللحياة . .

وحركة التاريخ تقتضى في كل مرحلة من مراحلها ، إنشاء أوضاع
تتفق وحاجات العصر . ومن ثم ، فعملها المستمر تطوير المائل إلى المقبل

وتسريح الماضي الذي فقد حقه في الوجود ، كي يأخذ حقيقى جديد مكانه
ويبدأ دورة صاعدة نحو الغرض البعيد للتقدم ، وللتاريخ .

فالمدينة إذن تطور واع إلى أفضل .. وقد تنطوى على تقيض غايتها ..
ولكنه انطواء وقى . ، ولا تلبث حتى تطرد هذا التقيض خارج ذاتها .
وإحساسنا بهذه النقائص التى تشوه بهاء مدينتنا ، برهان على صدقها
وقوتها .. ودليل على عميق أثرها فىنا ..

فنحن نبصر أخطاءها مجسمة ضخمة . لأنها تلعننا ، أن فى الأماكن
أبداع مما كان .. عكس الأخلاق الدينية تماما .. ومن ثم ، فإن ما تزجيه
فىنا من تطوع زاهر إلى هذا الأبداع ، والأكل .. يجعلنا نتخذ من
إبراز العيوب والأخطاء حافزا ملها يسوقنا إلى هذا الذى هو أبداع
مما كان ، وأبداع مما هو كائن ..

إننا نبصر فى جزع ، تلك الدوامات الهائلة من حوادث عصرنا ، فنخال
أن المدينة أخففت .. وأنها زادت الهوة الفاعرة اتساعا .. والخلاف
المشوب استعارا .. ، ولكن لا . فأينالنا فى السير الصاعد ،
وتخليقنا الجريء فى الفضاء الحر .. والغاية التى تتبدى لنا ، فننتقل
صوبها فى شوق لاهب - كل ذلك يحتم وجود بعض المساوىء والأخطاء ،
تماما كما يفعل فرس الرهان عندما يشارف الهدف ، فتتفرض عضلاته ،
ويتصبب عرقه ، وتعصف حوافره بالأرض التى تكاد تميد تحت وثبه ،
فيملا الأفق رمادا ..

إنه رماد الخطوات التى تهم لتعانق النصر .. وليس تراب الهزيمة
والانكسار .. ١٢

إن أخلاق المدنية هي وحدها ، الأخلاق التي تهيب بالإنسان إلى الصمود ، لا إلى الفناء والتداعي . . وحسبها أنها تبدأ أعمالها باحترامها الكامل لطبيعتنا الإنسانية ، احتراماً يمكنها من استثمار كل مواهبنا وإمكانياتنا ، وبعتها جميعاً للعمل في سبيل التفوق والاكتمال .

إنها — مثلاً — لا تعرق شهواتنا في بصاقها للقدس ، كما تفعل الأخلاق الدينية . . بل تعلن ولها رنين كرنين الصدق . أن شهواتنا هي فضائلنا . . . وليس السعى الفاهم للفضيلة أن تطمس شهواتك . بل أن تضيئها . . أجل تضيئها . . !

فإذا شبهنا الإنسان بمصباح ، فشهواته هي الزيت . . وإذا أنت أهرقت زيت المصباح على الأرض ذهب بدا . . وإن احتبسته داخل المصباح ، استطعت أن تحولوه إلى ضياء ونور . .

والاحتباس لا يعنى عند المدنية السكبت . بل الشوق . . وأخلاق المدنية تبدأ بنظرة صادقة واعية للإنسان ولطبيعته . وهذه النظرة طردت بعيداً عنها كل ما تميزت به الأخلاق الدينية من خصائص ذكرناها . . إن اعترافها بطبيعة الإنسان وفر عليها القتال اليائس ضد هذه الطبيعة . . ولقد وضعت طبيعة الإنسان بين ظواهر الطبيعة الكبرى . وسألت نفسها :

— هل أستطيع أن أقف حركة الشمس ودوران الأرض ، وانبثاق النبات ، بالمواعظ ، أو بالأرهاب . ؟؟ أبداً . . وإذن فغير ما أصنعه أن أتفاهم مع هذه القوى وأستثمرها قدر المستطاع . . وكذلك طبيعة الإنسان تماماً . . لا بد من التفاهم معها ، واستثمار طاقاتها الحية العارمة .

وهكذا تقرر مبدأ الحرية في أخلاق المدنية ، يقابله في الأخلاق الدينية الاستبداد . . .

وأخلاق المدنية لم تبدأ باحترام طبيعة الإنسان وحدها . بل وباحترام الحياة كلها . وإنها لتجعل من أسمى قوانين الأخلاق وأعمق قوانين الحياة شيئا واحدا . . حتى إنها لتكاد تحصر الإنسان الأخلاقي في الإنسان الحى . وإذا نحن رجعنا البصر إلى نشوء الفضيلة والرذيلة لم يسعنا إلا إزجاء التهنئة لأخلاق المدنية على صدق نظرتها .

فالإنسان الأول لم يكن يعرف الفضيلة . بل كان يعرف الضرورة . . كانت التضحية ، والصبر ، والمخاطرة ، ضرورات لازمة لحفظ حياته ، فمارسها ليلقى . . ولما بدأ أناس ينجحون في ممارسة هذه الضرورات ، وأناس يخفقون . . بدأ مفهوم الضرورة يتغير . فصار الفوز بها فضيلة ، والأخفاق فيها رذيلة .

فمن قوانين الحياة نشأت قوانين الأخلاق . وقوانين الحياة لا تهبط من اللاحياة . . بل تنبعث انبعاثا تلقائيا من الحياة نفسها .

وإننا لنستطيع بموازنة عابرة بين الفضيلة القادمة من قوانين الحياة ، والفضيلة الموفدة من الأخلاق الدينية . أن نلصق مدى الصدق والأمانة والانسجام مع الحياة في كل منهما . .

فالفضيلة الحضارية المنسجمة مع قانون الحياة تقول لنا مثلا : لا تسرفوا في احتساء الخمر . . وهنا نجد كل وجوه المعرفة يزكى هذا التوجيه . .

فعلم الأخلاق يقول : نعم ، لأن الأسراف يفضي إلى هذيان وسخرية وإدمان . .

وعلم الصحة يقول : أجل ، لأن الأسراف ضار بكبدك وأمعائك وعافيتك . .
وعلم الاقتصاد يقول : نعم ، لأن الأسراف يمتص ثروتك وينتهب مالك . .
وعلم النفس يقول : نعم ، لأن الأسراف يخلق عادة تستعبدك ،
وتعتاق تفوقك على نفسك . .

والكن عندما تقول لنا الأخلاق الدينية مثلاً لا تنظر إلى المرأة
ولا تختلط بها ، ففي هذا فتنة وضلال ، نجد تلك الوحدة الهادفة التي
يتمثل فيها وعى الحياة وقانونها تتخلف جميعاً وتتخذ موقفاً مناقضاً . .

فعلم النفس ، يقول : انظر في سمو ، واختلط في أمانة ، حتى لا تشيع
عقد الجنس في شخصيتك فتلوى زمامها عن الجادة . .

ويقول علم الاجتماع : انظر ، واختلط ، حتى لا يفضى بك انطواؤك
وانفصالك إلى انهزام مروع داخل كيائك .

ويقول علم الاقتصاد للمرأة : اختطى ، واعمل . ولا تبالي ، فأنت
نصف الأمة . ونصف إنتاجها متوقف على عملك وجهدك . .

ويقول علم الأحصاء : انظروا ، واختلطوا ، وامرحوا . . فإن نسبة
الفضيلة بين الذين يفعلون هذا ، أعلى بكثير من نسبتها بين الذين
لا يفعلون . . . ١١١

وعندما تستمد أخلاق المدنية نهجها من قوانين الحياة ، تضع عنا
شر آصارنا — الاضطراب العقلي . . ذلك أنها لا تتحكم في العقل ،
ولا ترهقه بوصاية ما . بل تضع الزمام في يده هو ؛ فيتألق ويسير العقل

الحرّ ، مع الشعور الحرّ ، مع الإرادة الحرة ، في موكب ثابت الخطى نحو الفضيلة والسكّال .

وأخلاق المدنية تطالبنا برفع مستوى وجودنا وحياتنا . فهمى تقول : لكي تظفروا بفضائي ، لا بد أن تعيشوا داخل نطاقى . .

وأنى لأرى كل يوم ظاهرة قد تكون ضئيلة لكنها تذكرنى بهذا المعنى وتزيهه فى نفسى . . وتستطيع أنت أن تراها . .

هذه « الترامات » التى تملأ شوارع القاهرة . ولا يخلو سلم أحدها من عمال ، وشبان يتسلقونها تسلقاً هروبياً ... كي لا يدفع بضع مليات . حاولت كثيراً أن أجد بين المتسلقين المنهريين من أتفه تبعات الأمانة عاملاً واحداً ، أو شاباً واحداً ، من الأجانب المقيمين بمصر ، أو المولدين فيها ، فلم أجد أبداً .

وإنى لأرجع هذا إلى شىء واحد ، هو المستوى الحضارى التقدى الذى يعيش فى نطاقه هؤلاء الناس . فى بيوتهم ، وفى أنفسهم ؛ وفى بيئتهم .

وأنا أكتفى بهذا المثال العادى ، مفضلاً أن تضع أنت بجواره مئات الشواهد والأمثلة التى تريك أن كل ارتقاء فى معيشتنا وتفكيرنا ، يزامله ارتقاء فى سلوكنا وأخلاقنا .

ولقد ازدددت اقتناعاً بهذا ، عند محاولتى الوصول إلى موازنة خلقية بين المشتغلين بحرف شتى تنتظم أدنى هذه الحرف وأعلاها . .

ولقد يتشبه قوم بقول المتنبي :

حسن الحضارة محبوب بطرية وفى البداوة حسن غير محبوب

ولكننا هنا نتحدث عن شيء أعمق، وأسمى من الحسن الذي تحدث عنه المتنبي وتلامذته . .

وليس ما يترأى لنا في الريف ، البعيد عن المدنية من فضيلة وخلق سوى سراب عظيم . . .

أين فضائل الريف ، وأخلاقه ؟ ؟

أيمكن أن نعتبر هدوء المقابر وسكينة الموتى غنما يرتجى . .
كلا ، لأن الموتى ، لا يعرفون سوى الهدوء . . وسلامهم ليس فضيلة
لأنه سلام أموات كتب عليهم الصمت الطويل . . .

إن السلام الاجتماعى القائم فى ريفنا وقرانا ، لا يخفى وراءه فضيلة ما ،
شان كل سلام صادق ، . ولكنه يخفى عجزا ، وبلادة . . ثم هو يخفى كذلك
كل سلوك الانسان البدائى الفج ، بغلظته ، وسداجته ، وسوء تقديره . .
ولو افترضنا وجود امرأتين ، حرمتا نعمة الأنجاب . . إحداها بدائية
متبربرة . والثانية معها من مدنية العقل والحياة نصيب . ، فكيف
تتصرفان . . ؟ ؟

ستنطوى الأولى على ألم ممض قاتل . وقد تسول لها نفسها خطف
رضيع وإلحاقه بنفسها ، كما يحدث فعلا .

وأما الثانية ، فإن أخلاق المدنية تهب لنجدتها ، وتشبع فيها غريزة
الأمومة بتوجيهها إلى أبناء المجتمع اللقطاء والتعساء . تحنو عليهم فى مؤسسة
اجتماعية ، أو ثقافية ، حتى لا تحس قط بجزع ولا حرمان .

أجل ، إن المدنية لتسارع فتتعم كل نقص يعتور غرائزنا الطبيعية
فى حنكة وبراعة .

وبعد :

فلن تصاب أمة برذيلة تنهش روحها ، وتجرف مصيرها مثل رذيلة
الانفصال عن التاريخ ..

فاحذروا أن تفعلوها .. ومهما يكن الثمن المبذول لكم ؛ فاحذروا ..
واعلموا أن بربرية الجسد ، والفكر ، والروح ، ضريبة التخلف .
والنكوص عن التقدم ..

ومهما تبدلوا من محاولات التفوق والنهوض ؛ فلن تستقيموا على
الطريق كسفينة أحسن الربان قيادتها حتى تولوا وجهكم شطر المدينة الإنسانية
ولا تحسبوا هذا عملاً هين التعب . ؛ فإنه ليهيب بكل منا أن يبذل
من ذات نفسه أعظم ما يطيق ..

وفي بلاد كبلادنا حيث يعجد الناس الألم ، والكذب ، والعجز ..
وحيث تغشاهم غواشي الوصولة ؛ وتحيط بهم مكاييد الطامعين ، يجب أن
نزداد ارتباطاً بالقافلة ، حتى لا تتخطفنا ذئاب الطريق ..

إن كل تخلف ، انتحار وانقراض . والمدينة لن تحس بخسارة
إذا آثرتم أن تنقرضوا ..

وأيضاً ، لن تقدرُوا ، ولو كنتم ملء الأرض ، أن تطمسوا مشعلها
المغروس في عزيمة الزمان . . .
ألا وأن المدنية اليوم لتتألم لتثب وثبة قديرة نحو تطور أخلاق أفضل
فلنساعداً أنفسنا لنظفر بمساعدتها وعونها .
هيا . . ضعوا أيمانكم في يمينها ، واعلموا أنكم إذ تمضون معها .
إنما تمضون مع عقل التاريخ وإرادته .

للمؤلف . .

- ١ — من هنا .. نبدأ
- ٢ — مواطنون .. لارعايا
- ٣ — الديمقراطية .. أبدا
- ٤ — الدين في خدمة الشعب
- ٥ — هذا .. او الضريمان

التوزيع خارج القطر
شركة فوج الله

الثنى ١٥ قرشا مصريا

Bibliotheca Alexandrina



مطبعة مخيمر
٢٩ شارع بحيش ت ٤٧١٩٢